وأد الفتنة

دراسة نقدية لشبهات المرجفين
وفتنة الجمل وصفين
على منهج المحدثين

أحمد محمود الشوابكة

تقديم ومراجعة

أ. د. محمود السرطاوي
أستاذ الفقه المقارن في
الجامعة الأردنية

أ. د. أحمد نوفل
أستاذ التفسير والدراسات القرآنية
في جامعتي اليرموك والأردنية

أ. د. محمد العمري
أستاذ الحديث وعلومه
في جامعة اليرموك





حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/٣/٩٤٠)

٩٥٦
الشوابكة، أحمد محمود
وأد الفتنة: دراسة نقدية لشبهات المرجفين وفتنة الجمل
وصفين على منهج المحدثين/ أحمد محمود الشوابكة ـ عمان:
المؤلف، ٢٠٠٩ .
(   ) ص.
ر.أ. : (٢٠٠٩/٣/٩٤٠).
الواصفات: / التاريخ الإسلامي// الإسلام /

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

دار عمار للنشر والتوزيع

عمان ـ ساحة الجامع الحسيني ـ سوق البتراء ـ عمارة الحجيري

تلفاكس٤٦٥٢٤٣٧ ـ ص .ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن

E - mail : dar_ammar @ Hotmail.com

وأد الفتنة

دراسة نقدية لشبهات المرجفين وفتنة الجمل وصفّين

على منهج المحدّثين

أحمد الشوابكة

تقديم ومراجعة

أ.د محمود السرطاوي
أستاذ الفقه المقارن في
الجامعة الأردنية

أ.د أحمد نوفل
أستاذ التفسير والدراسات القرآنية
في جامعتي اليرموك والأردنية

أ.د محمد العمري
أستاذ الحديث وعلومه
عميد كلية الشريعة في
جامعة اليرموك



الإهداء

إلى من أوصاني ربّي بهما خيراً، فقال :

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء].

إلى من أسأل ربّي لهما خيراً، فأقول :

﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

أهدي هذا الكتاب المتواضع، والمؤلَّف الوادع.

ابنكما البارّ

الغَنيّ بالفقر إلى الله

أحمد محمود خليل الشّوابكة

أبو عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أ.د محمود السّرطاوي

الحمدُ لله حمداً يكافئُ نعمه ويوافي مزيده وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأصلِّي وأسلِّم على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه والتَّابعين بإحسان إلى يوم الدِّين وبعد :

فقد رَغِبَ إليَّ الأخُ العزيز أحمد الشوابكة أن أقدِّم لكتابه (وأد الفتنة) فعشتُ مع الكتاب أقلّبُ صفحاته وأقرأ ما بين سطوره فترةً من الزمن، وكلَّما قرأتُ موضوعاً راودتني نفسي بالرُّجوع مرةً أخرى إلى ما قرأت للوقوفِ على مصادرِ البحث ؛ فقد قرأتُ في كتابه ما لم تألف الأذنُ سماعه من مصادرَ كثيرة وفي مجالس علمٍ عديدة ، الأمر الذي رأيته يستحق الوقوفَ عنده والتأكدَ من ثبتِ مراجعه ، فألفيتُ المؤلّفَ ـ جزاه الله خيراً ـ غوَّاصاً في بحرٍ لجيّ من الرّوايات التَّاريخيَّة، لا يغترف منها إلا بقدر ما صحّ من أسانيدها ، ولا يقبل منها إلا أعلاها سنداً ؛ ينفي بها كلَّ خَبثٍ أُلصِقَ بتاريخ الصَّدر الأوَّل من هذه الأمَّة، ينافحُ بالأدلّة الدَّامغة من القرآن الكريم والسُّـنَّة النَّبويَّة والحجج القويَّة ، لا يتعصبُ لرأيٍ ولا ينحازُ لفئة إلا لرسول الله ـ ﷺ ـ وصحبه الكرام ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ.

ولم يكن مبتدعاً لهذا المنهج، وإنما كان متَّبعاً لمنهج أهل الحديث ينفي بكورهم كلَّ خَبَثٍ أوردته كتب التَّاريخ التي تسردُ الرّوايات والقصصَ من غير تمحيص ولا تدقيق ، فاستغلَّ هذه الرِّوايات مَنْ في قلوبهم مرض ، فاتَّبعوا الشُّبهات وحاولوا النَّيل من المرضيين والمرضيَّات، والطّيبين والطيّبات من أمَّهات المؤمنين وصحابة الرّسول الكريم ـ ﷺ ـ.

وايم الله إنَّ هذا من وسائل حفظ الدِّين أنْ قيَّضَ الله رجالاً يواصلون الليل مع النَّهار

في البحث والدّراسة والتَّنقيب ؛ بياناً للحق وكشفاً للزيغ والبطلان، وأيُّ عمل أشرف وأنبل مقصداً من ردِّ الشُّبهات، الّتي ظنَّ قائلوها بأنَّهم قد ظفروا بما يحقّق مبتغاهم ممّا أوحت به إليهم شياطينهم ؟! لقد جاء هذا الكتاب بسهام مسدَّدة فأصابتهم في مقتل، وأغنت الكثيرين من عناء البحث والتنقيب عن الإجابات الشَّافية الوافية عن تلكم الشُّبهات وردّ الرّوايات المكذوبة والضَّعيفة بأسلوبٍ علميّ لا يختلفُ عليه اثنان من أهل العلم الّذين يبحثون عن الحقيقة.

لقد ناقش الباحث الفتنة التي ثارت زمن الصَّحابة بما عـُرف بمعركة الجمل ومعركة صفين، كما ذكر طرفاً من سير الصَّحابة الّذين أُثيرت حولهم بعض الشّبهات، وبيـَّن فضلهم وما ورد فيهم من أحاديث صحيحة توجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يكفَّ لسانه عن الولوغ في أعراضهم أو التَّشكيك في عدالتهم.

ولم يكتفِ الباحثُ بهذا وإنما تناولَ في كتابه طرفاً من سيرة المصطفى ـ ﷺ ـ ووجوب محبَّته وآل بيته ومحبَّة أصحابه من المهاجرينَ والأنصار وجعلها في أول كتابه تيمناً وبركة ، كما تناول في كتابه حُكْمَ من آذى رسول الله ـ ﷺ ـ أو استهزأ به أو سبـَّه، أو استهزأ بصحابته الكرام ، ثم ذكر طرفاً ممَّا نال النَّبيَّ ـ ﷺ ـ من أذى المشركين والمنافقين تمهيداً للحديث عمـّا تعرض إليه النبيُّ ـ ﷺ ـ من الأذى والاستهزاء في زماننا من الكفَّار والمنافقين، وكلُّ هذا لا يـُنقص من قدره ـ ﷺ ـ ، وإنـَّما يزيده تشريفاً وتكريمـاً، وعرَّج الباحث على ما ينبغي للأنبياء من العصمة وأجاب عن كثيرٍ من الشُّبهات التي أثارها المستشرقون ممَّا أوقعهم في وهـْمٍ ينافي عصمة الأنبياء عامَّة وسيِّدنا محمّد ـ ﷺ ـ خاصَّة.

لقد طوَّف بنا الباحثُ في ميادينَ كثيرة جمعها في سلك واحد سمـَّاه " وأد الفتنة : دراسة نقدية لشبهات المرجفين وفتنة الجمل وصفـّين على منهجٍ المحدِّثين " في ثوب قشيبٍ من اللغة العذبة وحسن البيان وعدم وعورة الألفاظ.

وجاءت هذه الدِّراسة في زمن أحوج ما يكون القارئ والشَّباب المسلم إليه ؛ حرصاً على جمعِ الكلمة ونبذ الفرقة والتَّعصب وتمسُّكـاً بالكتابِ الكريم والسُّنَّة المطهَّرة ، فجزى

الله المؤلّف خيرَ الجزاء وأثابه على صنيعه خيراً ونفعَ به من قرأه آمين.

أ.د محمود علي السرطاوي

أستاذ الفقه المقارن في كليَّة الشَّريعة

الجامعة الأردنية

عمان ٢٤/ صفر / ١٤٣٠هـ

الموافق ٢٠ / ٢ / ٢٠٠٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أ.د أحمد نوفل

أكتبُ هذه الكلمات في اليوم التّالي لمولد النَّبيِّ ـ ﷺ ـ أي في الثّالث عشر من ربيع الثّاني لعام ألف وأربعمائة وثلاثين للهجرة، لأقدّم لكتاب الأخ الباحث أحمد الشّوابكة، بعنوان (وأد الفتنة) تعرّض فيه لسيرة النّبيّ ـ ﷺ ـ كجزءٍ من بحثه في نقد شُبهات المُرجفين.

وقد كنتُ قدّمت للأخ الباحثِ كتاباً من قبل بعنوان (قصّة يوسف ـ عليه السّلام ـ في القرآن الكريم) وتنبّأتُ له بمستقبل طيّب في البحث العلميّ وثمر طيّب في غد قريب، وهاهو الثّمر يزداد نضجاً، واللغة تزداد إشراقاً وتألّقاً، والفكر يزداد عمقاً، فضلاً عن التّوثيق العلميّ الأصيل، والبحث الدؤوب عن الحقيقة، كلّ ذلك مع الغيرة على الدّين والحرص على نصرة سيّد المرسلين وأمّته وتاريخ هذه الأمّة، والذَّبِّ عن حياض المسلمين ورموزهم.

لقد رَجَعَ الأخُ الباحثُ إلى أزيد من مائتي مرجع في بحثه العلميّ النّاضج هذا، ومع البحث المتقن والتّوثيق المُحْكم فهمٌ سديدٌ، فما كلُّ من قرأ أدرك المعنى، وفهم المقصدَ والمرمى، واستوعبَ الغاية والمغزى، لكنّ كاتبنا متمرّس ضابط متقن مُجدّ مُجيد، وله في طريقة المحدّثين باع وذراع، وما كلّ أحد يطيق هذا الدّرس المتأنّي الممحّص الدّارس للأسانيد، النّاقد للمتون.

وتاريخنا عظيم مجيد، لكنّه لا يخلو من أخطاء تَعْتَوِرُه، فنحنُ أمّة من البشر، والخطأ منّا متوقّع، وهو ردٌّ علينا، لا يحمل وزره دينُنا، ولا نحمّل خطايانا لسوانا، أضف إليه أنّ تاريخنا تعرّض لتشويه متقصّد متعمّد، وهنا يأتي جهدُ الباحثين الغيورين، وأحسب أنّ الأخ أحمد في

بحثه هذا قد أوفى على الغاية، وبلغ المطلوب في التّسلّح بالعلم، والتّمكن من أدواته، فجاء دفاعاً متوازناً، ليس فيه شطط، ولا إفراط ولا تفريط، بل اتّزان وهدوء العلماء، وحجّة المتمكّن، كما هو شأن المسلم المؤهّل المُعَدّ المُعِدّ العُدّة.

بارك الله جهدَ الأخ الباحث، ووفّقه لخدمة دينه وسيرة نبيّه وأصحابه وتاريخ أمّته ضد هجمات المغرضين والمتعصّبين والحاقدين أجمعين.

ونَصْرُ الدّين بالحجّة من أعظم أوجه النّصر، أما قرأتَ قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام].

سخّرنا الله جميعاً لخدمة هذا الدّين ودعوته، والحمد لله ربّ العالمين وسلام على المرسلين.

أ. د أحمد نوفل

أستاذ التفسير والدّراسات القرآنية

في جامعتي اليرموك والأردنية

١٣ / ربيع الثّاني / ١٤٣٠هـ

الموافق ١٠/ ٣/ ٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أ.د محمّد العمري

بسم الله والحَمْدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

فقد دفع إليَّ الأستاذ أحمد الشوابكة بهذا الكتاب الموسوم بوأد الفتنة بهدف الاطِّلاع على ما فيه، وإني إذ أقدِّر له هذا أقولُ وبالله التوفيق :

إنَّ هذا الكتابَ قد تناولَ موضوعاً هامّاً ربَّما كانَ البحثُ فيه وبهذا القدر من الجدّة في هذه الأيام أكثرَ حاجة وإلحاحاً، وأعني بذلك دراسة واقع الفتنة التي حَصَلتْ في صدر الإسلام زمن سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

وإنْ كانت مثل هذه الدِّراسات هي أشبه ما تكون بمعالجة لجملة من القضايا التَّاريخيَّة من حيث كونها تمثِّل جملةً من المغالطات التَّاريخيَّة مضموناً وتناولاً من حيث المنهج، فشكَّلت بذلك جملة من الشُّبهات التي تركت أبْعدَ الأثر في نفوس كثيرين ممَّن لا يعرفون حقيقة واقع المسلمين في الصدر الأول من حيث : طبيعة الصَّحابة الكرام، وصلابة الإيمان آنذاك، وحجم الهجمة الشرسة على دولة الإسلام، والحرص الشديد على الكيد لها. فما كان من مثل هؤلاء إلا الاستجابة والقبول، بل وتمكن الرِّيبة من نفوسهم ؛ فباتوا أبوابَ شَكٍّ ومفاتيحَ فتنة في كلِّ زمان ومكان، في وقت ما ازداد المؤمنون إلا إيماناً مع ما رافق ذلك من حسن الظنّ بأصحاب النَّبيِّ ـ ﷺ ـ دون تمييز وإن تمايز الصَّحابة في مجال البذل والعطاء ، وأنَّ ما تمَّ بينهم من وجوه الخلاف إنَّما كان منشؤه الاجتهاد بحثاً عن الحقِّ ، فهم على كلِّ أحوالهم مأجورون بحسن

نواياهم.

لقد عالج الأخُ الباحثُ موضوع الفتنة من خلال دراسة منهجيَّة لواقع الرِّوايات التَّاريخيَّة ، ومعلوم أن كثيراً ممَّن كتبوا التَّاريخ أو نقلوه هم محلُّ نظر، ولذلك فقد اتّفق علماءُ الإسلام على أنَّ كاتبَ التَّاريخ ينبغي أنْ يتمتعَ بأكبر قدْر من الصَّلاح والتُّقى، وحسن الفهم والبصر في الأمور، والقدرة النافذة على التَّحليل ، والمعرفة التامة بالعربية وأساليبها حال تناول الكتابة في التَّاريخ حتّى لا يكون الكلامُ حمَّالَ أوجه، وخاصة فيما يتعلَّق بذكر الحقائق وتناول عظائم الأمور.

وكلُّ المشتغلين بالتَّاريخ يشعرونَ بالحاجة إلى ضرورة كتابة التَّاريخ ، ولكن كيف ؟! هذا ما حاولَ الأخُ الباحثُ أنْ يجْتهدَ فيه ـ وليس هو الأوَّل في ذلك ـ حيث حاولَ أنْ يُعيْدَ النَّظر في الرِّوايات التَّاريخيَّة وفق منهج المحدِّثين باعتبارهم أوَّل من وضع القواعدَ والضَّوابطَ في مجال توثيق النُّصوص، وهي قواعد غاية في الدِّقَّة والإتقان، وتكفل الوصول إلى السَّلامة أو أقرب ما يكون. وإن كان لا بُدَّ من التَّعامل وفق تلكَ القواعد بقدر من المرونة إذ يَصْعُبُ التعاملُ مع الرِّواية التَّاريخية بذات القدر من الصَّرامة مع النّصوص التّاريخيّة.

إن ممَّا يُشْكرُ عليه الأخ الباحث أنّ هذه الدّراسة كشفتْ عن أن جُلَّ الرِّوايات في الفتنة وما قيل في شأن كثير من الصَّحابة لا سبيل إلى القبول به ؛ إذ لم يتوفَّرْ في الرُّواة أدنى درجات الرِّضا والقبول ، فضعَّف بذلك تلك الرِّوايات التي تشكّك في مواقف الصَّحابة الكرام ، وأنَّ ما بدا من بعضهم من رأيٍ أو فِعْلٍ إنما كانَ باعثه إحقاقَ الحقِّ وإبطالَ الباطل وإن اختلفتْ وجهات النَّظر فيه.

لقد أحسن الباحث كثيراً فقد كان النص القرآني ماثلاً بين يديه ، فاعتمده اعتماداً كبيراً وزيَّن به صفحاتِ هذا الكتاب ، إضافة إلى لغَة سليمة دالّة معبّرة تتناسبُ تماماً مع موضوع البحث، مع قراءة واعية للنّص بكل أنواعه تدلُّ على سلامة فهم وتحليل ، وعناية واضحة بالسِّياق وأسباب النُّزول والورود للأحاديث.

وكذلك كانت محاولاتُه لتفسير النُّصوص وربط بعضها ببعض والاستفادة من ضوابط

فهم النُّصوص واضحةً، مكنته من طرح قضايا الكتاب بشكل يَنْسجمُ انسجاماً موافقاً للمنطق وبناء المقدِّمات ثم النَّتائج.

كما وكان من اللافت للنَّظر أيضاً تلك الغيرة على الإسلام وتوكيد فضل الصَّحابة الكرام بعيداً عن العاطفة ودون غلو أو تجاوز ، مع سعة اطّلاع وعودة أمينة للمصادر والمراجع الأمر الذي يؤكِّدُ جودةَ هذا الكتاب وما فيه، راجياً للأخ الباحث المزيد من التَّوفيق في مستقبل أعماله.

أ. د محمّد العمري

أستاذ الحديث وعلومه

عميد كلية الشريعة في جامعة اليرموك

١٢/ صفر/ ١٤٣٠هـ

الموافق ٨/ ٢/ ٢٠٠٩م

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلام على سيِّدنا محمَّد خاتم النَّبيِّين وآخر المرسلين، وعلى أصحابه الأكرمين، وأزواجه أمّهات المؤمنين، وأتباعه الفاضلين الطَّيبين، وبعد:

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [التوبة].

لا يَحْزُنْكَ تشنيع جاهل، أو نقص مُتَهوِّكٍ، أو شنآن قوم لشخص النَّبيِّ محمَّد ـ ﷺ ـ؛ فهؤلاء إنما اشتغلوا بدعاوى باطلة تَمجُّها القلوبُ السَّليمةُ، وظواهر من العلم موضوعة، طلباً لعرض الدنيا، أو علو الصّيت، أو رغبة في الثّناء، أو مغالبة الأقران والنُّظراء، أو حسداً من عند أنفسهم ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ... ﴿١٥٦﴾ ﴾ [آل عمران]، ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ... ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة].

رسولَ الله، سلامٌ عليك ما سَجَى ليلٌ وتجلَّى نهار ! وسلام على أصحابك الأبرار المهاجرين والأنصار، الّذين أيدهم الله تعالى بها نصروا الله، ونافحوا عن رسوله بأيديهم وألسنتهم. لَهفَ نفسي على هؤلاء الرّجال المقتدى بفعالهم ! لَهْفَ نفسي على المنكرين لكلّ أمر مُنْكر !

أما بعد، فقد ظنَّ أقوام أنهم حين يتجرَّؤون على رسول الله ـ ﷺ ـ يطفئون نور الله بأفواههم ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾ [التوبة] بلى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة].

ولعمري لو علموا حقيقة رسالته ما وسعهم إلا اتّباعه، لكنّهم ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم].

ولا ريب أنَّ هؤلاء الأدعياء، أهل الأراجيف والباطل، الذين بغوا على رسول الله ـ ﷺ ـ وَلجُّوا في الغواية على أصحابه وأمعنوا في الضَّلال ليسوا بشيء، وكلامهم الذي يعبِّرون به عن سويداء القلوب، العاقل لا يعيره الطّرف، ولكن ما يدعو للأسى أنَّ من بين هؤلاء قومٌ من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا ! جنحوا لرواياتٍ موضوعة وآثار مصنوعة في كتب التّراث الإسلاميّ...

وأنا أعلم أنّ الله تعالى أغنى نبيَّه ـ ﷺ ـ عن نصرة الخلق، لكن والذي نفسي بيده، إنَّ بطن الأرض أولى بنا من ظهرها إن عجزنا عن نصرة نبينا ـ ﷺ ـ ﴿ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ... ﴿٤﴾ ﴾ [محمـــد] ،﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ... ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]، ﴿ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ ...﴿٨﴾ ﴾ [الأنفال].

والله يشهد أنني وأنا أكتب هذا البحث لا يغيب عن خاطري قوله تعالى : ﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر]، وقوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف]، ولذلك يا قوم: ﴿ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ ...﴿٢٩﴾ ﴾ [هود] و﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان]، فأنا لم أضعه لأجل هذا أو ذاك، وإنّما :

أَرَدْتُ بـــه نَصْرَ الإله تبتُّلاً   وأضمرتُه حتّى أوسَّـدَ في قبري

و﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود]، ووضعته لأردّ به غائلةَ المبطلين، ووساوسَ الشّياطين، وشبهاتِ المشكّكين، وأفانين المتقوِّلين الخرَّاصين، الذين ما قدروا الرَّسول ـ ﷺ ـ حقّ قدره، وما عرفوا فضل الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ليخزهم الله ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة].

ووضعته تصيّداً للعبر والدّروس، فالتّاريخ يعيد نفسه، فهناك أحداث تتشابه أقوالاً وأفعالاً بين الليلة والبارحة ؛ لتشابه القلوب، وقد أشار القرآنُ الكريم لذلك، قال تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ ...﴿١١٨﴾﴾ [البقرة]، فهناك تشابه بين قلوب الأولّين والآخرين، قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات].

والعاقل من يعتبر بالسَّلف قبل أن يصيرَ عبرةً للخلف، أو كما قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : " والسّعيد مَنْ وُعِظ بغيره "(١).

أمّا منهجنا في الكتاب :

فقد أَصَّلْنا إلى أنّ الطبري لم يلتزم بإيراد الصّحيح في كتابه؛ لأنّ هناك قاعدة عند المحدِّثين والإخباريين مفادها : أنّ من أحال فقد برئ. وبالتَّالي فإنّ الرِّوايات التَّاريخيّة لا تُقبل ما لم تُعرف بالسّند الصَّحيح، والمتن الصَّحيح، مثلها مثل الحديث الشّريف؛ وإلا لقال كُلُّ مَنْ شاء ما شاء كيف شاء.

فهناك علامات للوضع في السّند، وعلامات للوضع في المتن يعرفها أهل العلم، ولا ينبغي لمسلم أن يجهلها؛ ولذلك تعرَّضتُ لبعض الروايات التَّاريخيّة التي أخرجها الطبري

---

(١) " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٦/ ص١٩٣) كتاب القدر.

بالنَّقد لأسانيدها، وبالدِّراسة لمتونها، بعد أن رأيت إمعانَ أهل الأهواء في نقل هذه الأخبار، وإهمال النّاس إلى أسانيد هذه الآثار، وذلك ليتعرَّفَ القارئُ المنهج الصَّحيح الذي ننفي فيه عن التّاريخ تحريف الغالين، وتحامل القالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين.

والله يشهد، أنّه لا يبغض أهل الحديث إلاّ الوضّاعون وأشياعهم، كما قال أحمد بن سنان القطان : " ليس في الدّنيا مبتدع إلاّ وهو يبغض أهل الحديث "(١)، أو كما قال أحمد بن سلام الفقيه : " ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته بإسناد "(٢) لأنّ أهل الحديث ميّزوا الطَّيِّب من الخبيث، ودمغوا أهل الباطل بسنن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وبما صحَّ من الأخبار، وما ثبت من الآثار.

وقد اعترض كتابَ الله تعالى مَنْ في قلوبهم زيغ، ولغوا فيه، واتّبعوا ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ ...﴿٧﴾﴾ [آل عمران]، فحرّفوا كلام الله تعالى عن مواضعه، وحكموا عليه بالتّناقض، ونسوا أنّ الله تعالى أعجز بهذا القرآن كبراءَهم من الإنس والجنّ من قبل، وإنّما حرّفوه من بعد ما عقلوه لئلا يُحْتَجَّ عليهم به بما يخالف أهواءهم.

كما حملوا على سيرة النَّبيِّ ـ ﷺ ـ، وقضوا على أحاديثه الشّريفة بالتّناقض والاختلاف والضّعف، ولم يتوقّفوا عند ذلك، وإنّما ألبسوا الحقّ بالباطل في شأن الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وسلقوهم بألسنة حداد، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقّ، ولم يحملْهم على ذلك كلّه إلاّ قلَّة الدِّين، والجهل المتين، والغباء المكين.

وهذا كلّه لو وقعت الغفلةُ عنه خِيفَ ضرره، واستطار شرُّه ؛ فجعلت كتابَ الله أمَامي وإمامي، وسنّة الحبيب محمّد ـ ﷺ ـ لساني وبياني ؛ لأقذف بالحق على الباطل، بأوجز لفظ وأبينه، فظهر لذي عينين ولسان وشفتين بطلان شبهاتهم الكليلة، وحججهم العليلة، كما ظهرت سيرة الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وسريرتهم خالصة من كلّ شبهة وريبة وقادح.

---

(١) الحاكم " معرفة علوم الحديث " (ص٤).

(٢) المرجع السَّابق.

وكان ابتداؤنا باسم الله الملك الحقّ المبين بترجمة للنَّبيِّ الصّادق الوعد الأمين، ثمّ بصور من نصرته ونصرة أصحابه لهذا الدِّين، وتحمّلهم لأذى المشركين والمنافقين، وبعد ذلك رددت على أبرز شبهات المشكّكين، ولم أتفرّد بالرّدِّ عليها، وإنّما تناولها السّلفُ بما أصابها بالتَّلف، غير أنّ هذه الشّبهات النَّائمة هناك مَنْ يُوقظها ويؤجّجها ويجدّدها، مع أنّها شبهات فارغة فرغت منها الأمّة منذ قرون، ومع هذا جاء من يتعاهدها، ولكن هيهات أيّها السّادرون في الغيّ، أين تذهبون ؟!

وقد كان لزاماً أن نردّ خشية أن يقع في النّفس أنّ المبطل محقّ ؛ فالسّكوت إقرار ! وقد جاء ردُّنا على وجه يرفع الحيرة عن إخواننا المؤمنين ويهديهم إلى الحقّ المبين، والصراط المستقيم، والفضل كلّه لله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ٥٤﴾ [الحج].

وقد أثبتّ كثيراً من الكتب التي أفدت منها في دفع هذه الشّبهات وغيرها في آخر هذا البحث لتصرّفي في العبارة، وأدّعي أنّني كثيراً ما زِدْتُ عليها في استقصاء الأدلّة والبراهين فيما أنشد وأبتغي، فجاء الجوابُ واقعاً ما له من دافع.

وقد تحرَّيتُ الحقَّ بالأدلّة والبيّنات، ووثّقت نصوص السُّنَنِ وخرّجت الآيات ؛ قياماً بحقّ كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ـ ﷺ ـ وتصديقاً لقوله تعالى : ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ٩﴾ [الفتح].

وأتبعت ذلك بالذَّبِّ عن الصحابة، بعد أن نَقَمَ عليهم مَنْ نَقَمَ، ووقع في عرضهم من وقع ! والصّحابة إذا لم يرض عنهم هؤلاء وأولئك الّذين أجلبوا عليهم بِخَيْلِ أدلَّتهم الواهنة ورَجِلها، فقد ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢ ﴾ [المجادلة]، فظهر أنّ الصّحابة كلّهم عدول رغم ما جرى بينهم ؛ فقد نصّ الله تعالى على عدالتهم في آيات صريحة يكثر إيرادُها، وصرَّحَ بذلك النَّبيُّ ـ ﷺ ـ في أحاديث صحيحة يطول تعدادها.

وقد حاولت جهدي أنْ أضمّن هذا الكتاب من فنون اللغة وأفنانها، وعلوم الشَّريعة

وأنوارها، ما يجد فيه المسلم بُغْيته وغُنْيته ؛ فالقرآن الكريم مشحون بفنون البلاغة وعيون الفصاحة وأسرار البراعة، وتكاد لا تخلو سورة من إحكام أحكام، وإعجاز إيجاز، وحسن تركيب، وبديع ترتيب، وبدائع بديع، وأجناس جناس، وسحر بيان يأسر الجَنَان ! وكيف لا وهو الفصل ليس بالهزل ! أنزله الله على نبيّه ـ ﷺ ـ ليخرج النّاس من الظّلمات إلى النّور، وليقيم عليهم الحُجّة، ويوضّح لهم المَحَجَّة، فسبحان من أنزله بالحقّ بأبدع أسلوب، وسلكه ينابيع في القلوب !

وختاماً :

لو أنّ الدّهر عيني تنظر في عيون علوم القرآن، وسيرة سيّد الأنام ـ ﷺ ـ وصحبه الكرام لَفَنِيَ العمرُ وولّى الزّمان وعيني لم تشبع من النّظر ! فَنَضَّرَ اللهُ وجوه أموات تحيا القلوب بذكرهم، وجمعنا بهم على حوض حبيبنا وحبيبهم ـ ﷺ ـ !

المؤلّف

أحمد الشوابكة

القسم الأول

المبحث الأول

النَّبيُّ ـ ﷺ ـ في سطور من المولد إلى النّشور

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ...﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

مولده ـ ﷺ ـ

قال تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وُلِد ـ ﷺ ـ في مكّة يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل عام الفيل عام خمسمائة وواحد وسبعين للميلاد (٥٧١م) أبوه عبد الله، وأمّه آمنة بنت وهب.

نسبه الشّريف ـ ﷺ ـ ومعدنه المنيف

هو محمّد بن عبد الله، بن عبد المطّلب، بن هاشم، بن عبد مَناف، بن قُصَيّ، بن كلاب، ابن مُرّة، بن كعْبِ، بن لؤيّ، بن غالب، بن فِهْر، بن مالك، بن النّضر، بن كِنَانة، بن خُزيْمةَ، ابن مُدْرِكةَ، بن إلياس، بن مُضَرَ، بنِ نِزَارِ، بن مَعَدّ، بن عدنانَ "[1].

وهو من ولد إسماعيل، وجميعُ قبائلِ عربِ الحجاز يتتمون إلى هذا النّسب، ولهذا لّما سئل ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ عن قوله تعالى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ... ﴿٢٣﴾﴾

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص٢٣٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ذكره البخاري معلّقاً في باب مَبْعَث النّبيّ ـ ﷺ ـ.

[الشورى]، قال : " إنّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ لم يَكُن بطنٌ من قريشٍ إلاّ كان له فيهم قرابةٌ "(١)، ومقتضى كلامه أنّ جميع قريش أقارب النّبيّ ـ ﷺ ـ وأنّ عليهم أن يُوادُّوا النّبيَّ ـ ﷺ ـ لحق القرابة الّتي بينهم وبينه ـ ﷺ ـ.

ونسبه ـ ﷺ ـ لا يدانيه نسب، فقد اختاره الله تعالى من أزكى القبائل، وأنضر الفروع، وأفضل البطون، وأطهر الأصلاب، ففي الحديث الصّحيح الّذي أخرجه مسلم عن واثلة بن الأسقع، يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : " إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم "(٢).

والحديث فيه بيان فضل العرب على سائر النّاس، وفضل قبيلة قريش على سائر العرب، وفضل بني هاشم على كافّة الفروع.

والرّسول ـ ﷺ ـ من بني المطّلب، وبنو المطّلب وبنو هاشم واحد ؛ فنسبه ـ ﷺ ـ أشرفُ نَسَبٍ.

البشارة بالرّسول ـ ﷺ ـ في التّوراة والإنجيل

القرآن الكريم مذكور في الكتب السّماوية السّابقة، مثل التّوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [الشعراء].

وقد أوجب الله تعالى على نبيّنا محمّد ـ ﷺ ـ الإيمان بالكتب السّماويّة كلّها، قال تعالى : ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى].

وأوجب علينا الإيمان بها، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ...﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء].

ولذلك فنحن المسلمين نؤمن بكلّ نبيّ مُرْسَل وكُلِّ كتابٍ مُنْزَل، إلاّ أنّ الله تعالى لم

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٥/ ص٣٧) كتاب تفسير القرآن.

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٥/ ص٣٦) كتاب الفضائل.

يتكفّل بحفظ هذه الكتب كما تكفّل بحفظ القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر].

ولذلك لم تبقَ لنبيٍّ معجزة خالدة إلاّ لخاتم النَّبيِّين محمّد ـ ﷺ ـ وهي القرآن الكريم، ومعلوم أن الله تعالى تحدّى الثّقلين أن يأتوا بمثله، وما زال هذا التّحدي قائماً !

وكما أخبرت الكتبُ بكتابنا، كذلك أخبر كتابُنا عن بعض ما ورد في هذه الكتب، فممّا ورد في صحف إبراهيم وموسى ـ عليهما السّلام ـ قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ ﴾ [النجم].

وممّا جاء في الصّحف، قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩ ﴾ [الأعلى].

أمّا التّوراة، فمن جملة ما جاء فيها، قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ...۝٤٥ ﴾ [المائدة].

وممّا جاء في الزّبور الّذي أُنْزِل على داود ـ عليه السّلام ـ من بعد التّوراة، قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ ﴾ [الأنبياء].

وممّا اشتركتِ التّوراة والإنجيل في بيانه البشارةُ بالنّبيِّ محمّد ـ ﷺ ـ، والشّهادة له بأنّه رسول الله، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ

عَلَيۡهِمۡ ...﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

ومن جملة ما تضمّنته التّوراةُ والإنجيلُ الإشارة إلى أصحاب النّبيّ ـ ﷺ ـ وبيان طائفة من صفاتهم، فقد جاء مَثلُهم في التّوراة، قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ ...﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح].

وجاء مثلهم في الإنجيل، قال تعالى ﴿ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ ...﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح].

مبعثه ـ ﷺ ـ

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ...﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام]، قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: " أُنْزِلَ على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو ابن أربعين، فمكث ثلاث عشرة سنةً، ثمّ أُمِرَ بالهجرة؛ فهاجر إلى المدينة، فمكث بها عشر سنين، ثمّ توفيّ ـ ﷺ ـ "(١).

وقد بُعِثَ النّبيُّ ـ ﷺ ـ من خير قرون بني آدم، روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ، قال: " بُعثْتُ من خير قُرون بني آدم قَرْناً فَقَرناً، حتّى كنتُ من القرن الّذي كنتُ فيه "(٢).

وصحّ عن النّبيِّ ـ ﷺ ـ أنّه قال: " خير النّاس قرني، ثمّ الّذين يلونهم، ثمّ الّذين يلونهم "(٣).

وكانت رسالته للنّاس كافّة: عربهم وعجمهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ]، فرسالته ـ

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص٢٣٨) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٦٦) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٨٩) كتاب أحاديث الأنبياء.

ﷺ ـ عامّة في المكان شاملة في الزّمان.

كنيته ـ ﷺ ـ

أخرج البخاري عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النّبيّ ـ ﷺ ـ في السّوق، فقال رجلٌ : يا أبا القاسم، فالتفت إليه النّبيُّ ـ ﷺ ـ، فقال : إنّما دعوتُ هذا، فقال النّبيّ ـ ﷺ ـ: سمّوا باسمي، ولا تَكْتَنُوا بِكُنيتي "(١).

وقد أمر النّبيّ ـ ﷺ ـ التّسمّي باسمه الشّريف لأنّه مأمون التَّبِعَة، فلا يحلّ أن يُنَادى باسمه ـ ﷺ ـ، قال تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ... ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور] بخلاف الكنية، فقد نهى عنها لأنّ المشاركة فيها قد تؤذي النّبيّ ـ ﷺ ـ.

وقد اخْتُلف في التّكنّي بأبي القاسم على مذاهب، فقد ثبت عن الشّافعي المنع مطلقاً، ومنهم من أجاز مطلقاً وأنّ النّهي يختصُّ بحياته ـ ﷺ ـ وفهموا ذلك من السّبب المذكور في الحديث من أنّ النّبيّ ـ ﷺ ـ التفت إلى الرّجل ولم يكن يَعْنيه، وقد زال بعده ـ ﷺ ـ، ومنهم من قال : لا يجوز لمن اسمه محمّد ويجوز لغيره، وهناك أقوال أُخَر تستحقّ أن تُطلبَ من مظانّها (٢).

صفته وصورته ـ ﷺ ـ كأنّك تراه

وصف أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ فقال : " كان رَبْعَةً من القوم، ليس بالطّويل ولا بالقصير، أزهرَ اللّون ليس بأبيض أمهق ولا آدم، ليس بجعد قَططٍ ولا

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص٢٠) كتاب البيوع.

(٢) ذكر هذه المذاهب الإمام النّووي في " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٧/ ج١٤/ ص١١٢) كتاب الأدب، وانظر توجيه الإمام ابن حجر لهذه المذاهب في " فتح الباري على صحيح البخاري " (م١٠/ ص٤٧١) كتاب الأدب.

سَبْطٍ رَجِلٍ "[1].

ومعنى كلام أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ كان لا بالطّويل الذّاهب ولا بالقصير، لكنّه إلى الطّول أقرب، وكان أبيض مُشْرباً بياضُه بِحُمرة، وكان شعره وسطاً بين الجعد والمتسرّح.

كذلك كان ـ ﷺ ـ أحسن النّاس وجهاً وأنورهم، لو رأيته رأيت الشّمس طالعة، أو القمر بازغاً، لم يصفه واصف إلاّ شبهه بهما في الاستدارة والجمال سُئل البَراءُ : " أكان وجْهُ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ مثل السّيف ؟ قال : لا، بل مثلَ القمر "[2].

وقال رجل لجابر بن سَمُرَة : " وجْهُهُ مثْلُ السّيف ؟ قال : لا، بل كان مثلَ الشّمس والقمر، وكان مستديراً، ورأيتُ الخاتم عند كتفه مثلَ بيْضَة الحمامة يُشْبِهُ جَسَدَهُ "[3].

وقال كعب بن مالك : " وكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا سُرّ اسْتَنَار وَجْهُهُ كأنّه قِطْعَةُ قمر وكنّا نعرف ذلك منه "[4].

وجاء في مشيته أنّه ـ ﷺ ـ كان إذا مشى أسرع وتمايل إلى قدّام كأنّما يمشي في الطّريق صاعداً، أخرج أحمد بإسناد حسن، قال : " ما رأيتُ شيئاً أحْسَنَ من رسول الله ـ ﷺ ـ كأنّ الشّمس تجري في وجهه[5]، وما رأيتُ أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ـ ﷺ ـ كأنّما الأرض تُطوى له إنّا لنُجهِدُ أنفسَنا، وإنّه لغيرُ مكترث "[6] وأخرج أحمد بإسناد صحيح عن محمّد بن

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٦٤) أحاديث الأنبياء.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٦٥) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص٩٧) كتاب الفضائل.

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٦٦) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٥) شبّه جريان الشّمس في فلكها بجريان الحسن في وجهه ـ ﷺ ـ.

(٦) أحمد " المسند " (ج٩/ ص٥٣/ رقم٨٩٢٣).

عليّ عن أبيه قال : " إذا مَشَى تكفّأ كأنّما يمشي في صُعُد "[١].

وكان النَّبيُّ ـ ﷺ ـ واسع العينين، طويل شعر الأهداب، وكان إذا التفت التفت بكُلِّيَّته، وكان غليظ أصابع الكفّين والقدمين، فقد أخرج أحمد بإسناد صحيح عن محمّد بن عليّ عن أبيه قال : " كان رسُولُ الله ـ ﷺ ـ ضخمَ الرّأس، عظيمَ العَيْنَين، هَدِبَ الأشْـفَار[٢]، مُشْرَبِ العين بحُمْرةٍ، كثّ اللحية، أزهرَ اللون، إذا مَشَى تكفّأ[٣] كأنّما يمشي في صُعُد[٤]، وإذا التَفَتَ التَفَتَ جميعاً[٥]، شَثْنَ[٦] الكفّين والقدمين "[٧].

وكان ـ ﷺ ـ دقيق شعر الصّدر، فقد أخرج التّرمذيّ بسند صحيح عن عليّ بن أبي طالب، قال : لم يكن النَّبيُّ ـ ﷺ ـ بالطّويل ولا بالقصير، شَثْنُ الكفّين والقدمين، ضخم الرّأس، ضخم الكراديس[٨]، طويل المَسْربة[٩]، إذا مشى تكفّأ تكفّؤاً كأنّما ينحطُّ من صَبَب[١٠]، لم أر قبله ولا بعده مثله ـ ﷺ ـ "[١١].

فيا مَنْ ترسمون صوراً للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ هذه هي صورة خَلْقِه ـ ﷺ ـ رسمناها نحن

---

(١) أحمد " المسند " (ج١/ ص٤٦٥/ رقم٦٨٤)

(٢) الأشفار : جمع " شفر " وهو حرف جفن العين الّذي ينبت عليه الشّعر، وهدبه : طول الشّعر الّذي ينبت عليه وكثرته.

(٣) تكفّأ : تمايل إلى قُدّام.

(٤) الصُعُد : الطّريق صاعداً.

(٥) التفت جميعاً : أي بكلّيّته أراد أنّه لا يسرق النّظر.

(٦) شثن : الغليظ الأصابع، ويُحمد هذا في الرّجال ويذمّ في النّساء.

(٧) أحمد " المسند " (ج١/ ص٤٦٥/ رقم٦٨٤).

(٨) الكراديس : رؤوس الأصابع.

(٩) طويل المسْربة : أي دقيق شعر الصّدر الّذي يبدأ من الصّدر وينتهي بالسّرّة.

(١٠) صبب : ما انحطّ من الأرض.

(١١) التّرمذيّ " مختصر الشّمائل المحمّديّة " للألبانيّ (ص١٥).

المسلمين في شغاف قلوبنا، صورة مشرقة خالدة، تتوارثها الأجيال، ويعرفها من كلّ خَلَفٍ عُدُوله.

شيبه ـ ﷺ ـ

كان ـ ﷺ ـ قليل شيب الرّأس واللّحية، فقد قُبِضَ ـ ﷺ ـ ولم يبلغ ما في رأسه ولحيته من الشّيب عشرين شعرة، قال أنس ـ رضي الله عنه ـ : "... فتوفّاه الله وليس في رأسه ولحيته عشرون شَعْرَةً بيضاءَ "(١).

وروى مسلم عن أنس أنّه سُئل عن شيب النّبيّ ـ ﷺ ـ فقال : " ما شانه الله ببيضاء "(٢) يريد أن أنّ تلك الشعرات البيض لم تغيّر حُسْنه ـ ﷺ ـ.

وأخرج التّرمذي عن ابن عبّاس، قال : " قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : يا رسول الله، قد شِبْتَ، قال : شيّبَتْني هودٌ، والواقعة، والمرسلات، و(عمّ يتساءلون) و(إذا الشّمس كوّرت) "(٣).

سِنُّه ـ ﷺ ـ

أخرج البخاري عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ، قال : " بُعِثَ رسول الله ـ ﷺ ـ لأربعين سنة، فمكثَ بمكّة ثلاثَ عشرةَ سنة يُوحى إليه، ثمّ أُمِر بالهجرة فهاجرَ عشر سنينَ، ومات وهو ابنُ ثلاثٍ وستين "(٤).

---

(١) البخاري "صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٦٥) أحاديث الأنبياء.

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص٩٦) كتاب الفضائل.

(٣) التّرمذي " الجامع الكبير " (م٥/ ص٣٢٥/ رقم٣٢٩٧) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عبّاس إلاّ من هذا الوجه. وأخرجه الحاكم في " المستدرك " (ج٢/ ص٣٤٣، ص٤٧٦) كتاب التّفسير. وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرّجاه، ووافقه الذّهبي.

(٤) البخاري " صحيح البخاريّ " (م٢/ ج٤/ ص٢٥٣) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم =

واكرباه ! (وفاته ـ ﷺ ـ)

أخرج البخاريّ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : " لما ثَقُلَ النّبيّ ـ ﷺ ـ جعل يتغشّاه، فقالت فاطمة ـ عليها السّلام ـ : واكربَ أباه، فقال لها : ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم، فلمّا مات، قالت : يا أبتاه، أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه، مَنْ جنّة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه، فلمّا دُفِنَ، قالت فاطمة ـ عليها السّلام ـ : يا أنس، أطابت أنفُسُكم أن تَحثُوا على رسول الله ـ ﷺ ـ التّراب! "(١).

" الموافاة يوم القيامة "

قال الله تعالى خطاباً لنبيّه ـ ﷺ ـ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

فالمرجع إلى الله تعالى، والملاقاة لا بدّ كائنة وحاصلة يوم القيامة، أخرج التّرمذيّ بسند صحيح عن أنس بن مالك أنّ النّبيَّ ـ ﷺ ـ قال لفاطمة لمّا وَجَدَ من كربِ الموت ما وجد : " لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم، إنّه قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحداً، الموافاة يوم القيامة "(٢).

* * *

=" صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص١٠٢) كتاب فضائل الصّحابة، والتّرمذيّ " مختصر الشّمائل المحمّديّة " (ص١٩٢)

(١) البخاريّ " صحيح البخاريّ " (م٣/ ج٥/ ص١٤٤) كتاب المغازي.

(٢) التّرمذيّ " مختصر الشّمائل المحمّديّة " (ص٢٠٢).

المبحث الثّاني

أحبُّ من آلي ومالي

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

وجوب محبّته ـ ﷺ ـ ونصرته

امتحن الله تعالى عباده الّذين يحبّون الله ورسوله بهذه الآية، قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

فقد اشترط الله على عباده لينالوا محبّته اتّباعَ رسوله ـ ﷺ ـ، ولذلك فإنّ دعوى محبّة الله والرّسول دون اتّباعٍ دعوى باطلة وخاسرة ؛ لأنّ من علامات محبّة الله اتّباع رسوله ـ ﷺ ـ، ونصرة دينه، والذّب عن شريعته، والتّخلّق بأخلاقه، وإحياء سنّته، وتوقيره، ومن توقيره توقير أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ والإمساك عمّا شَجَرَ بينهم.

وقد أثبت الله الحبّ له، فقال : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ... ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة] وكلّما كان العبد لله أعْرَفَ كان حبُّه أشدَّ وطاعته أعظم، كما أثبت الله تعالى هذا التفاوت في الحبّ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ...﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة]، ويزاد في محبّة النّبيِّ ـ ﷺ ـ على محبّة الله التخلّق بخلقه ـ ﷺ ـ، وقد عرفنا أنّ خلقه القرآن الكريم، فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان.

وقد جعل الرَّسول ـ ﷺ ـ محبة الله ورسوله من شروط الإيمان في غير حديث، قال ـ ﷺ ـ : " لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحب إليه من والده وولده والنَّاس أجمعين "(1).

واسم التفضيل (أحبّ) هو أفعل بمعنى المفعول، أي حتى يكون الرَّسولُ محبوباً

---

(1) البخاري " صحيح البخاري " (م1/ ج1/ ص9) كتاب الإيمان.

عنده أكثر من والده وولده والنَّاس أجمعين ؛ فمحبّة الرّسول ـ ﷺ ـ آكد عليه من محبّة من في الأرض جميعاً ؛ لأنّ معرفةَ الحقّ بعد الضّلال والنّجاة من المهلكات والنّار إنّما كان بتوفيق من الله تعالى على لسان الرّسول ـ ﷺ ـ.

ثمّ انظر كيف قَدَّم ـ ﷺ ـ الوالد على الولد للأكثرية، فكلّ واحد له والد، ولا يلزم أن يكون له ولد، ثمّ عطف النَّبيُّ ـ ﷺ ـ الناس بعد الوالد والولد من عطف العام على الخاص للأهميّة، فسبحان مَنْ بعثه بجوامع الكَلِم !

وقد بين ـ ﷺ ـ أن من ثمرات الإيمان محبة الله ورسوله، أخرج البخاري عن أنس عن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ قال : " ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكونَ الله ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما... "(١).

والإيمان بالله تعالى يستوجب محبة النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وإعلاء قدره على كلّ والد وولد ونفس، أخرج البخاري عن عبد الله بن هشام قال : " كنَّا مع النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وهو آخذ بيد عمر ابن الخطَّاب، فقال له عُمَرُ : يا رسول الله، لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيء إلاّ من نفسي، فقال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ له : لا والّذي نفسي بيده حتّى أكونَ أحبَّ إليك من نفْسك، فقال له عُمَر : فإنَّه الآن والله لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ : الآن يا عُمَر "(٢).

ومن ثمرات محبّة الرّسول ـ ﷺ ـ أنّ من أحبّه كان معه يوم القيامة أخرج البخاري عن أنس : " أنّ رجلاً من أهل البادية أتى النَّبيَّ ـ ﷺ ـ، فقال : يا رسول الله، متى السّاعةُ قائمة ؟ قال : ويلك، وما أعددتَ لها ؟ قال : ما أعددتُ لها، إلاّ أنّي أحبُّ الله ورسوله، قال : إنّك مع من أحببت، فقلنا : ونحن كذلك ؟ قال : نعم ؛ ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً "(٣).

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص٩) كتاب الإيمان. والحديث فيه استعارة تخيلية جميلة، فقد شبّه ـ ﷺ ـ الرغبة في الإيمان بشيء حلو.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٤ / ج٧ / ص ٢١٨) كتاب الأيمان والنذور.

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص١١٢) كتاب الأدب.

توعّد الله من قدم محبّةً على محبّة الله والرَّسول ـ ﷺ ـ !

والأحاديث في محبّة الله والرَّسول ـ ﷺ ـ كثيرة ومشهورة، ويلخصها قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة].

ولا يخفى ما في هذه الآية من تهديد ووعيد ؛ فالله تعالى يتوعّد من يحبُّ هذه الأشياء الثّمانية، أو أَحَدَها على الله والرّسول ـ ﷺ ـ وجهاد في سبيله، وينبّه إلى أنّ من فعل ذلك ؛ فهو من الفاسقين !

من مناقب الأنصار : محبّة المهاجرين، ونصرة سيّد المرسلين ﷺ

ضرب لنا الأنصارُ المثلَ الأعلى في الأخوّة في الله، فمن صفاتهم أنّهم يحبّون المهاجرين ويؤثرونهم على أنفسهم بشهادة الله ربّ العالمين، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر].

ولذلك قال ـ ﷺ ـ : " لو أنّ الأنصار سلكوا وادياً أو شِعْباً لسلكتُ في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنتُ امرأ من الأنصار "(١).

ولمّا سمع أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ ثناء النَّبيِّ ـ ﷺ ـ على الأنصار، قال : " ما ظلم بأبي وأمّي ؛ آووْهُ ونصروه، أو كلمة أخرى "(٢).

أي أنّـه ـ ﷺ ـ ما وضع هذا القول في غير موضعه، فإنّ الأنصار آووه وواسوه ونصروه، وهذا شرف عظيم ذهب به الأنصار لا يدانيه شرف، فأيّ شرف أعظم من نصرة

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص٢٢٢) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) المرجع السَّابق.

الله ورسوله ـ ﷺ ـ ؟! لكنّهم لم يتفرّدوا به، وإنّما شاركهم به المهاجرون، كما أنّ للتابعين حظاً منه.

" المحيا محياكم والمماتُ مماتكم "

ولمّا فتح النَّبيُّ ـ ﷺ ـ مكّة ورأى الأنصار رأفة النَّبيِّ ـ ﷺ ـ بأهلها وكفَّ القتال عنهم، ظنّوا أنّه يرجع إلى سكنى مكّة والمقام فيها ويهجر المدينة وأهلها، فشقّ ذلك عليهم، فأوحى الله تعالى إلى رسوله ـ ﷺ ـ، فأعلمهم النَّبيُّ ـ ﷺ ـ بقولهم، ثمّ أخبرهم بأنّه ملازم لهم لا يحيا إلاّ عندهم ولا يموت إلاّ عندهم، ففاضت أعينهم من الدمع فرحا بما سمعوا من الرّسول ـ ﷺ ـ، روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

" يا مَعْشَرَ الأنصار، قالوا : لبّيك يا رسول الله، قال : قُلْتُم أمّا الرَّجل فأدركتْه رغْبَة في قَرْيَته، قالوا : قد كان ذاك، قال كلاّ إنّي عبدُ الله ورسُوله، هاجرتُ إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والمماتُ مماتُكم، فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون : والله ما قلنا الّذي قلنا إلاّ الضّنّ بالله وبرسوله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إنّ الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم "(١).

ولمّا أفاءَ الله على رسوله ـ ﷺ ـ يوم حُنَيْن بعد أيّام من فتح مكّة، قسم في النّاس ولم يعطِ الأنصارَ شيئاً، فكأنّ ناسا منهم حديثة أسنانُهُم(٢) وَجَدُوا ؛ إذ لم يُصِبْهم ما أصاب الطّلقاء، وكان النَّبيُّ ـ ﷺ ـ قد أعطى رجالا من قريش حديث عهد بجاهليّة يتألّفهم، فلّما حُدِّث رسولُ الله ـ ﷺ ـ بمقالتهم من أنّه أعطى قريشاً وتركهم، أرسل ـ ﷺ ـ إلى الأنصار، فجمعهم في قبّة، وخطبهم، فلمّا علموا ما خفي عليهم من الحكمة رضوا بأن تكون غنيمتهم الكبرى مجاورة النَّبيِّ ـ ﷺ ـ حيّاً وميّتاً، قال ـ ﷺ ـ :

" يا معشرَ الأنصارِ، ألمْ أجدْكُم ضُلاّلاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بي؟ وعالةً فأغناكُمُ اللهُ بي ؟ كُلّما قال شيئا قالوا : اللهُ ورسوله أمَنُّ، قال : ما يَمْنَعُكم أن تجيبوا

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٦/ ج١٢/ ص١٢٨) كتاب الجهاد والسّير.

(٢) ليسوا من فقهاء الأنصار أو رؤسائهم.

رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ قال : كُلّما قال شيئا قالوا : اللهُ ورسوله أَمَنُّ، قال : لو شئتم قلتُم : جِئتَنا كذا وكذا، ألا تَرضَونَ أن يذهبَ النّاسُ بالشّاةِ والبعير، وتذهبون بالنَّبيِّ ـ ﷺ ـ إلى رِحَالكم، لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلك النّاس وادياً وشِعْباً لسلكتُ وادي الأنصار وشعبها، الأنصارُ شِعَارٌ والنّاسُ دثارٌ[1] إنّكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتّى تلقوني على الحوض "[2].

قتال جبريل وميكائيل عنه ـ ﷺ ـ

رأى سعد بن أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ الملائكة يوم أحد تقاتل مع النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وتدافع عنه، وهذه واحدة من مناقبه ـ رضي الله عنه ـ الثّابتة، فقد رأى رجلين عليهما ثيابٌ بِيْضٌ يقاتلان عن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ كأشدّ القتال، روى مسلم عن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال :

" رأيتُ عن يمين رسول الله ـ ﷺ ـ وعن شماله يومَ أُحُدٍ رجلين عليهما ثيابُ بَيَاض، ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ، يعني جبريل وميكائيل ـ عليهما السّلام ـ "[3].

نصرة أبي طالب للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ مع أنه لم يكن على دينه

كان عمّه أبو طالب عضداً له وناصراً، فقد كَفِله من يوم مات فيه جدُّه عبد المطَّلب، واستمر على نصرته بعد أن بُعث إلى أن أدركه الموت. ولم تنل قريش من رسول الله ـ ﷺ ـ من الأذى في حياة أبي طالب ما كانت تطمع به ! فقد كان يردُّ عنه الأذى، ويمنعهم من الوصول إليه، وهو مقيم على دين قومه !

روى الحاكم بإسناد جيّد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ قال : " ما زالت

---

(١) الشّعار هو الثّوب الّذي يلي الجلد، والدّثار ما يجعل فوق الشّعار، وأراد النّبيّ ـ ﷺ ـ أنّهم بطانته وخاصّته وأنّهم الأقرب إلى نفسه.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٥/ ص١٠٤) كتاب المغازي، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٤/ ج٧/ ص١٥١) كتاب الزّكاة.

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص٦٦) كتاب الفضائل.

قريش كاعّة[1] حتّى توفّي أبو طالب "[2].

وسيرته في حياطته النَّبيِّ ـ ﷺ ـ والدِّفاع عنه ذائعة، ومن مشهور شعره في ذلك، قوله :

والله لــنْ يَصِلوا إليــك بجمعهــم ... حتّى أوسَّــد في التُّــراب دفينــا

فلقد علمت بأنّ دينَ محمَّــدٍ ... مِنْ خير أديان البرية دينــا

وكان أبو طالب يعرف أنَّه رسول الله، لكنه لم يقرّ له بذلك، ولذلك تجده يقول :

وَدَعــوْتني وعلمــتُ أنّــك صــادقٌ ... ولقد صدقت وكنــت قَبْــل أمينــا

وظل أبو طالبٍ مُقيماً على نصرة الرَّسول حياته كلّها، ويأمر بنصرتـه، ولـمّا حضـرت أبا طالب الوفاةُ، أراد النَّبيُّ ـ ﷺ ـ سيِّد الأوفياء أنّ يردَّ الجميلَ والمعروفَ لعمّه، فدخل عليه قبل أن يدخل في الغرغرة، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أميّة، فقال :

" أي عمّ قل لا إله إلا الله، كلمة أُحاجّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أميّة : يا أبا طالب، ترغب عن ملّة عبد المطّلب ؟ فلم يزالا يكلّمانه حتى قال آخرَ شيءٍ كلّمهم به : على ملّة عبد المطّلب، فقال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ : لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنه، فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة]، ونزلت :﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ... ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص] "[3].

أمّا من قال : لم يُغْنِ النّبيُّ ـ ﷺ ـ عن عمّه شيئاً، مع أنّه كان ينصره ! فقد أجاب عن هذه المسألة النَّبيُّ ـ ﷺ ـ نفسه، فقد أخرج البخاري في صحيحه أنّ العبّاس بن عبد المطّلب

---

(١) أي جبانة.

(٢) الحاكم " المستدرك " (ج٢/ ص٦٢٢) كتاب تواريخ المتقدّمين، وقال الحاكم : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه، وقال الألباني : فيه عقبة المُجَدّر، ولم يخرِّج له الشّيخان، وهو صدوق، فالإسناد جيّد " صحيح السّيرة النّبويّة " (ص٣١).

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤ / ص ٢٤٧) كتاب بدء الخلق.

قال للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ : " ما أغنيت عن عمّك، فوالله كان يحوطك ويغضب لك ؟! قال : هو في ضحضاح من النّار، ولولا أنا لكان في الدّرك الأسفل من النّار "(١).

ونزل في حرص النَّبيِّ ـ ﷺ ـ على إيمان عمّه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ هدايته ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص].

والهداية المنفيّة في الآية الكريمة هي هداية التّوفيق، فلا أحد يملكها إلاّ الله ؛ وإلاّ لهدى نوح ـ عليه السّلام ـ ابنه، وهدى إبراهيم ـ عليه السّلام ـ أباه... ولا تعارض بين الآية وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى]، إذ أنّ الهداية المثبتة هداية التّفسير والدّلالة والبيان...

وتعجب حينَ تقِفُ على حقيقة أنَّ عمَّه الذي كانَ يَذُبُّ عنه وينصره كان مقيماً على دين قومه، ومع هذا ظلّ فوق أربعين عاماً يدافع عنه، ويعزّ جانبه، ويغضب له، ويردّ عنه القول والفعل !

أليس من باب أولى أن نَنْصُرَه ونعزِّرَه نحن أتباعه الذين آمنَّا بالله ورسوله ـ ﷺ ـ ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وما نصر أحد النَّبيَّ ـ ﷺ ـ على أعدائه بكبيرة أو صغيرة إلاّ كُتِبَ له ثَوابُ ذلك، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [التوبة].

لا عذر لنا عند الله إن خُلِصَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ !

يوم أحد بعث رسول الله ـ ﷺ ـ زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يطلب سعد بن الرّبيع

(١)البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤ / ص ٢٤٧) كتاب بدء الخلق.

(أحد نقباء الأنصار)، فطاف ـ رضي الله عنه ـ بين القتلى حتَّى وجده في آخر رمق وقد أصيب بطعنات، فقال له :

" يا سعد، إنّ رسول الله يقرأ عليك السَّلام، ويقول لك : خبّرني كيف تجدُك ؟ قال : على رسول الله ـ ﷺ ـ وعليك السّلام، قل له : أجد ريح الجنّة، وَقُـلْ لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن يُخْلص إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفيكم عينٌ تَطْرِفُ، قال : وفاضت نفسه "(١).

فأين نحن من وصيَّة الصحابيّ سعد بن الرّبيع ـ رضي الله عنه ـ وقد خُلِصَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ؟! هل يُقال ضاع الحقُّ على ألسنة أتباعه ؟! ألا نكون أنصاراً لله ورسوله ؟! أليس من نصر في الله دين محمَّد ـ ﷺ ـ على من بغى في الدّين فقد رعى إلّا ؟!

دفاع حسّان بن ثابت عن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ

حسَّان بن ثابت الأنصاري، شاعر الرّسول ـ ﷺ ـ في أيّام النُّبوَّة، وشاعر اليمن كلّها في الإسلام، وفي الصّحيحين من طريق سعيد بن المُسيَّب، قال : " مرَّ عُمَرُ في المسجد وحسّانُ يُنْشدُ، فقال : كنْتُ أنْشدُ فيه وفيه من هو خيرٌ منْكَ، ثمَّ التفَتَ إلى أبي هُريْرة، فقال : أنْشُدُكَ بالله، أسمِعْتَ رسول الله يقول : أجبْ عنِّي، اللهمّ أيّده بروح القُـدُس، قال : نعم "(٢).

وفي الصّحيحين من طريق البَرَاء بن عازب، قال : قال النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ لحسّان : " اهْجُهُم أو هاجِهِم وجبريل معك "(٣).

وهذا واجب كل مسلم يَسْمَعُ أذى موجهاً للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ أن يُجِيبَ عنه ـ ﷺ ـ وأن ينافح عنه لطلب النّبيّ ـ ﷺ ـ من أصحابه ذلك بعد أن آذاه من آذاه، فقد ندب ـ ﷺ ـ المسلمين أن

---

(١) الحاكم : " المستدرك " (ج٣ / ص٢٠١) كتاب معرفة الصّحابة، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص٧٩) كتاب بدء الخلق. ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٦/ ص٤٥) كتاب فضائل الصّحابة.

(٣) المرجع السَّابق.

يدافعوا عنه لما للكلمة من تأثير ووقع، فأرسل إلى عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، لكنّه لم يَرْضَ إلاّ عن أسد الشّعراء حسَّان، ففي الصّحيح عن عائشة أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ، قال :

" اهْجوا قُرَيْشاً، فإنّه أشدُّ عليها من رَشْق بالنَّبْل، فأرسل إلى ابن رواحة، فقال : اهْجُهُم، فلم يُرْض، فأرسل إلى كعْب بن مالك، ثمَّ أرسل إلى حسّان بن ثابت، فلمّا دخل عليه، قال حسّان : قدْ آنَ لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضَّارب بذَنَبِه(١)، ثمّ أدْلعَ (أخرج) لسانه فجعل يُحرّكه، فقال : والّذي بعثَكَ بالحقّ لأفرينّهم بلساني فرْيَ الأديم، فقال رسول الله : لا تعجل فإنّ أبا بكر أعلمُ قريش بأنسابها، وإنّ لي فيهم نسباً حتّى يُلخّصَ لك نسبي، فأتاه حسّان، ثمّ رجع، فقال : يا رسول الله قدْ لخّصَ لي نسبك والّذي بعثك بالحقّ لأسلّنّك منهم كما تسلُّ الشّعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول لحسّان : إنّ روح القدس لا يزال يؤيّدك ما نافحْتَ عن الله ورسوله، وقالتْ : سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: هَجَاهم حسّان فشفى واشْتَفى، قال حسّان :

هجَوْتَ محمّـداً فأجبـتُ عنْـــهُ ... وعنْـد اللـــه في ذاكَ الجـــزاءُ

هجـوْتَ محمّـــدا بَـرّاً حنيـــفا ... رســـول الله شيْمتُه الوفـــاءُ

فــإنّ أبي ووالـــدُهُ وعِـرْضـــي ... لعِـرْض محمّدٍ منـــكم وقـــاءُ"(٢)

وهذه الأبيات قالها حسّان قُبَيْلَ فتح مكّة، قالها في مدح النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وهجاء قريش، فوقعت كلماته في نفوسهم موقع السِّهام في شغاف القلوب فآلمهم وأبكمهم، والقصيدة بطولها في ديوانه، ومنها قوله ـ رضي الله عنه ـ :

وقـــال الله قد أرْسلتُ عَبْـــداً ... يقول الحقّ ليس بـــه خـفـــاءُ

وقـــال الله قـــد يسّرتُ جنْـــداً ... هـــم الأنصـــار عرْضَـتُها اللقـــاءُ

---

(١) شبه حسّان نفسه بالأسد ولسانه بذنبه.

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (م٨/ ج١٦/ ص٤٨) كتاب فضائل الصّحابة.

يلاقي كلّ يوم من معدّ ... سبابٌ أو قتالٌ أو هِجَاءُ

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحُهُ وينْصُرُهُ سواء

لساني صارمٌ لا عيْبَ فيه ... وبحري لا تكدِّرُهُ الدِّلاءُ

وقال يمدح النَّبيَّ ـ ﷺ ـ :

وأحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عيني ... وأجملَ منكَ لم تلدِ النّساءُ

خُلقتَ مبرّأً من كلّ عيْب ... كأنك قد خُلقْتَ كما تشاءُ[1]

وما من شكّ في أنّ دفاع حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ بلسانه عن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ كان له تأثير أبلغ من السّيف، فالشّعر له وقع في النّفس، ويتناقله النّاس ويظلّ قرونا، وقد أصاب وأحسن يعقوب الحمدونيّ حين قال :

وقدْ يُرْجى لجرح السّيف بُرْءٌ ... ولا بُرْءٌ لما جَرَحَ اللّسانُ

كما أحسن من قال :

وجرحُ السَّيف تَدْمِلُه فيبرا ... ويبقى الدّهرُ ما جَرَحَ اللسانُ

* * *

(١) " ديوان حسّان" (ص١٧)

القسم الثاني

المبحث الأول

من آذى النَّبيَّ ـ ﷺ ـ فقد أغضب ربّه

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران].

ألا تعجبون كيف يصرف الله عن نبيّه الأذى ؟!

كان كُفّارُ قريش من شدّة بغضهم للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ وكراهتهم له لا يسمُّونه باسمه الدّال على المدح (محمّد) لأنه اسم مفعول مشتقّ من الفعل الرُّباعي (حمّد) المضاف للمبالغة أي كثير الخصال المحمودة على المفعول، أو كثير الحمد على الفاعل ؛ فيعدلون عن هذا الاسم المشرّف المشرق إلى ضده، فيسمونه مذمّما.

ولذلك روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : " ألا تعجبون كيف يَصْرِف الله عنّي شتم قريش ولعنهم ! يشتمون مُذمّما، ويلعنون مُذمّما، وأنا محمّد "[1] فاعجب كيف يَصْرِفُ الله عن اسمه ـ ﷺ ـ وصفته أذى قريش !

وقد كان الذي يذكرونه بحقّه ـ ﷺ ـ مصروفاً إلى غيره، لأنّ مذمّما ليس اسم النَّبيِّ ـ ﷺ ـ فلا يُفسّر مذمّمٌ بمحمّدٍ بوجه من الوجوه، ولذلك فإنّ شتم الشَّانئين مصروف إليهم، وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ... ﴿٧﴾﴾ [الإسراء] وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ... ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] فمن أساء إنّما أساء إلى نفسه في الدّنيا والآخرة ! ولن يضرَّ الرَّسولَ ـ ﷺ ـ كلامُ شانئ أبداً :

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م/ ٢ / ج٤/ ص١٦٢) كتاب أحاديث الأنبياء.

مــــا يــــضرّ البحـــــر أمــــسى زاخـــــراً   أن رمــــــى فيــــــه غــــــلامٌ بحجــــــر

وسيبقى البحرُ الزّاخر زاخراً، وسيبقى ذكر من رفع الله ذكره كائناً : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ ... ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد].

وإذا كان المقصود النّيل من الإسلام فمعاذ الله أن يقدر أحد على ذلك، قال الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ ... ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة].

الّذين يتناجون بالإثم والعدوان

روى البخاري عن أنس بن مالك قال : " مرّ يهوديّ برسول الله ـ ﷺ ـ، فقال : السَّامُ عليك. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : وعليك، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أتدرون ما يقول ؟ قال : السَّام عليك. قالوا : يا رسول الله ، ألا نقتله ؟ قال : لا، إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم "(١).

وروى عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : " استأذن رَهْطٌ من اليهود على النَّبيّ ـ ﷺ ـ فقالوا : السَّام عليك، فقلت : بل عليكم السَّام واللعنة، فقال : يا عائشة، إن الله رفيقٌ يحبُّ الرّفقَ في الأمر كلّه. قُلتُ : أولم تسمعْ ما قالوا ؟ قال : قلتُ : وعليكم "(٢).

وقد ترك النَّبيُّ ـ ﷺ ـ قتلهم، وصبر على أذاهم لمصلحة التأليف، ولأنهم لم يعلنوا ولم يصرِّحوا، وإنما لَوَّوْا بألسنتهم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء الّذين كانوا يحيّون النَّبيَّ ـ ﷺ ـ بهذه التّحيّة الظَّالمة، الّذين كانوا يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية النَّبيِّ ـ ﷺ ـ ويقولون فيما بينهم : لو كان نبيّاً حقّاً لعذّبنا الله على هذا الكلام، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٥١) كتاب استتابة المرتدين والمعاندين.

(٢) المرجع السَّابق.

﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة].

وعلى ذلك فإنّ الّذين يؤذون النَّبيَّ ـ ﷺ ـ في زماننا، ولسان حالهم يقول : لو كان نبيّاً ما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به، يجهلون أنّ الله حليم لا يعجّل العقوبة لمن سبّه، فكيف من سبّ نبيّه !

فلا أحد أصبر على الأذى من الله تعالى، روى البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ قال : " قال الله : كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّاي فزعم أنّي لا أقدر أن أعيده كما كان، وأمّا شتمه إيّاي، فقوله : لي ولدٌ، فسبحاني أَنْ أتّخذ صاحبة أو ولداً "(١).

وكثير هي الآيات الّتي أشارت إلى ما بيّنته الأحاديث الشّريفة من أنّ الله لا يعجل كعجلة أحدنا، وإنّما يملي للظّالم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]، وقال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر].

ولكن لمن تقول هـذا الكـلام : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال]، ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنفال].

ونحن المسلمين نُؤْمنُ بجميع الأنبياء والمرسلين، ولا نستثني منهم أحداً، ولا أدري كيف يجترئ عَبْدٌ على مُعَاداة نبيّ، والله تعالى يقول في الحديث القدسيّ : " من عادى لي وليّا

---

(١) البخاري "صحيح البخاري " (م٣ / ج٥ / ص ١٤٩) كتاب تفسير القرآن.

فقد آذنته بالحرب "[١] فما بالك بمن عادى نبيّاً ! ولكن كما قال القائل :

لا يُصْلِحُ الواعظُ قَلْبَ امرئ   لم يَعْزِمِ اللهُ على رُشْده !

من آذى النَّبيَّ ـ ﷺ ـ فقد أغضب ربّه !

لمّا اختلف أبو بكر وربيعة ـ رضي الله عنهما ـ في عـذْق نخلة، يقـول ربيعـة فقلتُ : " هي في حَدِّي، وقال أبو بكر : هي في حَدِّي، فكان بيني وبين أبي بكر كـلامٌ، فقال أبو بكر كلمةً كرِهَهَا وَنَدِمَ، فقال لي : يا ربيعةُ، رُدَّ عليَّ مِثْلَها حتّى تكون قصاصاً، قال : قلتُ : لا أفعلُ، فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : لتَقُولَنَّ أو لأستعديَنَّ عليكَ رسول الله ـ ﷺ ـ، فقلتُ : ما أنا بفاعلٍ ، قال : ورفضَ الأرضَ.

وانطلقَ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وانطَلَقْتُ أتلوهُ، فجاء ناسٌ مِنْ أَسْلمَ، فقالوا لي : رحم اللهُ أبا بكر، في أيِّ شيء يسْتَعْدي عليكَ رسول الله ـ ﷺ ـ، وهو قال لك ما قال ؟! فقُلتُ : أتدرونَ ما هذا ؟ هذا أبو بكر الصِّدِّيق، هذا ثانيَ اثنين، وهذا ذُو شَيْبَة المسلمين، إيَّاكم لا يلتَفتُ فيراكم تنصروني عليه فيغْضبَ، فيأتي رسول الله ـ ﷺ ـ فيغضبَ لغضبِهِ، فيغْضبَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لغضبهما، فيهلكَ ربيعةَ ! قالوا : ما تأمرنا ؟ قال : ارجعوا.

قال : فانطلقَ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فتبعتُهُ وحدي حتّى أتى النَّبيَّ ـ ﷺ ـ فحدّثه الحديث كما كان، فرفع إليَّ رأسَهُ، فقال : يا ربيعةُ، مالكَ وللصِّدِّيق ؟! قلتُ : يا رسول الله، كان كذا كان كذا، قال لي كلمةً كرهها، فقال لي : قلْ لي كما قلتُ حتّى يكونَ قصاصاً، فأبيتُ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أجلْ فلا تَرُدَّ عليه، ولكن قل : غفر الله لك يا أبا بكر، فقلتُ : غفر الله لك يا أبا بكر، قال الحسن : فولّى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو يبكي ! "[٢].

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص١٩٠) كتاب الرّقاق.

(٢) أخرجه أحمد بسند صحيح عن ربيعة بن كعب الأسلمي في " المسند " (ج١٣/ ص٧٢/ رقم١٦٥٣٠) وأخرجه الحاكم في " المستدرك " (ج٢/ ص١٧٤) كتاب النّكاح، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرّجاه.

وانظر إلى ما يُسْتَفادُ من تحذير ربيعة بن كعب لقومه من أن يسمعَهم أبو بكر ينصرونه عليه، فقد خَشِي أن يسمعهم أبو بكر فيغضب، فيخبر رسول الله ـ ﷺ ـ فيغضب، فيغضب الله لغضبهما، فيهلك ربيعة !

فالتّعدّي على النّبيِّ ـ ﷺ ـ يغضب له الله ـ عزّ وجلّ ـ، فليحذر الّذين يؤذون النّبيَّ ـ ﷺ ـ أن يحلل عليهم غضب الله تعالى، فالله تعالى يقول : ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه].

وقد جعلت الآياتُ شِقاقَ الله ورسوله، ومحادّة الله ورسوله، ومعصية الله ورسوله، وأذى الله ورسوله أمراً واحداً، فقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال]، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ.. ﴿٥﴾﴾ [المجادلة]، وقال تعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ... ﴿١٤﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب].

وإذا كان أذى النّبيِّ ـ ﷺ ـ يترتَّبُ عليه غَضَبُ الله تعالى، فإنّ أذى الصّحابة باب خطر أيضاً؛ أتى أبو سفيان نفراً من الصَّحابة فيهم سلمان، وبلال، وصهيب ـ رضي الله عنهم ـ، وكان أبو سفيان يومها على الكفر في الهدنة بعد صلح الحديبية، فقالوا له قولا كرهه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فقال لهم أبو بكر : " أتقولون هذا لشيخ قريش وسيّدهم ! " فجاء أبو بكر النّبيَّ ـ ﷺ ـ فأخبره بالّذي كان منهم، فخشي النّبيُّ ـ ﷺ ـ أن يكون أبو بكر قد أغضب أصحابه، لما ينتج عن ذلك من غضب الله تعالى !

أخرج مسلم عن عائذ بن عمرو : " أنّ أبا سفيان أتى على سلْمانَ وصُهَيْبٍ وبلال في نَفَر، فقالوا : والله ما أَخَذَتْ سُيُوفُ الله من عُنُق عَدُوّ الله مأخذَها ! قال : فقال أبو بكرٍ : أتقولونَ هذا لشيْخِ قُرَيْشٍ وسَيّدهم ! فأتى النَّبيَّ ـ ﷺ ـ فأخبرَهُ.

فقال : يا أبا بكر ، لعلّك أغضَبْتَهُم ؟ لئن كُنْتَ أغضبْتَهُم لقدْ أغْضَبْتَ رَبَّكَ، فأتاهُم أبو بكر، فقال : يا أخوتاه، أغْضَبْتُكم ؟! قالوا : لا. يغْفرُ اللهُ لكَ يا أَخي "(1).

وانظر كيف يخبر النَّبيُّ ـ ﷺ ـ أنّ أبا بكر الصّديق ـ خير من طلعت عليه الشّمسُ من الرّجال بعد النّبيّين ـ إن كان أغضب أحداً من الصّحابة فقد أغضب ربَّه ! فما بالك بمن يَسُبُّ الصّحابة وهو ليس واحداً منهم !

المغايرة في الجزاء بين أذى الرّسول ـ ﷺ ـ وأذى غيره

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب].

انظر كيف غاير الله تعالى وخالف في الجزاء بين أذى الرّسول وأذى غيره من المؤمنين والمؤمنات ! فرتبة المؤمنين والمؤمنات دون رتبة النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وأذى النَّبيِّ ـ ﷺ ـ ليس كأذى أَحَدٍ من النّاس، فتدبّر

حكم الاستهزاء بالنَّبيِّ ـ ﷺ ـ

لمّا توجّه النَّبيُّ ـ ﷺ ـ إلى تبوك وكان معه ثلاثون ألفاً من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وإذ بجماعة من المنافقين ومرضى القلوب يهزؤون بالنَّبيِّ ـ ﷺ ـ ويسخرون منه، فذهب النَّبيُّ ـ ﷺ ـ إليهم يسألهم عن ذلك، قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ يا أيّها الرّسول عن استهزائهم وهم سائرون إلى تبوك ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ معتذرين ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ في الحديث لنقطع به الطّريق ﴿ قُلْ ﴾ لهم : ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ... ﴿٦٦﴾ ﴾ [التوبة].

---

(1) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٦/ ص٦٦) كتاب فضائل الصّحابة.

هذا نصّ صريح في أنّ الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر، وأنّ كلّ من تَنَقَّصَ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ جادّاً أو هازلاً فقد كفر ! ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يس].

فحلفوا بالله كاذبين أنّهم ما استهزؤوا بالنَّبيِّ ـ ﷺ ـ، قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ ﴾ ما بلغك عنهم ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ ﴾ والآية تشعر أنّ الكلمة الواحدة في هجاء النَّبيِّ ـ ﷺ ـ موجبة للكفر ! ﴿ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ ... ﴿٧٤﴾ ﴾ [التوبة] من الفتك بالنَّبيِّ ـ ﷺ ـ ليلة العقبة عند عودته من تبوك ﴿ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [التوبة].

وقد ترك النَّبيُّ ـ ﷺ ـ هؤلاء المنافقين ولم يجازهم ولم يُقِمْ عليهم الحَدُّ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب]، فلم يكن أُمِر بجهاد المنافقين بعد.

قلت : وليحذر المستهزئون في كلّ زمان ومكان ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور]، فالله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر].

الحكم فيمن سَبَّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ

هذه حكاية أمّ ولد لرجل كان أعمى، كانت تَشْتُم النَّبيَّ ـ ﷺ ـ، فكان يزْجُرُها فلا تَنْزَجِر، وينهاها فلا تنتهي، فقتلها، فذهب دمها هدراً، أخرج النّسائي بإسناد صحيح عن عثمان الشَّحَّام، قال : كنْتُ أقودُ رجلاً أعمى، فانتهيتُ إلى عكرمة فأنشأ يحدّثُنا، قال : حدّثني ابنُ عبّاس :

" أنّ أعمى كان على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ، وكانت له أمّ ولدٍ، وكان له منها ابنان، وكانت تُكثِرُ الوقيعة برسول الله ـ ﷺ ـ وتسُبُّه، فيزْجُرُها فلا تنْزَجر، وينهاها فلا تنتهي، فلمّا

كانَ ذاتَ ليلة، ذكرْتُ النّبيَّ ـ ﷺ ـ فوقعَتْ فيه فلم أصبر أن قمْتُ إلى المغْوَل فوضعتُه في بطنها فاتّكأتُ عليه فقَتلتُها، فأصبحتْ قتيلا، فَذُكِرَ ذلك للنّبيّ ـ ﷺ ـ فجمع النّاس، وقال : أَنْشُدُ الله ! رَجُلاً لي عليه حقٌّ فَعَلَ ما فَعَلَ إلاّ قامَ، فأقبل الأعمى يَتدلْدَل[1]، فقال : يا رسولَ الله أنا صاحبُها، كانت أمَّ ولدي، وكانت بي لطيفةً رفيقةً، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، ولكنّها كانت تكثرُ الوقيعة فيك وتشتمك، فأنهاها فلا تنتهي، وأزْجُرها فلا تَنْزَجِرُ. فلمَّا كانت البارحة ذَكرْتُكَ فوقعتْ فيك، قمتُ إلى المغول فوضعتُه في بطنها، فاتّكأتُ عليها حتّى قتلتها، فقال رسول الله : ألا اشْهَدُوا أنَّ دَمَهَا هَدَرٌ "[2].

وأخرج الحاكم عن أبي برزة، قال : " تغيّظ أبو بكر على رجل، فقلتُ : من هو يا خليفةَ رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ قال : لِمَ؟ قلتُ : لأضربَ عنقَه إن أمرتني بذلك، قال : فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: أوكنتَ فاعلاً ؟ قلتُ : نعم. قال : فوالله لا ذهب عظمُ كلمتي الّتي قلتُ غضبه، ثمّ قال : ما كان لأحد بعد محمّد ـ ﷺ ـ "[3].

حكم الاستهزاء بالصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وبالمؤمنين

لمّا فتحَ النّبيُّ ـ ﷺ ـ باب التّطوّع للجيش الإسلاميّ الخارج إلى تبوك وحثّ على الصّدقة، يقول أبو مسعود : " فجاء أبو عقيل بنصف صاعٍ، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون : إنّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخرُ إلاّ رياء ، فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا

---

(١) يضطرب في مشيته

(٢) النّسائي " صحيح سنن النّسائي " للألباني (ج٣/ ص٨٥٣/ رقم٣٧٩٤) و" الحاكم في " المستدرك " (ج٤/ ص٣٤٥) كتاب الحدود وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرّجاه.

(٣) الحاكم " المستدرك " (ج٤/ ص٣٤٥) كتاب الحدود. وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرّجاه.

يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ... ﴿٧٩﴾ [التوبة]"[1].

هذه الآية فضحت المنافقين، ولذلك سمّيت سورة التّوبة الفاضحة، وانظر إلى غيرة الله تعالى على أوليائه حيث سخر الله ممّن سخر من المؤمنين وتوعّدهم بعذاب أليم، قال تعالى﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ [التوبة]، فهذه العلّة كافية في عدم المغفرة لهم!

فإذا كان هذا حال من يَسْخَرُ من بعض المؤمنين الطّائعين، فما بالك بمَنْ يسبُّ أصحاب النَّبيِّ الكريم، وقد قال ـ ﷺ ـ: "مَن سَبَّ أصحابي فَعَلَيْهِ لعنةُ الله والملائكةِ والنَّاس أجمعين"[2]!

من مِنَح المِحْنَة

كم من نعمةٍ في طيِّ المكارِه كامنة ! فمن الفوائد الكامنة في هذه المحنة التّي تعرّض لها المسلمون أنّ هذا الأذى الكبير الّذي نسمعه في حقّ النّبيِّ ـ ﷺ ـ وأصحابه دليلٌ على صدق القرآن الكريم، فقد نطق القرآن به وأخبر عنه، قال تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ... ﴿١٨٦﴾ [آل عمران]، وها نحن نسمع هذا الأذى كما أخبرنا الله ـ عزّ وجلّ ـ فإلى الله المشتكى من ظلم العباد.

***

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٥/ ص٢٠٥) كتاب تفسير القرآن.

(٢) الألباني: "سلسلة الأحاديث الصَّحيحة" (م٥/ ص ٤٤٦)، وقال: بمجموعِ طُرقِهِ حَسَن.

المبحث الثّاني

صور ممّا لقي النّبيُّ ﷺ من الأذى وهو صابر وما نزل من القرآن

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ... ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان].

لكلّ نبيّ عدوّ

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ... ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام]، فمن حكمة الله تعالى أنّه لم يَبْعَثْ نبيّاً إلاّ وجعل له أعداء يشكّكون بما جاء به ويعتدون عليه، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في غير موضع، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان]، فانظر إلى آدم وإبليس، وإبراهيم والنّمرود، وموسى وفرعون، والنَّبيَّ محمّد ـ ﷺ ـ وأبي جهل وأبي لهب... لكن من نعمة الله تعالى عليهم أن جعل مُقابِل ذلك الهدايةَ والنُّصْرةَ لهم حقّاً عليه، قال تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان].

وهذا الاعتداء على النَّبيِّ ـ ﷺ ـ قديم، قال تعالى : ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [التوبة]، فكم هم الّذين أجالوا الفِكْرَ في كيد النّبيِّ ـ ﷺ ـ وإبطال دينه من المشركين والمنافقين، ولكن من كان الله معه فمن عليه ؟!

كما أنّ أعداء النَّبيِّ ـ ﷺ ـ (شياطين الإنس والجنّ) باقون حتّى يومنا هذا، ولا أدري ماذا يريدون من رسول الله ـ ﷺ ـ ؟! آذوه بعد مماته، كما آذاه أَسْلافُهم من قبل في حياته ؟!

فقد لَقِيَ النّبيُّ ـ ﷺ ـ من ألوان الأذى شأنه شأن سائر الأنبياء والمرسلين، اختبأ في دار الخيزران(١)، وهم يتربصون به ؛ فجعل يَفِرُّ بدينه من مكان إلى مكان، وهم يدمون قدميه

(١) الدّار التي عند الصّفا.

الشّريفتين، ويشقون سلا الجزور على ظهره.

ولبث عشر سنين يتبع النّاس في منازلهم في الموسم ومَجَنَّة وعُكَاظ ومنازلهم من منى، وهو يقول : " من يؤويني، من ينصرني، حتّى أبلّغ رسالات ربّي ؛ فله الجنَّة ؟ فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه حتّى أنّ الرّجل ليرْحَل من مِصْر أو من اليمن إلى ذي رحمه، فيأتي قومه، فيقولون له : احذر غلام قريش لا يفتنك "[1].

وتُكْسَر رباعيَّتُه يوم أُحُد، ويشجّ في رأسه وليس له من الأمر شيء ! ويموت ابنه، وتقذف زوجته، ويظهر الله على يديه المعجزات، وهم يتظاهرون عليه، ويقولون ما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر]، فيكذبهم الله ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التكوير].

ويصفونه بأنَّه شاعر أو كاهن : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات]، فيهدم الله وصفهم، فيقول: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة].

ويصفونه بأنَّه ساحر كذّاب : ﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص]، فيقول الله : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الذاريات].

ويواجهونه دون استحياء بأنّه مُفْتر متقوّل على الله بما لم يقُل : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ... ﴿١٠١﴾ ﴾ [النحل]، فيردّ الله بما يدفع جهلهم : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [النحل]، ثمّ يردّ مؤكّداً : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) الحاكم " المستدرك " (ج٢/ ص٦٢٤) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه.

ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النحل].

ويصفونه بأنه ضَلَّ، فيهدم الله ما قالوا : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ... ﴿٢﴾ ﴾ [النجم].

﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة] أي يسمع كلّ قِيْلٍ ويقبله، فيردّ الله عليهم : ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة].

ويقولون : ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ [ص]، فقال الله : ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ص].

فيا شياطين الإنس والجنّ في كلّ زمان ومكان، يا مَنْ تؤذون الله ورسولَه ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ... ﴿٧٠﴾ ﴾ [آل عمران]؟ ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ... ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران] ؟ ألم يصلكم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأحزاب] ؟

لعمري ما صبر على ذلك نَبيٌّ قبله ؛ فهذا نبيّ الله نوح يضيق ذرعاً بقومه، فيقول : ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح]، وخاتم النبيين لمّا قدم طُفَيْل بن عمرو الدّوسيّ وأصحابه عليه ـ ﷺ ـ فقالوا : يا رسول الله، إنّ دَوْساً عصت وأبت، فادع الله عليها ـ فَقِيل: هلكت دوس ـ قال : "اللهمّ اهد دَوْساً وأت بهم "(١).

(١) البخاري "صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص ٢٣٥) كتاب الجهاد والسّير.

وهذا نبيُّ الله سليمان ـ عليه السّلام ـ يقول : ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [ص] ونبيّ الرّحمة يقول : " اللهمّ ارزق آل محمّد قوتاً "[1].

حدّثت عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : " كان فراش رسول الله ـ ﷺ ـ من أَدَمٍ (جِلْد مَدْبُوغ) وحَشْوُه من ليف "[2] وقالت : " ما شَبع آلُ محمّد ـ ﷺ ـ منذ قدم المدينة من طعام برّ ثلاث ليال تباعا حتّى قُبض "[3].

فمن يداني رسول الله ـ ﷺ ـ بأخلاقه وصبره وزهده وإشفاقه على أمّته... ! من يباري رسول الله ـ ﷺ ـ الّذي أَمَره الله تعالى أن يصبر الصّبر الجميل، وأن يصفح الصّفح الجميل، وأن يهجر الهجر الجميل، قال تعالى :

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج]، وقال تعالى : ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ۝٨٥﴾ [الحجر]، وقال تعالى : ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ [المزمل].

أشدّ ما صنع المشركون بالنَّبيِّ ـ ﷺ ـ ودفاع أبي بكر عنه !

سأل عروة بن الزّبير ـ رضي الله عنهما ـ عبد الله بن عمرو عن أشدّ ما صنع المشركون برسول الله ـ ﷺ ـ، فقال : " رأيتُ عُقْبَةَ بنَ أبي مُعَيْطٍ جاء إلى النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وهو يصلّي فوضع رداءهُ في عُنُقِهِ، فَخَنَقهُ به خنْقا شديداً، فجاء أبو بكر حتّى دَفَعَهُ عنه ـ ﷺ ـ فقال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ ... ۝٢٨﴾ [غافر] "[4].

مقالة العاصي بن وائل وما أُنْزِل فيه من القرآن

كان خَبَّابُ بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ رجلاً حدّاداً، وكان له على العاصي بن وائل

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص١٨١) كتاب الرّقاق.

(٢) المرجع السَّابق.

(٣)المرجع السَّابق.

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٩٧) كتاب أحاديث الأنبياء.

السّهميّ دَيْن، فجاءه يتقاضاه حقّه، فرفض العاصي أن يقضي له دينه حتى يكفر بالنَّبيِّ ـ ﷺ ـ، فقال له خبّاب : " لا أكفر حتّى يُمِيتَكَ الله ثمّ تُبْعَث " أي حتّى تموت وتبعث أمامي، وهذا من باب التيئيس والاستحالة، فقال العاص منكراً : " وإنّي لميّت ثمّ مبعوث ؟! قال : نعم. قال : فإنه سيكون لي، ثمّ مالٌ وولد، فأقضيك " فأنزل الله تعالى في ذلك قرآناً يتلى على مرّ الزّمان.

أخرج البخاري عن خبّاب، قال : " كنتُ قَيْناً (حدّاداً) في الجاهلية، وكان لي على العاصي بن وائل ديْنٌ، فأتيتُه أتقاضاه. قال : لا أعطيك حتّى تكفر بمحمّد ـ ﷺ ـ. فقلت : لا أكفر حتّى يُميتَك الله ثمّ تُبْعَث. قال : دعني حتّى أموتَ، وأُبْعَثَ ، فسأُوتى مالاً وولداً ؛ فأقْضيَك. فنزلت : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴾ [مريم] "[1].

وأخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ قال : " جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بعظم حائل[2] فَفَتَّهُ، فقال : يا محمّد، أيبعثُ الله هذا بعدما أرم ؟! قال : نعم، يبعثُ اللهُ هذا، يميتُكَ، ثمّ يحييكَ، ثمّ يدخلك نار جهنّم، قال فنزلت الآيات : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس] "[3].

---

(١) البخاري "صحيح البخاري " كتاب البيوع (م٢/ ج٣/ ص١٣). وأخرجه في كتاب الإجارة (م٢/ ج٣/ ص٥٢) وكتاب تفسير القرآن (م٣/ ج٥ / ص ٢٣٧).

(٢) أي متغيّر بالبلى.

(٣) الحاكم " المستدرك " (ج٢/ ص٤٢٩) كتاب التّفسير. وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرّجاه، ووافقه الذّهبي.

مقالة عبد الله بن سلول ـ رأس المنافقين ـ وما أنزل فيه من القرآن

في غزوة (بني المصطلق) ضرب رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار برجله، فنادى الأنصاريّ : يا للأنصار ! ونادى المهاجريُّ : يا للمهاجرين ! وكانت الأنصار يومها أكثر من المهاجرين، فنهاهم رسول الله ـ ﷺ ـ عن دعوى الجاهلية، فسمع بذلك عبد الله بن أبيّ بن سلول، فقال : " فَعَلُوها ؟ " وهو استفهام ولكن حذفت الأداة، وقد خرج الاستفهام إلى معنى الأمر، فالمراد : افْعَلوها، أي الأَثَرَة، وعدم الإنفاق على من عند رسول الله ـ ﷺ ـ، ثمّ أقسم إذا رجع من هذه الغزوة وعاد إلى المدينة أن يخرج الأعزّ منها الأذلَّ، وعنى بالأعز نفسه وأتباعه، وبالأذلّ رسول الله ـ ﷺ ـ ومن معه، فسمعه زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ فأخبر بذلك رسول الله ـ ﷺ ـ وبلغ ذلك ابنَ سلول فحلف أنّه ما قال وكذّب زيداً، فنزل قول الله تعالى : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون].

أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال : " كنّا في غَزاة، فَكسَعَ رجلٌ من المهاجرين، رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريّ : يا للأنصارُ ! وقال المهاجريّ : يا للمُهاجرين ! فسمع ذاك رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : ما بالُ دعوى جاهليّةٍ ؟! قالوا : يا رسول الله، كَسَعَ رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال : دعوها فإنها مُنْتنةٌ. فسمع بذلك عبد الله بن أبيّ، فقال : فَعَلُوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، فبلغ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ فقام عُمَرُ، فقال : يا رسولَ الله، دعني أضرب عُنُقَ هذا المنافق، فقال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ : دعْهُ لا يتحدّثُ النّاسُ أنّ محمّدا يقتُلُ أصحابه "(١).

وأخرج عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ، قال : " لما قال عبد الله بن أبيّ : لا تنفقوا

(١) البخاري "صحيح البخاري " (م٣/ ج٦/ ص ٦٦) كتاب تفسير القرآن.

على من عند رسول الله، وقال أيضاً : لئن رجعنا إلى المدينة، أخبرت به النَّبيَّ ـ ﷺ ـ، فلامني الأنصار، وحلف عبدُ الله بن أبيّ ما قال ذلك، فرجعتُ إلى المنزل فنمتُ، فدعاني رسول الله ـ ﷺ ـ فأتيته، فقال : إنّ الله قد صدّقك ونزل : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ ... ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] "[1].

مقالة أبي جهل، وما نزل فيه من القرآن

كان أبو جهل ينهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن الصَّلاة، فكان كمن باع السَّلامةَ بالهلاك والعَطَب، وبلغ به الأمر أن توعَّدَ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ أن يطأ على رأسه الشّريف إذا رآه يصلِّي عند الكعبة، حتّى نزل فيه قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾ [العلق].

أخرج البخاري في تفسير (سورة العلق) باب قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [العلق]، قال : " قال أبو جهل : لئن رأيت محمّداً يصلّي عند الكعبة لأطأنّ على عنقه، فبلغ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ، فقال : لو فعله لأخذته الملائكةُ "[2].

مقالة أبي لهب وما نزل فيه من القرآن

قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ : " صَعِدَ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ الصّفا ذات يوم، فقال : يا صَبَاحاه، فاجتمعتْ إليه قُريشٌ، قالوا : مالكَ ؟! قال : أرأيتُمْ لو أخبرتُكُمْ أنّ العَدوّ يُصبِّحُكم أو يُمسِّيكم، أما كنتُم تُصدِّقوني ؟ قالوا : بلى. قال : فإنِّي نذيرٌ لكم بين يديْ عَذابٍ شديدٍ، فقال أبو لهب : تبّاً لكَ ألهذا جمعتنا ؟! فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ [المسد] "[3].

---

(١) البخاري "صحيح البخاري " (م٣/ ج٦/ ص ٦٤) كتاب تفسير القرآن.
(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٣ / ج ٦/ ص ٨٩) كتاب تفسير القرآن.
(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٦/ ص٢٩) كتاب تفسير القرآن.

مقالة أمّ جميل العوراء (حمّالة الحطب) وما نزل من القرآن

حين سمعت أمُّ جميل بنت حرب، ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أَتَتْ رسول الله وهو جالس في المسجد، عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصّدّيق، وفي يدها حجر ملء الكَفّ، تريد أن تضرب به الرَّسولَ ـ ﷺ ـ، فكفّها الله عنه.

فقد أخرج الحاكم عن سفيان، عن الوليد بن كثير، عن ابن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ قالت : " لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ...﴿١﴾ ﴾ [المسد]، أقبلت العوراء (أمّ جميل) بنت حرب ولها ولولة، وفي يدها فِهْر، وهي تقول :

مذمّماً أبينا ودينه قَلَيْنَا

وأمره عصينا

والنَّبيُّ ـ ﷺ ـ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلمّا رآها أبو بكر ، قال: يا رسول الله، قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إنّها لن تراني. وقرأ قرآناً، فاعتصم به كما قال، وقرأ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء]، فوقفتْ على أبي بكر، ولم تَرَ رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت: يا أبا بكر، إنّي أُخْبِرْت أن صاحبك هجاني، فقال: لا وربّ هذا البيت ما هجاك، فولّت، وهي تقو ل : قد علمت قريش أنّي بنت سيدها "(١).

وأخرج البخاري عن جُنْدُب بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : " احتبَسَ جبريلُ ـ ﷺ ـ على النَّبيِّ ـ ﷺ ـ، فقالت امرأةٌ من قُريش : أبطأ عليه شيطانُه، فنزلتْ: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى]"(٢).

---

(١) الحاكم في " المستدرك " (م٢/ ص٣٦١) كتاب التفسير. وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذّهبي.

(٢) صحيح البخاري " (م١/ ج٢/ ص٤٣) كتاب الكسوف. ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٦/ ج١٢/ ص١٥٦) كتاب الجهاد والسّير.

وهذه المرأة هي أمّ جميل بنت حرب أخت أبي سفيان امرأة أبي لهب حمَّالة الحطب، كما روى الحاكم في " المستدرك "[1] عن زيد بن الأرقم.

مقالة عبد الله بن أبيّ وما نزل من القرآن

روى مسلم عن أنس بن مالك، قال : " قيل للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ لو أتيْتَ عبْدَ الله بن أبيّ، قال: فانْطلقَ إليه وركبَ حماراً، وانْطلقَ المسلمون، وهي أرضٌ سَبِخَةٌ، فلمّا أتاه النَّبيُّ ـ ﷺ ـ، قال : إليك عنّي، فوالله لقدْ آذاني نتْنُ حِمَارِكَ، قال : فقال رجلٌ من الأنصار : والله لحمارُ رسول الله ـ ﷺ ـ أطيَبُ ريحاً منك ! قال : فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، قال: فغضب لكلِّ واحد منهما أصْحابُه، قال : فكان بينهم ضَرْبٌ بالجريد وبالأيدي وبالنّعال، قال : فبلغنا أنّها نزلت : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] "[2].

مقالة لَبِيْد وإسلامه

سمع ـ ﷺ ـ الشّعر واستنشده، وقد ثبت أنّه قال : " أشْعَرُ كلمة تكلّمت بها العرب كلمة لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل "[3].

ولهذا البيت حكاية ملخّصها أنّ عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ كان في نادٍ من قريش وفيهم لبيد العامري فأنشد قصيدته حتّى وصل :

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل

فقال له عثمان : صدقت، فلمّا أنشد عجزه، وهو :

وكلّ نعيم لا محالة زائل

---

(١) الحاكم " المستدرك " (ج٢/ ص٥٢٦) كتاب التّفسير.

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٦/ ج١٢/ ص١٥٩) كتاب الجهاد والسّير.

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص١٢) كتاب الشّعر.

قال له : كذبتَ، نعيمُ الجنّة لا يزول، فقال لبيد : والله يا معشر قريش ما كانت مجالسكم هكذا، فقام سَفِيهٌ من قريش، فلطم عَيْنَ عثمان، فاخضرت، وكان قبل ذلك في جوار الوليد بن المغيرة فردّه عليه، فقال له من حضر من قريش : والله لقد كنت في ذمّة منيعة وكانت عينك غنيّة عمّا لقيت، فقال : جوارُ الله آمنُ وأعزّ، وعيني الصّحيحة فقيرة إلى ما لقيت أختها، ولي برسول الله ـ ﷺ ـ ومن آمن معه أسوة وكان ذلك قبل إسلام لبيد (1).

ولبيد بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ صحابيّ جليل، قال الشّعر في الجّاهليّة دهراً، ثمّ أسلم وحسن إسلامه، وقد عمّر طويلاً، وهو من أصحاب المعلّقات (2).

وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تحبّ أن تتمثّل بعض أبياته ؛ فقد أخرج البخاري عن الزبيدي، عن الزّهري، عن عروة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، قالت : " يا وَيْحَ لبيد حيث يقول :

ذهب الّذين يُعَاشُ في أكنافهم   وبقيت في خَلفٍ كجِلْدِ الأجْرَبِ

فكيف لو أدرك زماننا ؟ قال عروة : رحم الله عائشة، كيف لو أدركت زماننا ؟! قال الزّهري : رحم الله عروة، كيف لو أدرك زماننا ؟! قال الزبيدي : رحم الله الزهري، كيف لو أدرك زماننا ؟! " (3).

ومن الشّعراء الّذين كانت لهم مقالة، ثمّ أسلموا وحسن إسلامهم الصّحابيّ الجليل كعب بن زهير، أسلم ـ رضي الله عنه ـ حين علم من أخيه بجير أنّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ يَهمُّ بقتل كلّ من يؤذيه من شعراء المشركين، وأنّه ـ ﷺ ـ لا يَقتُلُ أحداً جاء تائباً، فقدم كعب المدينة، ثمّ أتى رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال يمدح النّبيَّ ـ ﷺ ـ ويعتذر :

---

(1) الشّنقيطي " الدّرر اللوامع على همع الهوامع " (ج1/ ص2).

(2) انظر ترجمته وأخباره في " الإصابة " (م3/ ج6/ ص4/ رقم 7535) و" شرح المعلّقات العشر وأخبار شعرائها " للشّنقيطي (ص107).

(3) البخاري " التّاريخ الأوسط " (ص31/ رقم210).

يسعى الوشاةُ بجَنْبيها وقولُهُم إنّكَ يا بنَ أبي سُلْمى لمقتولُ
وقال كلُّ خليلٍ كنتُ آمُلُه لا ألفينَّكَ إنّي عنك مشغولُ
فقلتُ خلّوا طريقي لا أبا لَكُمُ فكلُّ ما قدّر الرّحمنُ مفعولُ
كلُّ ابن أنثى وإن طالت سلامتُهُ يوماً على آلةٍ حَدْباءَ محمولُ
أُنبِئتُ أنّ رسولَ اللهِ أوعدني والعفوعند رسول الله مأمولُ
مَهْلاً هَدَاكَ الّذي أعطاكَ نافلةَ الـ ـقرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ[1]

أشدُّ ما لقي النّبيُّ ـ ﷺ ـ من قومه وعفوه

أخرج الشّيخان عن عُروة بن الزّبير أنّ عائشة ـ زوج النَّبيِّ ـ ﷺ ـ قالتْ لرسول الله ـ ﷺ ـ : " يا رسول الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد، فقال : لقدْ لقيتُ من قومِك، وكان أشدّ ما لقيْتُ منهم يوم العقَبَة، إذ عَرَضْتُ نفسي على ابن عَبْد يَالِيلَ بن عبْد كلال، فلم يُجِبْني إلى ما أردتُ، فانْطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أسْتَفقْ إلاّ بقَرْن الثّعالب[2]، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قدْ أظلّتني، فَنَظرتُ، فإذا فيها جبْريلُ فناداني، فقال : إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قدْ سمِعَ قوْل قوْمك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم، قال : فناداني مَلكُ الجبال وسلّم عليّ، ثمّ قال : يا محمّد، إنّ الله قدْ سمع قوْل قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئتَ إنْ شئتَ أنْ أطبقَ عليهم الأخشبين[3]، فقال له رسول الله : بلْ أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم من يعبدُ الله وحده لا يشرك به شيْئاً "[4].

---

(١) " ديوان كعب بن زهير " (ص١٩).

(٢) هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد.

(٣) جبلا مكّة : أبو قبيس، والجبل الّذي يقابله.

(٤) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٦/ ج١٢/ ص١٥٤) كتاب الجهاد والسّير. والبخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص٨٣) كتاب بدء الخلق.

دعاء النَّبيِّ ﷺ على نفر من قريش آذوه في صلاته ومصيرهم

أخرج مسلم عن ابن مسعود، قال : بينما رسول الله ـ ﷺ ـ يصلّي عنْدَ البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جُلوسٌ، وقد نُحرتْ جَزُورٌ(١) بالأمس، فقال أبو جهل: أَيُّكم يقوم إلى سَلا(٢) جَزورِ بني فُلان، فيأخُذُهُ فَيَضعُه في كتفَي محمَّد إذ سَجَدَ، فانْبَعَثَ أشْقى(٣) القوم، فأخَذه فلمّا سجد النّبيّ ـ ﷺ ـ وضعه بين كتفيه، قال : فاسْتَضحكوا وجَعَلَ بعْضُهم يميلُ على بعضٍ(٤)، وأنا قائم أنْظرُ لو كانت لي منَعةٌ طرَحْتُه عن ظهر رسول الله ـ ﷺ ـ والنَّبيُّ ـ ﷺ ـ ساجد ما يرفعُ رَأسَه، حتّى انْطلق إنسانٌ فأخبر فاطمة(٥)، فجاءت ـ وهي جُوَيْرِيَةٌ(٦) ـ فَطرَحتْه عنه، ثمّ أقبلت عليهم تشْتِمُهُم(٧)، فلمّا قضى النَّبيُّ ـ ﷺ ـ صلاتَه رفع صوْتَه، ثمّ دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثمَّ قال :

اللهمَّ عليك بقريش(٨) ثلاث مرّات، فلمّا سمعوا صوْتَه ذهبَ عنْهُمُ الضّحك، وخافوا دعْوَتَه(٩)، ثمّ قال : اللهمَّ عليك بأبي جهل بن هشام(١٠)، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأميّة بن خلف، وعقبة بن أبي معيط ـ وذكر السّابع ولم أحْفظه ـ فوالّذي بعث محمّداً بالحقّ لقد رأيتُهم صرْعى يوم بدر، ثمّ سُحبوا إلى القليب قليب بدر "(١١).

---

(١) الجزور من الإبل ما يُجْزرُ أي يُقْطع.

(٢) السّلى : الجلدة الرقيقة الّتي يكون فيها الولد من المواشي، وهي تقابل المشيمة عند الآدميّات.

(٣) هو عقبة بن أبي معيط كما صُرّح به في رواية ثانية، وسُمِّي أشقاهم لتفرّده بالمباشرة.

(٤) من كثرة الضّحك.

(٥) هي فاطمة الزّهراء ـ رضي الله عنها ـ بنت رسول الله ـ ﷺ ـ.

(٦) الجُوَيْرِيَة : البنت الصَّغيرة.

(٧) سكوتهم عن شتمها لهم يدلّ على قوّة نفسها وشدّة شكيمتها.

(٨) من باب العام الّذي أريد به الخاص، فالمراد الدّعاء على من سمّى منهم.

(٩) خوفهم من دعائه ـ ﷺ ـ فيه دلالة على معرفتهم بصدقه ـ ﷺ ـ، ولكن منعهم أن يؤمنوا الاستكبار والحسد والتّقليد...

(١٠) هذا من ذكر الخاصّ بعدَ العامّ ؛ فبعد أن عمّ بدعوته كفّار قريش خصّ منهم هؤلاء النّفر.

(١١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٦/ ج١٢/ ص١٥١) كتاب الجهاد والسّير. البخاري =

وقد يسأل سائل: كيف دعا عليهم النَّبيُّ ـ ﷺ ـ وقد أُمِرَ بالصَّـبر على الأذى، ثمّ إنّه قد آذاه غيرهم بأكثر من هذا فصبر، وحلمه ـ ﷺ ـ عمّن آذاه قد ذاع واشتهر ؟!

والجواب، أنّ الحديث يؤخذ منه حلمه ـ ﷺ ـ عمّن آذاه، فلم يَدْعُ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ قبل ذلك على أحد منهم، وإنّما صبر وغفر. والظّاهر أنّ هؤلاء النّفر كانوا ممّن لم تُرجَ إجابتهم وقبولهم للإسلام وتوبتهم ممّا هم عليه، فقد يكون النَّبيُّ ـ ﷺ ـ قد اطّلع على أنّهم لا يؤمنون، وقد آذوه واستهزؤوا به حال صلاته وسجوده بين يدي ربّه، فاستحقّوا دعاءه عليهم، ولم يزد على ذلك ـ ﷺ ـ.

= (م٢/ ج٣/ ص٢٣٤) كتاب الجهاد والسّير.

القسم الثالث
المبحث الأول

شبهات المرجفين : دوافعها ودفعها

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ ... ⁽٧⁾﴾ [آل عمران]

لِمَ يؤذون النّبيّ ﷺ ؟!

قد يسأل سائل: لـمَ يؤذون النَّبيَّ ﷺ ؟! ولماذا هذه الشُّبهات حول الإسلام واتِّساعها في هذا العصر؟!

والجواب جليّ وواضح ، فهم يؤذون النَّبيَّ ﷺ كرهاً لهذا الدّين القويم ، ولهم في ذلك سلفٌ : ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ⁽٤⁾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ⁽٥⁾﴾ [ص].

فهم ينقمون لأنّهم دعوا مع الله شركاء ، قال تعالى : ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ ... ⁽٥٩⁾﴾ [المائدة] .

كذلك هم يحسدوننا على هذا الدّين الحقّ ، ولهم في ذلك سلف وخلف ، قـال تعـالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ ... ⁽١٠٩⁾﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ ... ⁽٨٩⁾﴾ [النّساء] .

أمّا أهل الشّهوات فينقمون لأنّ هذا الدّين يحول بينهم وبين ما يشتهون ، فالقرآن يقول : ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ⁽٣٢⁾﴾ [الإسراء] ويقول : ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ...﴿٣١﴾ ﴾ [النّور].

ويقـول : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف] ويقول : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ... ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة] ويقول : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة] ويقول : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ... ﴿١١٠﴾ ﴾ [البقرة] .

فضلاً عن أنّهم يريدون أن يكون النّاسُ كلُّهم مثلهم في ميلهم إلى الباطل ، قال تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النّساء] .

وبالجملة فإنّ منشأ هذا الأذى ينبعُ من كرههم للحقّ الّذي جاء به ﷺ ، وقد قال ورقة للنّبيِّ ﷺ يوماً : " لم يأْتِ رجل بما جئت به إلا أوذي "(١) .

أمّا سبب إثارة الشُّبهات وتفشّيها في هذا العصر ، فذلك لسرعة انتشار الإسلام شرقاً وغرباً ، وعَجْز أعداء الإسلام عن منعه من فتح القلوب والعقول ...

وسنعرض في هذا القسم أبرز الشّبهات السّقيمة والدّعاوى العليلة الّتي يحتجّون بها ، وسنردّ عليها بإجمال وإيجاز ، فلعلمائنا الأوائل في هذا الميدان عطاء ثَرٌّ يستحق أن يُطْلَب من مظانّه .

وأنا والله ، لا أدافع عن الإسلام ؛ إذ ليس للإسلام سَوْءَةٌ أدافع عنها ! ولكنّ الله شرع لنا الرّد على الشّبهات ، فالقرآن الكريم لم يُخْفِ هذه الشّبهات ، وإنّما حدّثنا عنها وكذّبها، يقول تعالى مخبراً عن قِيْل بعض المشركين : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ...﴿١٠٣﴾ ﴾ [النّحل] فردّ الله

(١) البخاري "صحيح البخاري " (م٣/ ج٦/ ص ٨٨) كتاب تفسير القرآن .

عليهم : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النّحل] والشّواهد كثيرة وتقدّمت الإشارة إلى بعض منها، فقد أخبر القرآن عن قولهم عنه ﷺ أنّه كاهن ، ساحر ، شاعر ... وكيف ردّ الله عليهم .

دعوى انتشار الإسلام بالسّيف

ما انفكّ أقوام عن إثارة الشّبهات حول الإسلام ، ليَسْتعْدُوا أعداءَ الله على دين الله : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصّف] ، ومن هذه الشّبهات دعوى انتشار الإسلام بالسّيف .

ومن تدبّر القرآن الكريم علم أنّ الله تعالى قد أمر بالقتال لأغراض ، منها : **القتال لدفع الظّلم** ، قال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أي للمؤمنين أن يُقَاتِلوا ، وهذه أول آية نزلت في الجهاد ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ أي بسبب أنّهم ﴿ظُلِمُواْ﴾ لظلم الكافرين لهم والّذي دام قرابة ثلاثة عشر عاماً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ وهم ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ...﴿٤٠﴾﴾ [الحج] .

فهاتان الآيتان نزلتا بعد أن مكث النّبيُّ ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ في مكّة ثلاث عشرة سنة ممنوعين من القتال مأمورين بالصّبر على أذى الكفّار ، حتّى أذن لهم بالقتال بعد الهجرة لدفع الظّلم ، قال تعالى : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴿٧٧﴾﴾ [النّساء] .

فالقرآن المكيّ خلا تماماً من الحضّ على القتال رغم الأذى الّذي لحق بالنّبيِّ ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ، فكيف يُقال: الإسلام انتشر بالسّيف ؟! هذه والله شبهة هالكة.

ومن أغراض القتال : **قتالُ مَنْ يقاتلُ المسلمين** ، قال تعالى : ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة] .

ومنها : **القتال لنصرة المستضعفين** ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [النّساء] .

ولا أعلم آية في كتاب الله تعالى تدعو المسلمين إلى قتال مَنْ خالَفَنا وإكراههم على الدّخول في ديننا ، فالنَّبيُّ ﷺ لمّا دخل المدينة وفيها يهود بني قينقاع ، ويهود بني النّضير ، ويهود بني قريظة صالحهم على ما هم عليه وهادنهم ووادعهم وأقرّهم وأمّنهم على أموالهم ، واشترط عليهم واشترط لهم .

وعمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ لمّا تسلّم مفاتيح بيت المقدس كتب لأهلها كتاب أمان ومصالحة ، عُرِفَ فيما بعد بالعهدة العمريَّة ، وضرب عليهم الجزية ، وأعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وكذلك فعل صلاح الدّين الأيّوبيّ.

ولو أراد النّبيُّ ﷺ أن يُكْرِهَ أحداً على الدّخول في الإسلام لأكره أسرى بدر مثلاً ، أو أكره كفّار قريش لمّا فتح مكّة ، ومعلوم أنّه عفا عنهم ولم يُرِقْ دماً ؛ ولذلك جاء العرب بعد فتح مكّة من أقطار الأرض ودخلوا طائعين في دين الله أفواجاً ، قال تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾ [النّصر] وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ يَدْخُلُونَ ﴾ فالفاعل هنا وهو الضمير المتّصل العائد على النّاس قد أُسْنِدَ إلى الدّخول ، أي أنّهم دخلوا طوعاً من أنفسهم ، ولم يقُل الله تعالى : يُدْخَلون بصيغة المبني للمجهول الّذي لم يُسَمَّ فاعله .

ثمّ كيف يُقال : الإسلام انتشر بالسّيف ؛ وغزوة بدر، وأحد، والخندق ـ كبرى الغزوات في الإسلام ـ كلّها حدثت في المدينة المنورة ؟! أليس هذا دليل على أنَّ المسلمين لم يخرجوا لقتال أحد وإنّما كانوا يدافعون عن أنفسهم !

وقد وضّح الله تبارك وتعالى أنّ الإسلام لا يكره أحداً على الدّخول فيه ، قال تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ... ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة] وقال على لسان نبيّه : ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ

﴿ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون] .

أمّا قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] فلا يُفْهَمُ منه أنّ الإسلام يبيح الرِّدَّة كما روّج البعض ؛ فهذا الأسلوب ليس أسلوب اختيار ، وإنّما هو أسلوب تهديد[1] ، فقد خرج الأمْرُ عن معناه الأصليِّ للدلالة على معنى الوعيد والتّهديد ، فالله تعالى جاء بصيغة الأمر في مقام عدم الرّضا منه بقيام المخاطب بفعل ما أمره به تخويفاً وتحذيراً له .

وبلغ من حكمته ﷺ لّما أراد تبليغ الرّسالة وأداء الأمانة للنّاس كافّة أن بَعَثَ البْعوثَ ولم يبعث الجيوش ، فأرسل الرّسل هنا وهناك يدعوهم إلى الإسلام . أخرج مسلم عن ابن عباس أنّ معاذاً قال :

" بعثني رسول الله ﷺ قال: إنّك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنّي رسول الله ، فإن أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كلّ يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فتردّ في فقرائهم ، فإنْ هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتّقِ دعوة المظلوم ؛ فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب "[2] .

كما كتب إلى الملوك داخل وخارج جزيرة العرب كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام دون أن يستلّ سيفاً ، فكتب إلى هرقل ملك الرّوم ، وكسرى ملك الفرس ، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس حاكم مصر ، لكنّ حياة النّبيِّ ﷺ لم تطل بعد ذلك ، فأصبح من واجب

---

(١) وله شواهد في الكتاب والسّنّة ، منها قوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصّلت] وقوله ﷺ : " إذا لم تستح فافعل ما شئت " البخاري "صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٥٢) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م ١/ ج١/ ص١٩٦) كتاب الإيمان . والبخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص١٦٤) كتاب التّوحيد .

الخلفاء تبليغ الرّسالة وليس فرضها على النّاس .

لكنّ هؤلاء الأقوام أوصدوا الأبواب دونهم ، وصَدُّوهم عن أداء الأمانة ، وتبليغ الرّسالة كما فعل المشركون أوّل الأمر؛ فجاءت الفتوحات الإسلاميّة لدفع هؤلاء الّذين وقفوا في وجه الإسلام عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال] .

وهذه الآية الكريمة نزلت بأبي سفيان وأصحابه وقد سبقتها آيتان تتحدثان عن صدّ المشركين النّاس عن الدّخول في دين الإسلام ، قال تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ... ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ ...﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال] ثمّ جاءت الآية الكريمة والأمر بقتال هؤلاء الذين وقفوا في وجه الدّعوة .

وقد يُحْمَل معنى الأمر في قوله تعالى ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ...﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال] أنّ هذا الأمر جاء لمّا كان الإسلام قليلاً ، ففي الصّحيح عن نافع أنّ رجلاً أتى ابن عمر ، فقال :

" يا أبا عبد الرّحمن ، ما حملك على أن تحجّ عاماً وتعتمرَ عاماً وتتركَ الجهادَ في سبيل الله ـ عزّ وجلّ ـ وقد علمتَ ما رغّبَ اللهُ فيه ؟! قال : يا ابن أخي ، بُنِيَ الإسلامُ على خمس[1] : إيمانٍ بالله ورسوله ، والصّلوات الخمس ، وصيام رمضان ، وأداء الزّكاة ، وحجّ البيت . قال: يا أبا عبد الرّحمن، ألا تسمعُ ما ذكر الله في كتابه : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ ...﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال] قال : فعلْنا على عهد

(١) أراد أنّ الإسلام لم يبن على القتال .

رسول الله وكان الإسلام قليلاً ، فكان الرّجل يُفْتنُ في دينه ، إمّا قتلوه ، وإمّا يُعذّبوه حتّى كثُرَ الإسلام فلم تكنْ فتنةٌ "[١] .

وقد مكّن الله للمسلمين في الأرض لمّا علم صدق نيّاتهم : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج].

هذه هي الغاية من الفتوحات كما جاء في الآية : تبليغ الرّسالة ، وأداء الأمانة ، وإقامة الصّلاة ، وإيتاء الزّكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وليس العُلوّ في الأرض ، ولا أنّ الدّخول في دين الله واجب فرض .

أمّا من يحتجّ بحديث النَّبيِّ ﷺ : " أُمِرْتُ أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمّداً رسول الله ، ويقيموا الصّلاة ، ويؤتوا الزّكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقّ الإسلام ، وحسابهم على الله "[٢] .

فالمراد بالنَّاس في قوله ﷺ : " أمرت أن أقاتل النَّاس " أي المشركين ؛ فهو من باب العام الذي أريد به الخاص ، فهو خاص بكفَّار قريش من غير أهل الكتاب ؛ ويؤيد هذا رواية النسائي بلفظ : " أُمِرْتُ أن أقاتل المشركين" فقد أخرج النّسائي بسند صحيح عن أنس بن مالك ، عن النَّبيِّ ﷺ قال : " أُمِرْتُ أن أقاتل المشركين حتّى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله ... "[٣] .

ثمّ إنّ النَّبيَّ ﷺ قال : " أُمِرتُ " ولم يقل : أمرْتُكم ، أو أمرَكُم اللهُ! فإذا قال قائل : الحديث يحتمل غير هذا المعنى ؟ قلنا : نعم، الحديث يحتمل غير هذا المعنى، ولكن هذا معنى

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٥/ ص١٥٦) كتاب تفسير القرآن .

(٢) البخاري عن ابن عمر "صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص ١١) كتاب الإيمان .

(٣) النّسائي " سنن النسائي " (ج٧/ ص٧٥) كتاب تحريم الدّم ، وهو في " صحيح سنن النسائي " للألباني (ج٣/ ص٨٣٤/ رقم٣٧٠١) .

معتبر ، فالأصل أنّ دم الآدميّ معصوم لا يُقْتل إلاّ بالحقّ ، وليس القتلُ للكفر من الأمور الّتي اتّفقت عليها الشّرائع .

ونحن إذ نقول هذا الكلام لا نقوله لنسخ الجهاد ، فنحن ندين بأن الجهاد فريضة ، وأوجبه الله بقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة] وآية القتال محكمة لا نسخ فيها ، قال تعالى فيمن سقمت سريرتهم : ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ... ﴿٢٠﴾ ﴾ [محمّد] ولكن الجهاد له أحكامه ، وأغراضه ، وضوابطه ، وأصوله المبيّنة في الشّرع .

أمّا قوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة] فإنّ الآية الكريمة تتحدَّثُ عن الجزية[1] الّتي فرضها الله تعالى على الذّميين وهي تقابل فرض الزّكاة على المسلمين ، وعلى ذلك فالآية أصْلٌ في مشروعيّة الجزية ، وتأمر المسلمين بمقاتلة مَنْ ينقضُ عهد الذّمة بالامتناع عن الجزيّة ، لا بمقاتلة النّاس لإكراههم على الدّخول في دين الله .

وقد يعترض علينا معترض فيقول : ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ قاتل الرُّوم في مؤتة ؟! فعلى أيّ شيء قاتلهم ؟

والجواب أنّ النَّبيَّ ﷺ لم يقاتلهم ليحملهم على الدُّخول في الإسلام ، وإنّما قاتلهم لأنّهم قَتَلوا رسوله ، فقد كان ﷺ قد بعث الصَّحابيّ الجليل الحارث بن عمير الأزدي اللهبي بكتابه

---

(١) الجزية : مبلغ من المال يؤخذ ممَّن دخل في ذمّة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب نظير حمايتهم في البلاد الإسلاميّة التي يقيمون فيها، أو في أماكنهم المستقلّين فيها بعيداً عن المسلمين ، إذا رغبوا الدخول في ذمّتهم .

إلى عظيم بصرى ، فلمّا نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه ، ثمَّ قدَّمه ، فضرب عنقه ...

ولو سلّمنا أنّ الإسلام انتشر في عهد النَّبيِّ ﷺ بالسّيف ـ والأمر ليس كذلك ـ فلماذا ينتشر الآن في أصقاع الأرض دون سيف ؟! ولكن الحقيقة كما قال الله تعالى : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴿٣٠﴾﴾ [الرّوم] .

فالله خلق الإنسان قابلاً للإقرار بالله ومعرفته والإيمان به وتوحيده ، قال تعالى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ... ﴿٣٠﴾﴾ [الرّوم] واللَّفظ ظاهِرُه النّفي والمراد النّهي ، أي لا تبدّلوا خلْقَ الله ، فالآية وإن كانت خبريّة لفظاً ، فهي إنشائيّة معنى ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة] والمعنى : انتهوا . ثمّ قال الله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرّوم] .

ثمَّ إنَّ الإسلام لا يعتدُّ بإيمان من آمن كرهاً ولم يؤمن طوعاً ، يقول تعالى مخبراً عن قيل فرعون حين أشفى على الهلاك وأيقن بالموت غرقاً : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس] فلم يقبل الله تعالى إيمانه ، وقال : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس] .

فمثل هذا الإيمان لا يقبله الله تعالى ، ولذلك أخبر الله تعالى عن قومٍ مكذّبين آمنوا بعد نزول العذاب : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر] فلم يعتبر الله إيمانهم ، وقال : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ... ﴿٨٥﴾﴾ [غافر] .

دعوى النّهي عن كتابة الحديث ، وأن لا كتاب مع كتاب الله !

قال رسول الله ﷺ : " لا تكتبوا عنّي ومن كتب عنّي غير القرآن فَلْيَمْحُهُ وحدِّثوا

عنّي ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النّار "[١] .

هذا من أشهر الأحاديث الّتي يعتلُّ بها أقوام في ردِّهم للحديث الشّريف ، فالنَّبيُّ ﷺ ينهى أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ عن كتابة الحديث ، ويأمرهم بمحو ما كتبوه خشية أن يختلط بالقرآن . ونحن نعلم أنّ هذا الحديث صحيح وصريح ، ولكن الّذين ذهبوا إلى أنّ ما كان عليه السّلف من عدم الكتابة أسلم ، وأنّ ما هم عليه من عدم قبولهم للحديث أحكم ؛ بنصّ حديث رسول الله ﷺ ، فهذا تأويلٌ غير سائغ ، وقولٌ جمعَ به قائلُه بين الجهل بحديث النَّبيِّ ﷺ وبطريقة السّلف ، والدّعوى بطريق الخلف .

وأحاديث النّهي عن الكتابة منسوخة ، فهناك أحاديث صريحة بجواز كتابة العلم غير القرآن ، منها ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة : " ... فقام رجلٌ من أهل اليمن يُقال له : أبو شاه ، فقال : اكْتُبْ لي يا رسولَ الله ، فقال رسول الله ﷺ : اكتبوا لأبي شاهٍ ، ثمّ قام رجل من قريش ، فقال : يا رسول الله ، إلا الإذخِر[٢] ، فإنّما نجعله في بيوتنا وقبورنا ، فقال رسول الله ﷺ : إلاّ الإذْخِر "[٣] .

ومثله حديث عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال : " والله ما عندنا من كتاب يُقرأ إلاّ كتابُ الله وما في هذه الصّحيفة ... "[٤] .

ومثله ما أخرجه البخاري عن وهب بن منبّه عن أخيه ، قال : سمعت أبا هريرة يقول: " ما من أصحاب النَّبيِّ ﷺ أحدٌ أكثر حديثاً عنه منّي إلاّ ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنّه

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٩/ ج١٨/ ص١٢٩) كتاب الزّهد .
(٢) الإذخِر : حشيش معْروف طيّب الرّائحة .
(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٣٨) كتاب الدّيات . ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٥/ ج٩/ ص١٢٩) كتاب الحجّ .
(٤) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص ١٤٤) كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة .

كان يكتب ولا أكتب "[1] .

ومثله ما رواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو ، قال : " قالت لي قريش : تكتب عن رسول الله ﷺ ، وإنّما هو بشر يغضب كما يغضب البشر ؟! فأتيت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، إنّ قريشاً قالوا : كذا . فقال :

والذي نفسي بيده ـ وأومى إلى شفتيه ـ ما يخرج ممّا بينهما إلّا حقّ ؛ فاكتب "[2] .

وقد ثبت أنّ النَّبيَّ ﷺ كتب إلى أهل الكتاب يعلّمهم الكتاب ، ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أنّ عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ أخبره : " أنّ رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر ، وقال : فإن تولَّيتَ فإنّ عليك إثم الأريسيّين "[3].

فالنّهي عن كتابة غير القرآن كان أوّل الأمر قبل اشتهار القرآن خَشْيَة اختلاطه واشتباهه ، فلمّا اشتهر القرآن وأمنت تلك المفسدة ، وزالت علّة الكراهة أذن الرّسول ﷺ في الكتابة .

ولا ريب أنّ الكتاب قيد العلم ، ومن لا كتابَ له يُخشى عليه الزّلل ، فقد صحّت الرّواية عن أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال : " قيّدوا العلم بالكتاب"[4] فالعلم صيد والكتابة قيده .

وكيف يعيبون علينا الكتاب ، وقد قال الله تعالى : ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ...(٥٢)﴾ [طه].

ثمّ كيف يتأوّل القرآنَ ويتدبّره من كان جاهلاً بالسّنّة المبيِّنة للقرآن ، الموضِّحة للحلال

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص٣٦) كتاب العلم .

(٢) الحاكم " المستدرك " (ج١/ ص١٠٤) كتاب العلم ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد . أصْلٌ في نَسْخ الحديث عن رسول الله ﷺ ولم يخرّجاه في الحديث .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص٢٣٤) كتاب الجهاد والسّير .

(٤) الحاكم " المستدرك " (ج١/ ص١٠٦) كتاب العلم .

والحرام ؟! فالقرآن حمّال للمعاني وله ظاهر وباطن ، ولا يعرف بالعقل كما يعرف بالنّقل ، وعلم الحديث يُجلّي الآيات .

إذاً فهي دعوى يرمي أصحابها إلى تحريف الكلم عن مواضعه ، وتأويل القرآن بما تهوى العقول وتشتهي الأنفس !

وهذه الدّعوى أيضاً تحمل بين طياتها اعتراضاً على الله ورسوله ؛ فقد بين الله تعالى حاجة النّاس إلى بيان النّبيِّ ﷺ للقرآن وتوضيحه لهم ، فقال : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النّحل] .

فالنَّبيُّ ﷺ مُبيِّن ومفسِّر وموضّح لما أجمله القرآن الكريم ، فالله تعالى أمرنا في كتابه بإقامة الصّلاة ، وإيتاء الزّكاة فقال : ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ... ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة] ، وأمرنا بحجّ البيت ، فقال : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ...﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] لكنَّ القرآن لم يبين لنا عَدَدَ فرائض الصَّلاة ، وكيفيتها ، ومواقيتها ، وشروطها ، وفروضها ، وسننها ، كذلك لم يبين مقادير الزّكاة ، ولا أحكام الحجّ، وأعماله ، وإنّما بين ذلك كلّه النّبيُّ ﷺ .

ولذلك أثنى الله تعالى على نبيّه ﷺ ، فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴿٥٣﴾﴾ [الشّورى] والهداية المثبتة ـ كما هو معلوم ـ هداية الدّلالة ، والبيان ، والتّفصيل ، والتّفسير . فإذا لم نقبل هدي النّبيِّ ﷺ وبيانه، وسنّته ، وسنّة أصحابه ، نقبلُ هَدْيَ مَنْ ؟!

كذلك السّنّة جاءت مبيّنة لما هو مُشْكِلٌ في القرآن الكريم ، وجاءت مخصّصة لما ورد عاماً ، ومقيّدة لما ورد مطلقاً ، فضلاً عن أنّها أسّست أحكاماً جديدة لم ترد في كتاب الله تعالى ، وليس الكتاب موضوعاً لبحث ذلك ، وهذا كلّه مبسوط في كتب علم أصول الفقه وغيره من العلوم .

والخلاصة ، ما جاء به النَّبيُّ ﷺ قرآناً كان أو حديثاً وحيٌ من الله تعالى ، ومَنْ رَدَّ حديث رسول الله ﷺ بعد أن ثبتت صحّته فقد أوقع نفسه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [النّساء] .

فمن سمع مخلوقاً يردّ سنّة النَّبيِّ ﷺ ويشكّك فيها ، أو يستهزئ بها ، بعد أن أمرنا الله بالأخذ بها ، فلا يقعد معه ، قال تعالى : ﴿ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النّساء] .

فإن قال قائلهم : لكنّ السّنّة لم تُحْفظ كما حُفِظ القرآن ؟

فالجواب ، أنّها دعوى باطلة ، فطالما أنّ القرآن محفوظ فالسُّنَّة محفوظة بالتّبعيّة ، لأنّ مِنْ حِفْظِ الله للقرآن حِفْظَ سنّة سيّد الأنام ، فحفظ القرآن يقتضي حفظ السّنّة فهما مصدرا التّشريع . وهؤلاء إنّما يريدون أن يَبْخسوا جهودَ عُلمائنا ، وما دوّنوا من كتب في أصول الحديث : علومه ومصطلحه ، تلك العلوم الّتي أرسى قواعدها الصّحابة ، وتابعهم التّابعون وأتباعهم فنقلوها من الصّدور إلى السّطور ، وتشمل هذه العلوم : تَحمُّلَ الحديث وأداءه ، وعلمَ تاريخ الرّواة ، وعلم الجرح والتّعديل ، وعلم غريب الحديث ، وعلم مختلف الحديث ومشكله ، وعلم ناسخ الحديث ومنسوخه ، وعلم علل الحديث ...

أمّا مَنْ يحتجُّ بقوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء] وقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النّحل] ويدّعي أنّ الأخذ بالقرآن وحده يغني ؛ فالقرآن كامل وما فرّط الله فيه من شيء ! ويتوهّم أنّ ما لم يأت

به القرآن ليس ديناً ! فإذا كان ذلك كذلك ؛ فلماذا لا يأخذ بقوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ ﴾ [الحشر] فهو في الحقيقة يخالف القرآن مُخالفتَهُ للسُّـنَّة !

ولذلك يقول النَّبيُّ ﷺ : " لا أُلفينّ أحدَكم متكئـاً على أريكتـه[1]، يأتيه أمرٌ ممّا أمَرتُ به ، أو نهيتُ عنه ، فيقول : لا أدري ؛ ما وجدنا في كتاب الله اتّبعناه "[2] . ويقول النَّبيُّ ـ ﷺ ـ : "ألا إني أُوتيتُ الكتاب ومثله معه، ألا إنّي أُوتيتُ القرآن ومثله معه، ألا يوشِكُ رجل يَنْثَني شبعاناً على أريكته، يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحِلُّوه، وما وجدتم فيه من حرامٍ فحرِّموه..."[3] ويقول النَّبيُّ ﷺ أيضاً : " فمن رغب عن سنّتي فليس منّي "[4] أي من أعرض عن طريقتي وهي الحنيفيّة السّمحة غير معتقد لها ، وأخذ بطريقة غيري فليس منّي .

وليس في الحياة شيء تنازع النّاس فيه إلاّ وفي الكتاب والسُّنَّة هَدْيٌ له ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمه ، وجَهِله من جَهِله ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩ ﴾[النّساء] والرَّدُّ إلى الله هو النّظر في كتابه ، والرَّدُّ إلى الرّسول هو سؤاله في حياته، والنّظر في سنّته بعد وفاته.

والله تعالى يقول : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ۝٢١ ﴾ [الأحزاب].

ونحن نسأل : كيف يكون لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة إذا لم نتّبع سُنَّته ؟!

---

(١) كناية عن الكسل وقلّة المبالاة .

(٢) الترمذي " الجامع الكبير " (م ٤/ ص٣٩٨/ رقم٢٦٦٣) أبواب العلم ، وقال : هذا حديث حسن .

(٣) أخرجه أحمد بسند صحيح عن المقدام "المسند" (ج١٣/ ص ٢٩١/ رقم ١٧١٠٨).

(٤) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي "(م٥/ ج٩/ ص١٧٦) كتاب النّكاح ، والبخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٦/ ص١١٦) كتاب النّكاح .

بل نحن مأمورون باتّباع الرّسول والصّحابة أيضاً ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النّساء] فالله تعالى لمّا توعّد من يخالف الرّسول ﷺ لم يقتصر وإنّما عطف عليه الصّحابة ، وتوعّد من يخالف سبيلهم ؛ فهم على هدى من ربّهم ، قال تعالى في حقّهم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ... ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام] .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ... ﴿٨٣﴾ ﴾ [النّساء] وأولو الأمر في الآية ذوو الرأي من كبار الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ .

ولذلك يقول النَّبيُّ ﷺ : " ... فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين عضّوا عليها بالنّواجذ "(١) .

وإذا كان القرآن كالشّمس في ضحاها ، فإنَّ سُنَّة النَّبيِّ ﷺ كالقمر إذا تلاها ، وسنّة أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ كالنّهار إذا جلاّها ! وذلك أنّ الصّحابة رأوا النَّبيَّ ﷺ وسمعوا منه ، وليس من رأى وسمع كمن لم ير ولم يسمع ، فللصّحابة من الفهم عن رسول الله ﷺ ما ليس لأحدٍ ممّن جاء بعدهم ، ولهم من العلم مكانة لا يستطيع أحد من الخلف مساواتهم فيها وهذا يوجب علينا الرّجوع إليهم قبل غيرهم في بيان القرآن والسّنّة .

ومن هنا نفهمُ قوله ﷺ في تعيين الفرقة النّاجية " ما أنا عليه وأصحابي "(٢) ذلك أنّ الصّحابة كانوا على ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ من الهدى ، فلم يكن للصّحابة من كتاب يتفقّهون به غير القرآن ، ولا من كلام يتدارسونه غير كلام الله ورسوله ﷺ .

---

(١) الحاكم " المستدرك " (ج١/ ص٩٦) كتاب العلم ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح ليس له علّة .

(٢) التّرمذي " الجامع الكبير " (م٤/ ص٣٨١/ رقم ٢٦٤١) أبواب الإيمان ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسنٌ غريب مُفَسّرٌ لا نعرفه مثل هذا إلاّ من هذا الوجه .

فالصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ علّمهم أعْظَمُ معلِّم ، وقرؤوا على يديه أعظم كتاب ، وسمعوا منه أحسن الحديث . وكان ﷺ حريصاً على تعليمهم وهدايتهم كما قال تعالى : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التّوبة] بل كان حريصاً على هداية الكفّار ، قال تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ... ﴿٣٧﴾ ﴾ [النّحل] .

دعوى عدم الأخذ بالسُّنَّة لأنّ جلّها بالرأي لا بالوحي

هذه دعوى باطلة يرمي أصحابها إلى تعطيل العمل بالسُّنَّة ، ويبرّرون دعواهم بأحاديث أشهرها ما رواه مسلم عن أنس : " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلقِّحون ، فَقَالَ : لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ . قَالَ : فَخَرَجَ شِيصًا ، فَمَرَّ بِهِمْ ، فَقَالَ : مَا لِنَخْلِكُمْ ؟ قَالُوا : قلت : كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : أَنْتُمْ أَعْلمُ بأَمْرِ دُنْيَاكُمْ "(١) .

والجواب عن هذه المسألة يسير ؛ فنصوص القرآن تشهد على حُجِّيَّة السُّنَّة ، ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ ... ﴿٨٠﴾ ﴾ [النّساء] وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر] وهذه النّصوص وغيرها تدلّ دلالة قطعية على حُجِّيَّة السُّنَّة .

والسّنّة عندنا بمرتبة القرآن من حيث أنّها وحي ، أمّا إذا كانت باجتهاد منه ﷺ فإنَّ الله لا يُقِرُّه على اجتهاد خطأ ، فيأتيه الوحي بالإقرار أو بالتّصحيح ، وعلى ذلك فالسّنّة مردّها إلى الوحي .

وقد تقدّم قول النَّبيِّ ﷺ : " والذي نفسي بيده ما يخرج ممّا بينهما إلاّ حقّ "(٢) وما دام

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٥/ ص١١٨) كتاب الفضائل .

(٢) الحاكم " المستدرك " (ج١/ ص١٠٤) كتاب العلم .

أنّ النّبيَّ ﷺ لا يخرج من فمه إلاّ الحقّ ، فهذا دليل على أنّه معصوم ، وما خرج من فمه من القرآن فهو وحي متلوّ ، وما خرج من فمه سوى ذلك فهو وحي مَرْويٌّ . وقد دلّت الآيات أيضاً على أنّ السّنّة وحي ، قال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ... ﴿١١٣﴾﴾ [النّساء] والحكمة يحمل معناها على السّنّة المبيّنة لأحكام الله تعالى .

والّذين يبغضون سنّة النّبيِّ ﷺ الدّالّة على عوارهم لهم نصيب من قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر] والّذين يُعرِضون عنها لهم نصيب من قوله تعالى : ﴿وإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إلى الكتاب والسّنّة ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النّور] وليعلم هؤلاء أنّهم قد خانوا الله بتعطيل أمره ، وخانوا الرّسول بتعطيل سنّته ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال] .

بل كان الواجب عليهم أن يصغوا إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النّور] وأن يسمعوا قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أي طاعة معروفة للنّبيِّ ﷺ خير من قَسَمِكُم الّذي لا تصدقون به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النّور] .

وعلى هذا يخطئ مَنْ يظنّ أنّ السّنّة ليست وحياً كلّها ، وأنّه غير ملزم بها ؛ فإجماع المسلمين على أنَّ كلّ ما ورد عن النّبيِّ ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وكان المقصود به التّشريع والاقتداء ، ونُقِل إلينا بسند صحيح ؛ فهو حجّة على كلّ من يقول لا إله إلاّ الله وأنّ

محمّداً رسول الله !

أمّا الحديث الّذي رواه مسلم ، فالنَّبيُّ ﷺ يتحدّث عن أمر مباح من أمور الدّنيا ومعايشها وهو أبار (تلقيح) النّخل ، وهو نصّ على وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معايش الدّنيا على سبيل الرأي . أمّا ما قاله ﷺ باجتهاده ، ودلّ دليل على أنّ المقصود من فعله الاقتداء به كان تشريعاً يجبُ الأخذ به .

وهناك منْ يحمل على الإمام مسلم ، وينكر هذا الحديثَ الصّحيح الّذي رواه ، ويقول: إنّ تلقيح النّخل لا يجهله النَّبيُّ ﷺ ...

وغرضه من ذلك التّعريض بالشّيخين ، والنّيل من أصحّ الكتب بعد كتاب الله تعالى !

هذا ، وخير من تلقّى السّنّة عن النَّبيِّ ﷺ أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ واجباً كان أو مندوباً ، قال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ : " حدّثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيتُ أحدَهُما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدّثنا : أنّ الأمانة نزلت في جذور قُـلُوب الرّجال ، ثمّ عَلِموا من القرآن ، ثمّ علموا من السّنّة ... "(١) .

مثل الّذين حمّلوا هدي النَّبيِّ ﷺ ثمّ لم يحملوه كمثل قيعان !

ضَرَبَ النّبيُّ ﷺ لما بُعِثَ به من الهدى والعلم مثلاً بالغيث أصاب أرضاً في حال حاجتها ، وكذا كان حال النّاس قبل مبعثه ، وأنّ هذه الأرض ثلاثة أنواع ، وكذلك النّاس ، قال ﷺ :

" إنّ مَثَلَ ما بعثني الله ـ عزّ وجلّ ـ من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها : طائفةٌ طيّبةٌ قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ؛ فنفع الله بها النّاس ، فشربوا منها ، ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى ، إنّما هي قيعان ، لا تمسك ماءً ، ولا تُنْبتُ كلأً ، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دين الله، ونَفَعَهُ بما بعثني الله

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٩٣) كتاب الفتن .

به فعَلِمَ وعلّمَ ، ومثل من لم يرفعْ بذلك رأساً ، ولم يقبلْ هُدى الله الّذي أرسلت به "[1] .

فَمنَ النَّاس من انتفع بهدي النَّبيِّ ﷺ فَعَلِمَ وعَمِلَ وعلّمَ ، فهو بمنزلة الأرض الطّيّبة الّتي قبلت الماء فانتفعت به ، وأنبتت فنفعت غيرها .

ومنهم من جمع هديه ﷺ لكنّه لم ينتفع به لنفسه ، وإنّما أدّاه لغيره ، فهو بمنزلة الأرض الّتي يستقرّ فيها الماء ولا تنتفع به ، وإنّما ينتفع النّاس به .

ومنهم من سمع بهديه ﷺ لكنّه لم يحفظه ، ولم يعمل به ، ولم ينقله لغيره ، فمثله كمثل أرض أصابها غيث ، لكنها قيعان صمّاء لا تمسك ماء ولا تنبتُ كلأ ، وهذه الطّائفة مذمومة .

دعوى أنّ الأنبياء ارتكبوا ما يخالف عصمتهم !

حفظ الله تعالى رُسُلَه من مخالفة أوامره ، كما حفظهم من الوقوع في نواهيه ، ولذلك أمر بالاقتداء بهم ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴿٦﴾ ﴾ [الممتحنة] وقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ... ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام] .

ولذلك فإنَّ أمرَ الله تعالى باتِّباع رسله في اعتقاداتهم ، وأفعالهم ، وأقوالهم ، وأخلاقهم، يُثْبتُ أنّهم منزَّهون عن السيِّئات ، معصومون من الصغائر كعصمتهم من الكبائر ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ ... ﴿١٦١﴾ ﴾ [آل عمران] ، ويستوجب أنهم لا يتَّصفون إلا بالأخلاق العظيمة التي تجعل منهم أسوة حسنة ، وقدوة طيبة .

فالله تعالى هو الذي علّمهم فأحسن تعليمهم ، وأدّبهم فأحسن تأديبهم ؛ وجعلهم مثلاً أعلى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء] نعم كانوا أئمة في التقوى يأتمّون بمن

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص٤٦) كتاب الفضائل . والبخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص٢٨) كتاب العلم .

كان قبلهم ، ويأتمّ بهم من بعدهم . كما شهد الله تعالى لخاتم النَّبيِّين بالعصمة ، فقال : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] .

وقد ورد في كتاب الله ما يوهم ظاهره بأن للأنبياء ذنوباً وأخطاء تتنافى مع عصمتهم ، وعُذْرُ مَنْ توهّم ذلك أَخْذُه بظاهر القرآن .

ومن أمثلة ما ورد ، قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه] فظاهر الآية الكريمة أنّ آدم ـ عليه السّلام ـ عصى الله وغوى ، وظاهر الآية غير مراد.

فمعصية آدم ـ عليه السّلام ـ التي أشار إليها القرآن كانت نسياناً ، فقد نسيَ عَهْدَ الله، فأكل من الشجرة ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] فعُذْرُ آدم النّسيان وعدم العزم ، والله تعالى لا يؤاخذ على الخطأ والنسيان وإنّما على ما تعمّدت القلوب، ويشهد لذلك قول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ...﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ... ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب] وإنما اعتبر الله ـ تبارك وتعالى ـ نسيان آدم ـ عليه السّلام ـ عصياناً بالنَّظر لمقام آدم الرفيع المحمود ، فحسنات الأبرار سيئات المقربين كما يقولون .

وزيادة على ذلك فهذا النِّسيان وقع منه قبل النُّبوَّة ؛ فالله تعالى ذكر أنّ الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه] .

ثمّ انظر إلى قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ فتوبة الله تعالى على عبده تجعل ما ارتكبه له لا عليه ، فالله تعالى يقول : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ... ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة](١)، وقوله : ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ أي السّالف من ذنبه لا يكون عليه إنّما هو له ، ومن درس (علم

(١) هذه الآية نزلت في حقّ آكل الرّبا ، وهي من جوامع الكلم ، والمعنى أنّ خطاياه الماضية غفرت له وتاب عليه .

المعاني) لا يخفى عليه هذا المعنى الدّقيق ، فالآية الكريمة كأنّ ألفاظَها قَوالبٌ لمعانيها ، وهو ما يعرف في علم المعاني بالمساواة .

وهناك من يتوهّم أنّ آدم ـ عليه السّلام ـ غير معصوم بدليل أنّ الله تعالى نسب الشّرك إليه وإلى حواء على السّواء في قوله تعالى : ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الأعراف] .

ولو أنّ هذا المتوهّم درس علوم القرآن لانحلَّ عنده هذا الإشكال ، وانْجَلتْ له هذه المعضلة ؛ فهذا من الموصول لفظاً المفصول معنى ، قال تعالى في آدم وحوّاء : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الأعراف].

والنَّاظرُ في الآيتين يعرف أنّ آخر ما ورد عن خبر آدم وحواء وما آتاهما الله من ولد صالح قوله تعالى : ﴿ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ ويوضّح ذلك عودة ضمير التّثنية إليهما ، وتغيّر الضّمير إلى الجمع بعد ذلك ؛ فلم يقل الله : عمّا يشركان ! فالكلام قد يتّصل بما قبله حتّى يكون كأنّه قَوْلٌ واحدٌ وهو قولان .

ولذلك فإنّ قوله تعالى : ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الأعراف] من الموصول المفصول ، فقد جاء موصولاً في اللفظ لكنّه مفصول في المعنى ، فالآية عن أهل مكّة ، والمعنى فتعالى الله عمّا يشرك به أهل مكّة من الأصنام ، والجملة مسببة، عطفٌ على قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم ﴾ وما بينهما اعتراض .

ومن أمثلة ما ورد قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام] فظاهر الآيات يوهم بأنّ إبراهيم ـ عليه السّلام ـ عبد كوكباً حتّى غاب، وعبد القمر حتّى غاب، وعبد الشّمس حتّى غابت، وإلى هذا المعنى ذهب بعض المفسّرين.

ومنهم من قال: " وإبراهيم تبدأ قصّته فتى ينظر في السّماء فيرى نجماً، فيظنّه إلهه، فإذا أفلَ قال: لا أحبّ الآفلين. ثمّ ينظر مرّة أخرى فيرى القمر، فيظنّه ربّه؛ ولكنّه يأفل كذلك، فيتركه ويمضي. ثمّ ينظر إلى الشّمس فيعجبه كبرها، ويظنّها ـ ولا شكّ ـ إلهاً! "(١).

وهذا الكلام في حقّ إبراهيم ـ عليه السّلام ـ لا يُرْتَضى، ولعلّ عذر القائل ـ رحمه الله ـ أنّه نقل هذا المعنى عن بعض المفسِّرين الّذين أخذوا قول إبراهيم ـ عليه السّلام ـ على ظاهره، وذهبوا إلى أنّ إبراهيم إنّما قال ذلك في طفولته، وأنّه كان حيران، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ...﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام] قالوا: وهذا يدلّ على نوع من الحيرة. قلت: وهذا كلّه يؤكّد الحاجة إلى تحقيق كتب التّراث وتخليصها ممّا علق بها من الأقوال المغلوطة، والآراء المرجوحة.

ويدلك على شذوذ هذا التّفسير أنّ الله قال في حقّ إبراهيم ـ عليه السّلام ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء] فالأنبياء معصومون عن الذّنوب قبل النُّبوّة وبعدها، وقد بيّنا ذلك فيما تقدّم بما يغني عن إعادته.

وأيّ ذنب أعظم من قول إبراهيم إنْ أُخِذَ على ظاهره! والصّحيح ما عليه الجمهور من أنّ هذا القول كان في مقام المناظرة لقومه استدراجاً لهم ليقيم عليهم الحجّة، ومن باب مجاراة الخصم ليلزمه الحقّ، ويؤيّد هذا قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ... ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ... ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام].

والآيات في صدر القصّة تدلّ على أنّ إبراهيم لم يقل ذلك أيّام طفولته، وأنّه كان يوقن

(١) " سيد قطب: " التّصوير الفنّي " (ص ١٣٣).

بوحدانيّة الله ، لكنّه استدرجهم ليظْهَرَ عليهم بالحجّة ؛ فيحملهم على التَّبرُّؤ من الأصنام والأجرام ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ... ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنعام] .

أمّا قول إبراهيم ـ عليه السّلام ـ : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنعام] فإنّما قاله لغرض بلاغيّ ، وهو التّعريض بضلال قومه ، وأنّهم ليسوا على الهدى ، وليس الأمر كما قالوا من أنّه كان حيران .

ومن تدبّر الآيات التي يوهم ظاهرها أنّ الأنبياء ارتكبوا ما يخالف عصمتهم عرف الحقّ كما عرف السّواد من البياض . فمنصِبُ النُّبوَّة يجلُّ عن الوقوع في الذّنب ، وعن مخالفة الله عامداً متعمداً ، ولو جاز ذلك منهم لم يلزمنا الاقتداء بهم !

ولذلك فإنّ الله تعالى يقول لنبيّه ﷺ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف] ولا يخفى أنّ الآية الكريمة زاد معناها على لفظها، وهو ما يعرف بإيجاز القِصَر ، وهو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً ، وأصعبها على البلاغيين إمكاناً ؛ فقد جمعت الآية الكريمة تحت ألفاظها القليلة من المعاني الغزيرة ومكارم الأخلاق ما أعجز البلغاء ، فالآية جمعت مكارم الأخلاق كلّها ؛ لأنَّ في العفو صِلَةَ من قطعه ، والعفو عمّن ظلمه ، وإعطاء من منعه . وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وصلة الرّحم ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطّرف عن الحرمات والتَّبرُّؤ من كلّ قبيح ، لأنّه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو يلابس شيئاً من المنكر ، وفي الإعراض عن الجاهلين الصّبر والحلم والأناة وتنزيه النّفس عن مقابلة السّفيه بما يفسد الدّين ، وهذا كلُّه يؤكّدُ عِصْمَةَ الرَّسولِ ﷺ .

وسنقتصر الحديث على الآثار التي وردت في حقّ خاتم الأنبياء والمرسلين محمَّد ﷺ فقد أمر الله باتّباعه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ... ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران] فإذا تقررّ أنّ الله تعالى أمر بالاقتداء به ﷺ استحال أن يرتكب ما يخالف عصمته .

بل هو معصوم قبل البعثة ، وفي الحديث عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال : " سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ... فوالله ما هَمَمْتُ بعدها أبداً بسوء ممّا يعمل أهل الجاهليّة حتّى أكرمني الله تعالى بنبوّته "[1] .

قولهم : إذا لم يكن للنّبيِّ ﷺ ذنب ، فلماذا غفر الله له ؟!

أعطى الله تعالى لنبيّه محمّد ﷺ أمَاناً فعاش ﷺ آمناً مطْمَئنّ النّفس ، قال تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ﴾ [الشّرح] وهذه الآية الكريمة الّتي تبيّن مقام النّبيِّ ﷺ المحمود عند الله تعالى ، أشكل فهمها على البعض وظنّ أنّ للنّبيِّ ﷺ أوزاراً وذنوباً حطّها الله عنه .

ومن الآيات التي يوهم ظاهرها أنّ للرسول ذنوباً وأشكل فهمها عليهم واحتجّوا بها، قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ... ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح] .

وقد رأيت من يخوض في هذه الآية الكريمة ونظائرها بغير سلطان ، فتذكرت قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ... ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام] وخلاصة احتجاجهم قولهم : إذا لم يكن للنّبيِّ ﷺ ذنب ، فلماذا غفر الله تعالى له ؟ وبأيّ شيء امتنّ عليه في ذلك ؟

والجواب ، أنّ قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ... ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح] يُسْتَدَلُّ به على عصمة النّبيِّ ﷺ عن المعاصي ، أمّا من أشكل عليه فهم الآية ، وتوهّم أن الغفران يستوجب وقوع الذّنب منه ﷺ ، فالجواب أنّ غفران ما تقدّم هو العفْوُ

---

(١) الحاكم " المستدرك " (ج٤/ ص٢٤٥) كتاب التّوبة والإنابة ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وذكر نحوه النّووي في " تهذيب الأسماء واللغات " (ص٨٥) فصل في رضاعه ومرضعاته .

عنه لما كان قبل النُّبوَّة ، وغفران ما تأخّر عصمته وحمايته من الوقوع بالذّنب بعد النُّبوَّة . والآية فيها تنزيه للرسول ﷺ من الذّنوب ، وَوَعْدٌ له من الله أنّه مغفور له غير مؤاخذ بذنب لو كان ، ولا يلزم من ذلك وقوع الرسول ﷺ في ذَنْب .

وهذه الآية نزلت على النَّبيِّ ﷺ مرجعه من الحديبية ، وكانت أحَبَّ إلى قلبه من الدّنيا وما فيها ، أخرج أحمد بسند صحيح عن أنس ، قال :

" نزلت على النَّبيِّ ﷺ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ... ۝٢﴾ [الفتح] مَرْجِعهُ من الحديبية ، وأصحابه مخالطو الحزن والكآبة ، فقال : نزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدّنيا وما فيها جميعاً ، قال : فلمّا تلاها نبيّ الله ﷺ ، قال رجل من القوم : هنيئاً مريئاً قد بيّن الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ الآية الّتي بعدها ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح] "(١) .

وللآية الكريمة نظائر في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ... ۝٥٥﴾ [غافر].

قلت : وليحذر من يجادل في آيات الله بلا برهان أتاه ؛ فالله تعالى قال في الآية بعدها : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٥٦﴾ [غافر] وقال بعد الآية الثالثة من السُّورة نفسها بصيغة الحصر : ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ [غافر] .

---

(١) أحمد " المسند " (ج١١/ ص٢٣٥/ رقم١٣٥٧٣) ، والحاكم في " المستدرك " (ج٢/ ص٤٥٩) كتاب التّفسير ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ...

والآية ونظائرها، مثل قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ... ﴿١٩﴾ ﴾ [محمّد]، لها تأويل يعرفه الرّاسخون في العلم، فأَمْرُ الله لنبيّه بطلب المغفرة المراد منه تعليم الأمة ذلك؛ لحضّها على التّوبة، وطلب الاستغفار، والاستكثار منه. ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: " يا أيّها النّاس، توبوا إلى الله فإنّي أتوب في اليوم مائة مرّة "(١).

كما أنّ أَمرَ النَّبيِّ ﷺ الناس بالتَّوبة، موافق لقوله تعالى ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ... ﴿٣١﴾ ﴾ [النّور] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا ... ﴿٨﴾ ﴾ [التّحريم].

وفي صحيح الإمام مسلم حديث فيه إشارة لسبب استغفار النَّبيّ ﷺ فقد روى عن الأغرّ المُـزنيّ ـ وكان له صحبة ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: " إنّه ليُغَانُ على قلبي، وإنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرّة "(٢).

وقد بيّن العلماء سبب استغفاره ـ ﷺ، وخلاصة أقوالهم: أنّه كان يُغَان على قلبه ﷺ بمعنى يغطّى عليه، والمراد ما كان يتغشّى قلبه ﷺ من غفلات الذّكر من غير عمد، وهَمٌّ يعتريه رحمةً بأمّته لما أُطلع عليه من أحوالها بعده، فيستغفر الله افتقاراً إليه، وإعظاماً له، وإظهاراً لشكره.

واستغفاره ﷺ موافق لقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾ [النّصر] وقوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النساء] فالنَّبيُّ ﷺ مأمور بالتَّوبة، والاستغفار، والتَّسبيح، والدّعاء ...؛ لنقتديَ به، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٩/ ج٧/ ص ٢٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) المرجع السَّابق.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب] .

كذلك النَّبيُّ ﷺ يعلّمنا الاعتراف بالتّقصير ، ولو كانت صالحُ أعمالنا كالجبال ، فهذا أبو بكر الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ يأتي ذات يوم النَّبيَّ ﷺ ويطلب منه أن يعلّمه دعاء يدعو به في صلاته ، فيعلّمه النَّبيُّ ﷺ دعاء يظهر فيه الافتقار إلى الله !

أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو أنّ أبا بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ قال للنَّبيِّ ﷺ : " يا رسول الله علّمني دعاء أدعو به في صلاتي ، قال : قل : اللّهمّ إنّي ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذّنوب إلاّ أنت ، فاغفر لي من عندك مغفرة إنّك أنت الغفور الرّحيم "(١) والمسألة فيها أقوال أُخَر يضيق المقام عن ذكرها، وحسبنا ما اقتصرنا عليه منها.

ومنهم من يتعلّق بدعاء النَّبيِّ ﷺ الّذي رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري : " اللّهمّ اغفر لي خطيئتي ، وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به منّي ، اللّهمّ اغفر لي جِدّي وهزلي ، وخطئي وعمدي ، وكلّ ذلك عندي . اللّهمّ اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت ، وما أَسْرَرْتُ وما أعلنتُ ، وما أنت أعلم به منّي ، أنت المقدّمُ ، وأنت المؤخّر ، وأنت على كلّ شيء قدير "(٢) .

ويظنّ هذا المتعلّق أنّ هذا الحديث قاصمة الظّهر ؛ فالحديث صحيح ، والنّص صريح، فالنَّبيُّ ﷺ يقول : " وكلّ ذلك عندي " ؟! أي أنّه متَّصِفٌ بهذه الأشياء ، ويطلب غفرانها .

ولا يخفى أنّ النَّبيَّ ﷺ قال هذا الدُّعاء وغيره تواضعاً واستجابة لأمر الله وتعليماً لأمّته ؛ لأنّ الله تعالى أَمِر بالدّعاء ، وعدَّ الأخذَ به عبادة ، وتركَهُ استكباراً ، قال تعالى : ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص١٦٨) كتاب التّوحيد ، وأخرجه أيضاً في كتاب الدّعوات ، وكتاب الأذان . ورواه مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٩/ ج١٧/ ص٢٧) وانظر " النّكت على العمدة في الأحكام " للزركشي (ص١٢٠) باب التّشهّد .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٩/ ج١٧/ ص٤٠) كتاب التّوبة .

﴿ ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر] وكلّ من له عِلْمٌ بفضل التّهليل والتّسبيح والدّعاء يقول مثل هذا الدّعاء وأكثر منه .

وكان النَّبيُّ ﷺ يعدّ فوات الكمال في الأعمال ذنباً ، وهذا أيضاً دأب الصّالحين ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون] أي يخافون ألاّ يتقبّل الله منهم ؛ يشعرون أنّهم لم يؤدُّوا العبادة على الوجه الّذي ينبغي ، وأنّهم مقصّرون في حقّ الله ، وهذا الشّعور يحملهم على الزّيادة في الطّاعات ، والإنابة إلى الله والتّضرع إليه ، وإظهار شكره ، فالمؤمن يدين نفسه ويتّهمها ، ولا يغترّ بعبادته .

وهذه عائشة ـ رضي الله عنها ـ تذكر : " أنّ نبيّ الله ﷺ كان يقوم من اللّيل حتّى تتفطّر قدماه ، فقالت عائشة : لِمَ تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً "(١) فدلّ ذلك على أنّ غفران ما تقدّم وما تأخّر نعمة من الله ، وأن شكر الله على نعمه يكون بالعمل كفعل النَّبيِّ ﷺ ، وقد دلّ القرآن على ما دلّت عليه السّنّة ، قال تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ ... ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ] وقال بعد ذلك : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ] .

قولهم : صلاة الله وملائكته والمؤمنين على النَّبيِّ ﷺ دليل حاجة

قال الجهلاء : صلاة الله وملائكته والمؤمنين على النَّبيّ ﷺ ، وطلبه من أمّته الدّعاء له وأن يسألوا له الوسيلةَ دليلُ حاجته إلى الشَّفاعة ؟! وهذا كلّه يؤكّد وقوعه في ذنوب تنافي عصمته ؟!

والجواب ، أنّ الصَّلاة والسّلام على رسول الله ﷺ انقياد لأمر الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب] فالله تعالى هو الّذي أمرنا أنّ نصلِّي عليه ﷺ؛ توقيراً له ، وإظهاراً لشرفه ، وإعلاء

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٦/ ص٤٤) كتاب التّفسير .

لقدره ، وعرفاناً بفضله ، وتعبيراً عن محبَّتنا له ، وذلك من علامات صدق الإيمان .

وقد جاءت الآية مؤكّدة للصّلاة بمؤكّدات سبعة : إنَّ والجملة الاسميَّة ، وصلاة الله ، وصلاة ملائكته ، وصلاة الّذين آمنوا ، والإخبار ، والنِّداء ، والأمر . كما أَكَّدَتْ السَّلامَ بالمصدر ، وهذا فيه دلالة واضحة على وجوب امتثال أمر الله بالصَّلاة والسَّلام على نبيِّه محمَّد ﷺ الّذي بَلَغَ العلى بعصمته وكمال رسالته ، فلم تعد البشريَّة بحاجة إلى الرُّسل والرِّسالات من بعده !

وليس صلاتنا عليه ﷺ شفاعة له ، ومن أين لمثلنا أن يشفع لمثله ﷺ ! وإنّما المراد بالصّلاة على النّبيِّ ﷺ من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن المؤمنين دعاء .

والمؤمن إذا صلّى على نبيّه ﷺ عاد ذلك عليه بالرّحمة ، فإذا سأل لنبيّه ﷺ الوسيلة حلَّت له الشَّفاعة ، روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنّه سمع النَّبيّ ﷺ يقول : " إذا سمعتم المؤذّن ، فقولوا مثل ما يقول ، ثمَّ صلّوا عليَّ ؛ فإنَّه من صلَّى عليَّ صلاة صلَّى الله عليه بها عشراً ، ثمَّ سَلُوا الله لي الوسيلة فإنّها منزلة في الجنَّة لا تنبغي إلاّ لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت له الشَّفاعة "[1] .

فالنَّبيُّ ﷺ خير شافع ، وأوّل شافع ، وأوّل مشفّع ، وقد أغناه الله تعالى بفضله عمَّن سواه ، أخرج مسلم عن أبي هريرة ، قال : قال النَّبيُّ ﷺ : " أنا سيّدُ ولد آدم يوم القيامة ، وأوّل من ينشقُّ عنه القبرُ ، وأوّل شافع ، وأوَّل مشفّع "[2].

قولهم : هل شَكَّ النَّبيُّ ﷺ في حقيقة ما قصّ الله عليه ؟

قالوا : وهل شكَّ النّبيُّ ﷺ في حقيقة ما قصّ الله عليه في هذا الكتاب ، حتّى ينهاه الله تعالى عن أن يكون من الممترين ؟! فقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٢/ ج٤/ ص٨٥) كتاب الصّلاة .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٥/ ص٣٧) كتاب الفضائل .

﴿ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس].

والجواب أنّ النّبيّ ﷺ لم يشكّ ولم يسأل ، والخطاب وإن كان موجهاً للنّبيّ ﷺ فإنّ المراد به غيره ، وهو أسلوب معروف من أساليب الخطاب وله شواهد ، ومَنْ دَرَسَ علوم القرآن عرف ذلك .

قولهم : تَرَكَ النَّبيُّ ﷺ الأولى والأفضل فعاتبه ربُّه ـ عزّ وجلّ ـ

وخلاصة احتجاجهم أنّ النَّبيَّ ﷺ عاتبه الله تعالى على قبوله الفداء من أسرى بدر ، وعاتبه على قبوله أعذار المتخلّفين عن غزوة تبوك ، كما عاتبه على إخفاء أمر زواجه من زينب ـ رضي الله عنها ـ ، وعلى انشغاله عن ابن أمّ مكتوم الأعمى بدعوة كبار المشركين ؟!

وهذه المسائل الّتي يثيرونها للاستدلال على عدم عصمة النَّبيِّ ﷺ ليست شيئاً ؛ فما نُسِب للنَّبيِّ ﷺ من ترك الأولى والأفضل ، ليس فيه شيء من إثبات الذّنب والمعصية ، فالنَّبيُّ ﷺ معصوم من الذّنوب جميعاً قبل النُّبوَّة وبعدها على التّحقيق .

وما وقع به النَّبيُّ ﷺ عن سهو أو تأويل ، لا يتعدّى كونه أُمُورٌ هَيِّنات لتؤكِّد بشَريَّته أمام الخلائق ، فبعض المسائل كان أمرها متروكاً لاجتهاد الرّسول ﷺ بالرّأي ؛ لأنه لم يُوحَ إليه فيها بشيء، فكان اجتهاده ـ المأذون به شرعاً ـ يؤدّي به إلى الحسن متعدّياً الأحسن ، وإلى الفاضل تاركاً الأفضل ، فيرشده الله بعد ذلك إلى ما هو أولى وأتمّ وأكمل . وهذه المسائل في حقّ غيره ليست بذنب ، وإنما عُوتِبَ عليها النَّبيُّ ﷺ كما أجاب علماؤنا بالنَّظر لقدر منزلته ﷺ من معرفة الله تعالى .

أمّا اجتهاده في أسرى بدر ، فبعد أن استشار أصحابه ، مَالَ إلى رأي أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وقبل الفداء منهم ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنفال] وهذا منسوخ بقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً ... ﴿٤﴾ ﴾ [محمّد] .

أي لولا حُكْمٌ من الله سبق بإحلال ذلك لكم ، لأصابكم في أخذ الفداء من الأسرى قبل أن تؤمروا عذابٌ عظيم ، والآيات فيها عتاب للنَّبيِّ ﷺ على أخذ الفداء قبل أن يكثر القتل والقهر في العدو ، ويبالغ فيه .

ولم يوجّه الله ـ تبارك وتعالى ـ العتاب للنَّبيِّ ﷺ مباشرة ، وإنّما عرّضَ به تلطّفاً به ﷺ ألم ترَ أن الله تعالى قال : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ﴾ والمراد نبيُّنا ﷺ وقال : ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ ولم يقل : تريد . وإنّما عتب عليه لعلو مكانته عند الله ؛ وإلَّا فقد استقرّ حكم الله في النِّهاية على رأيه ، فقد وافقه الله تعالى آخراً ، قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال] والمعنى : أنَّ الله قد أحلّ لكم الفداء ، وأنّه تبارك وتعالى غفور لما أخذتم من الغنيمة قبل حِلِّها ، رحيم بكم إذ أحلَّها لكم .

وفي صحيح مسلم عن عمر رضي الله عنه قال : " ... فلما أسروا الأسارى ، قال رسول الله ﷺ : لأبي بكر وعمر : ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا نبيّ الله هم بنو العمّ والعشيرة ، أرى أن تأخذَ منهم فدية ، فتكون لنا قوَّةٌ على الكفّار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا بن الخطّاب ؟ قلتُ : لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكنّي أرى أن تمكّنا فنضرب أعناقهم ، فتمكّن عليّاً من عقيل ، فيضرب عُنُقَه ، وتمكّني من فُلان ـ نسيباً لعمرَ ـ فأضرب عُنُقه ، فإنّ هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها . فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يَهْوَ ما قلت ، فلمّا كان من الغد جئت، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان ، قلت: يا رسول الله ، أخبرني من أيّ شيء تبكي أنت وصاحبُك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت ، لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ : أبكي للذي عرض عليّ أصحابُك من أخذهم الفداء ، لقد عُرِضَ عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشّجرة ـ شجرة قريبة من نبيّ الله ﷺ وأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فأحلّ الله الغنيمة لهم "(١) .

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٦/ ج١٢/ ص٨٥) كتاب الجهاد والسير .

أمّـا قبول النّبيّ ﷺ أعذار المتخلّفين عن غزوة تبوك ، قبل أن يعرف ذوي العذر في التخلف ممّن لا عذر له ، فهذا من اختيار النّبيّ ﷺ للمفضول من أمرين مباحين ، ثمّ يوجّه الله نبيّه إلى الأفضل منهما ، قال تعالى : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة] .

ومن توهّم أنّ العفو لا يكون إلا عن ذنب أذنبه ﷺ وأنّ العفو إثبات للمعصية أو المخالفة ، فالجواب ، أنّ معنى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ أي لم يُلْزِمكَ ذنْباً .

ثمّ انظر إلى الآية كيف ابتدأت بالعفو تَوْقيراً لرسول الله ﷺ ورَفْعَاً من شأنه ، لأنه كريم على الله ، ألم تر أنّ الله قدم العفو على العتاب ، وإنما عاتب الله نبيّه لقصور الاجتهاد عن بلوغ درجة الكمال ، فالله تعالى يعلّمه الكمال في الاجتهاد ، فهو عفو خاص يليق بمقام النُّبوَّة ، كذلك فإنّ الله أكرم من أن يعود في عفوه .

أمّـا مـا قيل في عتاب الله تعالى له في إخفائـه أمـر زواجه ﷺ من زينب ـ رضي الله عنهـا ـ ، وكانت تحت زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ ! وما قيل في خشيته ﷺ قَالَةَ النّاس ولائِمَتَهُم ، والله أحقّ أن يخشاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ... ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب] .

فالجواب ، أنّ الّذي حمله ﷺ على إخفاء ذلك خشية أن يرجف المنافقون فيقولون : تزوج امرأة ابنه ، فقد كان مُتَبنَّاه قبل نزول تحريم التبنّي ، وكان يدعى زيد بن محمّد ، فاستشعر النَّبيُّ ﷺ أنّه لو أظهر ذلك لَعَابَهُ مَنْ في قلبه مرض من النّاس ، وهذا قد يُحدِثُ تأثيراً في إيمان العامّة ، وهذا دليل على أنّ خشية النّاس المشار إليها في الآية لم تكن خشية على نفسه ، وإنّما خشية في الله ، ولعلّ ما يؤيّد ذلك أنّ الله تعالى أثنى بعد ذلك على الأنبياء الماضين، فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب] ، فإذا كان هذا شأن الماضين ، فما بالك بشأن خاتم النّبيّين ، وسيِّد

المرسلين !

وقد أراد الله تعالى أن يُبْطِلَ تَقْليداً كان عليه أهل الجاهليّة ، وهو تحريم تزوّج امرأة الّذي يدعى ابناً ، ولهذا قال الله في آية التحريم : ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [النّساء] وقال : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ ...﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب][1] وقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ...﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

فما وقع للنَّبيِّ ﷺ كان بأمر من الله تعالى ليكون أدعى لقبولهم ، ولذلك نزلت الآية الكريمة : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب] .

والآيات فيها من الفوائد ، مثل : التّسليم لأمر الله ورسوله ﷺ ، وشدّة حياء النّبيّ ﷺ، وجواز عتاب الله تعالى لأنبيائه ، وإكرام الله تعالى لزيد ـ رضي الله عنه ـ ، فهو الوحيد الّذي ورد اسمه في القرآن من الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وسيظلّ اسمه يقرأ آناء الليل وأطراف النّهار على ألسنة المؤمنين والمؤمنات ، ومن الفوائد أنّ الله تعالى جعل زوجات النّبيّ ﷺ أمّهات المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ... ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] ولم يجعلِ النّبيَّ ﷺ أبا أحدٍ من المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب] وذلك لإبطال التّبنّي ، وهناك فوائد أخرى يضيق المقام بها .

أمّا قول من قال : إنّ النّبيَّ ﷺ أتى منزل زيد ، فرأى زينب ، فقال : " سبحان الله مقلّب القلوب ! " فسمعت ذلك زينب ، فذكرته لزيد ، فعلم أنّها وقعت في قلبه ، وأنّهُ ذاكَرَهُ في ذلك ؛ فنزلت الآية ، واحتجّ بأنّ الحديث مبسوط في كتب أهل السّنّة ، ومنها " الجواب

---

(١) انظر " أسباب النّزول " للنيسابوري (ص٩٦) .

الكافي "[1] لابن قيم الجوزيّة .

فقد كان الواجب على من يتعلّل بهذا الحديث ، وهو يدري أنّه لا يدري إن كان الحديث صحيحاً أم موضوعاً ، أن يسأل أهل الذّكر؛ فلا يكون له أن يجهل على رسول الله ﷺ فوق جهله بكلام الله وأسباب نزوله ، ولا يكون له تحميل كلام الله ما لا يحتمله ، وتقويله النّبيّ ﷺ ما لم يَقُلْهُ ! وهذا الحديث باطل ، والخبر لا يصحّ ، وقد نبّه على بطلانه غيرُ محقق .

فالحديث أخرجه ابن سعد في " الطبقات الكبرى "[2] والطبري في " تاريخ الأمم والملوك "[3] ، والحاكم في " المستدرك "[4] كلّهم عن محمّد بن عمر ، عن عبد الله بن عامر الأسلمي ، عن محمّد بن يحيى بن حبّان .

ومحمّد بن عمر[5] هو الواقدي ضعيف باتّفاق ، وقد تداولته كتب الجرح والتّعديل بالتّضعيف ، كذلك عبد الله الأسلمي[6] ، أمّا محمّد بن يحيى بن حبّان ، ابن مُنْقذ الأنصاريّ فهو تابعيّ ، وعلى ذلك فالحديث مرسل ، وقد أورده الألباني في " سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة " بلفظ : " تبارك مُصرّف القلوب " وقال : " إسناده ضعيف ؛ فإنّه مرسل "[7] .

وعصمةُ النَّبيِّ ﷺ تقتضي سلامة سيرته وسريرته ؛ فهو الذي أنزل عليه : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر] وهو الّذي يقول في حديثه الشّريف : " إنّه

(١) " الجواب الكافي " (ص٢٨٩) .

(٢) ابن سعد " الطبقات الكبرى " (م٨/ ص١٠١) .

(٣) الطبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٢/ ص٢٣١) .

(٤) الحاكم " المستدرك " (ج٤/ ص٢٣) .

(٥) محمّد بن عمر بن واقد الأسلمي ، الواقدي ، متروك مع سعةعلمه " تقريب التّهذيب " (ص٤٩٨/ رقم٦١٧٥) .

(٦) عبد الله بن عامر الأسلمي ، ضعيف " تقريب التّهذيب " (ص٣٠٩/ رقم٣٤٠٦).

(٧) الألباني " سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة " (م٧/ ص٤٠٢/ رقم٣٣٩٠).

لا ينبغي لنبيّ أن تكون له خائنة الأعين "[1] .

أمّا قِصَّة انشغاله عن ابن أمّ مكتوم الأعمى بدعوة كبار المشركين إلى الإسلام والإقبال عليهم أملاً في إسلامهم إعزازاً للدِّين ، وعتاب الله تعالى له في ذلك بقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [عبس] وصورة العتاب هذه ليس فيها شيء من إثبات المعصية ، لأنّ في العتاب دَفْعَ همّة النَّبيِّ ﷺ لزيادة التأمّل والتّبصر واختيار الأهمّ والأولى .

والقصّة أخرجها الحاكم عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : " أُنزلت (عبس وتولّى) في ابن أمّ مكتوم الأعمى ، قالت : أتى النَّبيَّ ﷺ فجعل يقول : أرشدني . وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يُعرِضُ عنه ، ويُقْبِلُ على الآخر ، ويقول : أترى بما أقول بأساً ؟ فيقول : لا "[2] .

وفي قصّة عبد الله بن أمّ مكتوم فوائدُ بيِّنة : فالله تعالى يعلِّمنا التّلطُّفَ والتَّرفُّق بالأعمى. وسبحان الله ! ما قرأ عبد هذه الآيات إلاّ اسْتشْعر هذا المعنى ، وما رأى عبدٌ أعمى إلاّ تذكر هذه الآيات ، فتحمله على الإحسان إليه .

ومن الفوائد أنّ هذه السّورة المؤلّفة من ستَّ عشرة آية ستظلّ تُتْلى ما كرّ الجديدان ؛ لتدلَّ على صفتي : الصّدق والتبليغ ، فلو كتم النّبيُّ ﷺ شيئاً ممّا أمره الله بتبليغه ، لكتم ألوان العتاب هذه !

---

(١) الحاكم : " المستدرك " (ج٣/ ص٤٥) كتاب المغازي ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه .

(٢) الحاكم " المستدرك " كتاب التفسير (م٢/ ص٥١٤) وصححه الحاكم ، وقال : أرسله جماعة عن هشام، وقال الذّهبي : وهو الصّواب . أي أنّ الذّهبي رجّح المرسل على الموصول ، والمرسل الذّي رجّحه أخرجه مالك في " الموطّأ " (ج١ / ص ٢٠٣) كتاب القرآن ، والترمذي في " الجامع الكبير " (م٥/ ص٣٥٧/ رقم٣٣٣١) أبواب تفسير القرآن ، من نفس الطّريق ، وقال: هذا حديث حسن غريب.

قولهم : علم النَّبيُّ ﷺ كفرهم ثمّ استغفر لهم !

قال الله تعالى : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة] .

وهناك من قال : كيف يستغفر الرَّسولُ ﷺ للذين يلمزون المُطَّوّعين في الصّدقات ويسخرون منهم ، وقد تهدَّدهم الله تعالى بعذاب أليم ؟! وأخبر : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ... ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة] .

فالجواب ، لّما نزل وعيد اللامزين للمطَّوِّعين في الصّدقات طلبوا من الرّسول ﷺ أن يستغفر لهم ، فنزلت الآية الكريمة ، وأجود ما يقال أنّه ﷺ إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم ، ولو علم ﷺ بكفرهم ما استغفر لهم ! والآية الكريمة منسوخة بقول الله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ... ﴿٦﴾ ﴾ [المنافقون] .

دعوى أنّ الشّيطان ألقى على لسان النَّبيِّ ﷺ جملة (تلك الغرانيق...)

ورد في بعض كتب السّيرة والتّفسير والحديث فِرْيةٌ لا مِرْيةَ فيها ، خلاصتها أنّ سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحجّ] أنّ النَّبيَّ ﷺ تمنّى لو أنزل الله عليه آية يستميل بها قلوب المشركين ، حتّى أنزل الله عليه سورة النّجم ، فلمّا بلغ قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النّجم] ألقى الشّيطان على لسانه : (تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجى) .

وقد اختلفت طرائق وألفاظ هذه الرّواية لكنّها اتفقت في خلاصتها ، مع أنّ الآية الكريمة ليس فيها تصريح أو تلميح لهذه القصّة المردودة عقلاً ونقلاً ، وليس في الآية إسناد شيء إلى النَّبيِّ ﷺ ، وإنّما تضمّنت حالة من كان قبله من الرّسل إذا تمنّوا .

ومعتقد كلّ مسلم يؤمن بالله ورسوله ويتّبع سبيل المؤمنين أنّ ما جاء به ﷺ وحي ، بشهادة الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النّجم] وقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ...﴿١٧٠﴾ ﴾ [النّساء] وأنّ النّبيَّ ﷺ لا تَنْفَكُّ عنه صِفَةُ العِصْمة عن المعاصي الاعتقاديّة والقوليّة ، والفعليّة ، فضلاً عن عصمته عن الكتمان والتّحريف ، والخطأ والغلط والنّسيان فيما أمره الله بتبليغه ، وأنّ الله تعالى لا يقرّه على كذب أو باطل : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحاقّة] وأنّ الوحي معصوم ، وأنه نزل به بالحقّ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ... ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النّحل] وأنّ الشّياطين لا يكون لها أن تتنزّل به : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ [الشّعراء] .

فقد عصم الله تعالى نبيّه من الشّيطان في جسمه وخاطره ولسانه ، ولذلك تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ لمّا خرج رسول الله ﷺ من عندها ليلاً : " فَغِرتُ عليه ، فجاءَ فرأى ما أصنعُ ، فقال : ما لك يا عائشةُ ، أغرتِ ؟ فقُلتُ : ومالي لا يَغارُ مثلي على مثلكَ ، فقال رسول الله ﷺ : أقَد جاءك شيطَانُك ؟ قالت : يا رسول الله ، أومعيَ شيْطانٌ ؟! قال : نعم ، قُلْتُ : ومعَ كلّ إنسان ؟! قال : نعمْ ، قُلتُ : ومعَكَ يا رَسُولَ الله ؟! قال : نعم ، ولكنّ ربّي أعانني عليه حتّى أسلم "(١) .

وفي عقيدتنا أنّ الله حَفِظَ القرآنَ للنّبيِّ ﷺ في حالتي النّوم واليقظة، يقرأه في يُسْر وسهولة ، قال النّبيُّ ﷺ فيما يرويه عن ربّه إنّ الله تعالى ، قال: " إنّما بعثْتُك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسِلُـهُ الماءُ ، تقرَؤهُ نائماً ويقظان "(٢) فالقرآن محفوظ .

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٩/ ج١٧/ ص١٥٨) كتاب صفة القيامة .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٩/ ج١٧/ ص١٩٧) كتاب الجنّة وصفة نعيمها .

ولمّا طلب المشركون من النَّبيِّ ﷺ أن يأتي بقرآن غيره أو يبدّلـه ، قال الله له : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس] .

ولذلك وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنّه كتاب عزيز : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصّلت] وكيف لا يكون كذلك ، وهو من لدن عزيز حكيم ؟! ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الزّمر] وقد وردت هذه الآية باللفظ نفسه في غير سورة ، فقد وردت في الزّمر ، والجاثية ، والأحقاف ؛ ليؤكّد الله تعالى أنّ هذا القرآن منيعُ الجَنَابِ عزيز لا تقوى شياطينُ الإنس والجنّ على محاكاته ، حتّى بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ !

ومن انخدع بهذه القصّة فقد ظلم نفسه ، فقد بيّن الله تعالى أنّ الّذين ورثوا الكتاب من عباده أقسام ثلاثة ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر] .

وهذه الرّوايات الّتي تتحدّث عن هذه القصّة أخرج جُلَّها الطّبريُّ في تفسيره(١) ، وقد اختلفت هذه الرّوايات في أسانيدها ، وألفاظ متونها ، فضلاً عن المناسبة الّتي قيلت فيها ، لكنّها اتّفقت في معناها ، وهي روايات كلّها مُرْسَلة ، أو ضعيفة ، أو كلاهما معاً .

فقد أخرج الطّبريّ رواية من طريق أبي معشر، عن محمّد بن كعب القرظي ، ومحمّد بن قيس المدني ، وهذه الرّواية فيها علّتان : الأولى : الإرسال ، محمّد بن كعب ، ومحمّد بن قيس تابعيّان ، والثّانية : الضّعف ؛ فإنّ الرّواي عنهما أبومعشر ، واسمه نجيح بن عبد الرّحمن

---

(١) الطّبري : " تفسير الطّبري " (م٩/ ص١٧٤/ رقم ٢٥٣٢٧) سورة الحجّ .

السّندي ، قال عنه الحافظ : " ضعيف ، أَسَنَّ واخْتَلط "[1] .

وليس الكتاب موضوعاً لبحث هذه الرّوايات ، وقد نبّه إلى بطلانها غير عالم ، ومنهم القاضي عياض في كتابه (الشّفا)[2] وابن حزم في كتابه (الفِصَل) قال ابن حزم : " وأمّا الحديث الذي فيه : وإنّهنّ الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجى . فكَذِبٌ بحت موضوع ؛ لأنّه لا يصحّ قطّ من طريق النّقل ، فلا معنى للاشتغال به ، إذ وَضْع الكذب لا يعجز عنه أحد "[3] ومن العلماء من أفْرَدَ لها كتاباً ، ومنهم الألباني في كتابه (نصب المجانيق لنسف رواية الغرانيق) .

وقد وردت هذه الرّواية عند الطّبراني في (المعجم الكبير)[4] من طريق ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة ، وهي مرسلة ؛ لأنّ عروة بن الزّبير بن العوّام ، تابعيّ .

وقد يقول قائل : إنّ الآية تؤكّد هذه القصّة ، فالله تعالى يقول ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ...﴿٥٢﴾** ﴾ [الحجّ] والجواب أنّ هذه الآية ليس فيها إسناد شيء إلى النّبيّ ﷺ ، وإنّما تتحدّث عن حالة مَنْ كان قبله من الأنبياء والمرسلين كما تقدّم . والنّبيُّ ﷺ ـ كسائر الأنبياء ـ معصوم عن الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه لا سَهْواً ولا عَمْداً .

وقد يقول آخر : أخبر الله تعالى أنّه ـ جلّ جلاله ـ ينسخ ما يلقي الشيطان في أمنيّة النّبيِّ أو الرّسول ، فلماذا لم يمنع الله تعالى الشّيطان من أوّل الأمر أن يلقي شيئاً ؟!

وقد أجاب القرآن عن ذلك ، قال تعالى : ﴿ **لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ**

---

(١) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص٥٥٩/ رقم٧١٠٠) .

(٢) القاضي عياض " كتاب الشّفا " (ص٢٩٤) .

(٣) ابن حزم : " الفِصَل " (ج٢/ ص٣١١) .

(٤) الطّبراني " المعجم الكبير " (ج٩/ ص٢١/ رقم ٨٣١٦) .

﴿ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجّ] .

وبعد ذلك بيّن الله تعالى أنّ الكفّار سيظلّون إلى يوم القيامة يشكّكون ويضلّلون ، ولن تضرّنا شبهاتهم في شيء ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ هكذا بصيغة المضارع لإفادة التجدّد والاستمرار ﴿ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي في شكٍّ من القرآن وتشكيكٍ فيه ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الحجّ] .

أقلّوا اللّوم على العلماء ، أو سدّوا المكان الّذي سدّوا !

ورواية الغرانيق ابتلاء قديم ، وقد أمضى الله علينا الابتلاء قدراً ، قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت] وأكّد الله ذلك في السّورة نفسها ، فقال : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت] .

قلت : ولكنّنا مأمورون بدفعه شرعاً ؛ ولذلك تعرّض لهذه الرّواية بالنّقد غَيْرُ عالم من العلماء القدماء والمُحْدَثِين الرّاسخين في معرفة علوم الحديث رواية ودراية ؛ لكنّهم لم يسلموا من اللّوم ممّن جاء بعدهم ، فهذ ا ينتقد القاضي عياض على مأخذه الثّاني في هذه المسألة ، لأنّ القاضي كان له في الكلام على مشكل هذا الحديث في كتابه (الشّفا) مأخذان : أحدهما في توهين أصله وأنه حديث لم يخرّجه أحد من أهل الصّحة ولا رواه ثقة بسند سليم ، وساق الأدلة على ذلك ، والثّاني على تسليمه ، أي التّسليم بصحّة الحديث افتراضاً ، واستعاذ بالله من صحّته ، وجَمَعَ الأدلَّةَ على بطلانه عقلاً ونقلاً ، وذلك على افتراض صحّته .

ونحن لا ننكر على عالم أن يتعقّب القاضي على هذا التّسليم ، لكن أن يوصف رأيه بأنّه ردّة في الفكر ، ونكوص عن الحقّ ، وأنّ القاضي قد نكص على عقبيه[1] ، فإنّ مثل هذا التّعبير

---

(١) قول محمّد الصّادق عرجون ـ رحمه الله ـ قال : " وكان القاضي بنكوصه على عقبيه واستنزاله قلمه =

بحقّ عَالِمٍ لا نرضاه من عالم ؛ فالعالم يصحِّحُ ولا يجرِّحُ !

فلا يخفى عُنْفُ هذه العبارة ؛ فهي مقتبسة من قول الله تعالى في حقّ الشّيطان : ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال] أو من قوله تعالى في حقّ المشركين : ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المؤمنون] ولا تخفى الاستعارة التمثيليّة في هاتين الآيتين ، فقد شبّه الله تعالى الإعراض عن الحقّ بالرّاجع القهقرى إلى الخلف !

وهذا الكلام في حقّ العلماء لا ينبغي أن يقال ، ولا أن يُنْقَلَ عنهم ؛ فحين يقرأ سواد النّاس هذا الكلام ، يظنّون بهم ؛ فيتركون ميراثهم ! وما ذكرناه إلاّ ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق] فالحذرَ الحذرَ من بيان مسألة صغرى بطريقة تُضيِّعُ مصْلحةً كبرى .

والتّسليم : أن يُفْرض المُحال ويسلّم وقوعه تسليماً جدلياً للدلالة على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه. والتّسليم الّذي أخذوه عليه ليس عيباً ، وإن كان نوعاً من الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل ؛ فقد ورد التّسليم في كتاب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون] .

فقوله تعالى : ﴿ إِذًا ﴾ جواب لمحذوف تقديره : لو كان معه إله ، والمعنى : لو سُلّم أنّ مع الله إله لزم من ذلك التّسليم ذهاب كلّ إله بخلقه ، وألاّ يرضى إلهٌ أن يُضافَ خَلْقُه إلى غيره ، ولتنازعوا في الملك ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ وغلب بعضهم بعضاً وقهره ، فلا يتمّ في الكون أمر ولا تنتظم أحواله ، فإذا تقرّر نفي المشاركة لأنّ الواقع خلاف ذلك دلّ على نفي

= وفكره إلى حمأة الفروض والأوهام منتظماً في عقد من أبطلوا القصّة الكاذبة المتزندقة الغرنوقيّة ، ثمّ ارتدّوا على أدبارهم إلى مزالق التّأويل المحرّف المنحرف ... " (محمّد رسول الله ﷺ) (م ٢/ ص١٣٨) ونقل عنه ذلك محمّد بيّومي في كتابه (عظمة الرّسول ﷺ) (ص٣١٢) .

الولد أيضاً ؛ لأنّ الولد ينازع في الملك. وقد جاءت ﴿ مِنْ ﴾ في الموضعين زائدة : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ وإنّما زيدت لتوكيد النّفي . فهذا الأسلوب متّبع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ ﴾ فرضاً ﴿ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ... (١٤) ﴾ [فاطر] وله شواهد حسبنا منها ما ذكرناه .

وكثير هم الّذين انتقدوا القاضي عياض وابن حجر وغيرهما من العلماء الأجلاّء الّذين لا نعلم أنّ الله أعطى أحداً منهم موثقاً من الخطأ أو الوهم أو النّسيان ، ولا يسعنا إلاّ أن نتمثّل قول الله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ... (١٩٩) ﴾ [الأعراف] .

وقد أخذوا على ابن حجر مأخذين : الأوّل : أنّه بعد أن ساق طرق القصّة وبيّن أنّها كلّها سوى طريق سعيد بن جبير ضعيف وإمّا منقطع ، قال ـ رحمه الله ـ : " لكن كثرة الطّرق تدلّ على أنّ للقصة أصلاً "(١) ولم يغفروا زلّته ، ولم يكفهم أنّ غير عالم ، ومنهم الألبانيّ ـ رحمه الله ـ قد نبّه إلى ذلك من عُقُود ! فحتّى يومنا هذا وهم يناقشون ما ذهب إليه ، قلت : والحمد لله أنّ ابن حجر لم يقل : للقصة أَصْلٌ ثابت أو صحيح ، وإلاّ لو صَارت الأشجارُ أقلاماً ، والبحار مداداً ما استطاعوا أن يُشْبِعوا الموضوع حقّه !

والثّاني : أنّ ابن حجر ارتضى في تأويل الآية قول القائل : كان ﷺ يرتل القرآن فارتصده الشّيطان في سَكْتةٍ من السكتات ونطق بتلك الكلمة محاكياً نغمته بحيث سمعه من دنا ، فظنّها من قوله وأشاعها ، قال ابن حجر : " وهذا أحسن الوجوه "(٢) .

قلت : وهذا الّذي اختاره ابن حجر على التّسليم بأنّ هناك من يحتجّ بالمرسل ، أو يحتج بتعدد طرق الحديث واعتضاد بعضها ببعض . وقصّة الغرانيق معلوم أنّها باطلة مناسبة وسنداً ومتناً ، ونصّها مخالف لأصل من أصول العقيدة ، وهو عصمة النّبيِّ ﷺ من أن يدسّ عليه

---

(١) ابن حجر : " فتح الباري " (ج٨/ ص٣٥٤) كتاب التّفسير .

(٢) المرجع السّابق .

الشّيطان شيئاً أو يحاكيه فيما يبلّغه عن ربّه ، والمنعم النّظر في كلام ابن حجر يعلم أنّه لا يخفى عليه ذلك ، وأنّه إنّما ساق الرّوايات ليوهنها ، وساق القصّة ليظهر عوارها ! أمّا اختياره وترجيحه فقد قدّمنا أنّ العالم ليس معصوماً عن الزّلل ولا منزّهاً عن الخطل .

هذا وينبغي على من يقرأ الكتاب والسُّنَّة وسيرة السّلف الصّالح أن يجد ما يغرس في قلبه حسن الظنّ بالعلماء الأحياء منهم والأموات ، فإذا رأت عينه عيباً حمله على أكمل نيّة لهم، وأَوَّلَهُ إلى أقرب معنى للخير، والتمس أحسن التّأويلات ، وبرّر لهم واعتذر ، إذ هم أَهْلٌ لذلك ، والله تعالى أعلم بما في الصّدور ! ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت] .

فقد أمرنا الله تعالى أن نقدّم حسن الظنّ دائماً بإخواننا المؤمنين ، قال تعالى : ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ... ﴿١٢﴾﴾ [النّور] فابن حجر لا يتعمّد مخالفة الرّسول ﷺ أو أن يكذبَ عليه متعمّداً ، وغزارة علمه وفضله يشهدان بذلك ، لكنّه مجتهد ، فإن أخطأ فقد عفا الله عن المخطئ في اجتهاد ، بل أعدّ له أجراً حسناً ، فلا يلام من أصاب أجراً ! والله نسأل أن يُؤْتِيَ علماءنا أفضل ما آتاه مَنْ رجاه بخير نيّة !

فما أعظم أنْ يجلَّ العلماءُ بعضهم بعضاً ! فالعلماء يتوادّون ويتراحمون كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ... ﴿٩﴾﴾ [الحشر]، وكما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... ﴿١٠﴾﴾ [الحشر] .

والعالم من عُـدَّتْ هفواتُه ، وأحصيت سقطاته ، ويكفي العالم شرفاً وفخراً أنْ تُعَدَّ معايبُهُ ، كما قال يزيد المهلّبي :

ومن ذا الّذي تُرضى سجاياه كلّها كفى المرء نبلاً أن تُعَـدّ معايبـه

وابن حجر من جبال الحفظ الرّواسي الذي نذعن له بالفضل ؛ فقد سَلَخَ من عمره قرابة الأربعين عاماً في الاشتغال بكتابه " الإصابة " وقد أشار إلى ذلك في نهاية الجزء

السّادس[1] ، وقرابة الثلاثين عاماً في كتابه " فتح الباري "[2] فكم من الوقت استغرقت بقية كتبه ! فقد أنفق ـ رحمه الله ـ نفائس أيامه بالاشتغال بالعلوم الشّرعيّة المتلقّاة عن سيّد البريّة والّتي مدارها على كتاب الله المقتفى وسنّة نبيّه المصطفى . والقاضي من جبال العلم الشّامخة الذي يستصغرُ الإنسانُ نفسه بين يديه ! وهذا أو ذاك عنده من خشية الله تعالى ما يرفعه إلى درجة العلماء المغفور لهم إن شاء الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر] .

ورحم الله أبا عمرو زرعة السّيباني إذ قال : " ما نحن فيما مضى إلاّ كَبَقْلٍ في أُصُولِ نخلٍ طوال " فإذا كان أبو عمرو كبقلٍ أفلا نكون على الأقلّ كشوكٍ نذودُ به عن جنى هؤلاء العلماء ؟!

دعوى أنّ القرآن فيه آيات متناقضة متعارضة !

من الدّعاوى الّتي ملأ الجهلاء بها ما بين الخافقين ضجيجاً وعجيجاً ، زعمهم أنّ القرآن الكريم فيه آيات ينقض بعضها بعضاً ، ويردّ بعضُها الآخر ، ولا أعدو الحقيقة إن قلت : ما من مخلوق نظر في كتاب الخالق يلتمس عيباً ليطعن فيه إلاّ رجع إليه بصره خاسئاً ذليلاً ! فكيف يكون في القرآن تناقض واختلاف ، وهو ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصّلت] وإنّما هي دعوى مَنْ لا دراية له بمبادئ علوم القرآن فضلاً عن غوامضها ، ولذلك فإنّ أيّ قصور في الجمع بين الآيات والتّوفيق بينها ، فهو قصور تتّهم فيه العقول !

ومن ذلك قولهم : كيف نوفّق بين قوله تعالى : ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ

(١) انظر " الإصابة في تمييز الصّحابة " لابن حجر (م٣/ ج٦/ ص٣٧٢) .

(٢) انظر " فتح الباري على صحيح البخاري " لابن حجر (ج١٣/ ص٤٦٩) .

وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ...﴿٣﴾ ﴾ [النّساء] وقوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ... ﴿١٢٩﴾ ﴾ [لنّساء] قالوا : آية تشترط العدل لتعدّد الزّوجات وتثبت إمكان وقوعه ، وآية تنفي العدل وإمكان تحقّقه ! وقالوا : ولماذا لم يُقتصر على الواحدة طالما أنّ العدل بين النّساء مَنْفِيٌّ بصريح الآية ؟! وكيف يُكَلَّفُ الرِّجالُ العَدْلَ بين النّساء ويخبر أنّهم لا يستطيعونه ؟!

وقد أجاب سَلَفُنا عن ذلك ما خلاصته أنّ العدل المنفيّ غير العدل الأوّل ، فالعدل في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ... ﴿٣﴾ ﴾ [النّساء] المراد منه العدل الظّاهر في القسمة والنّفقة بين الزّوجات ، والتّسوية في حقوق النّكاح، ومعاشرتهنّ بالمعروف ، وهو أمر مستطاع ، والقيام به فرض ، والعدل المنفيّ في قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ... ﴿١٢٩﴾ ﴾ [النّساء] المراد منه العدل في المحبّة ، وهو أمر باطن أخبر أنّهم لا يستطيعونه ، ولم يكلّفهم به ، فلا إشكال بين الآيتين .

فالمراد أنّ الله كلَّفَ الرِّجالَ بالعدل الظّاهر المستطاع ، وهو الإنفاق ، والّذي أخبر عنهم أنّهم لا يستطيعونه لم يكلّفهم إيّاه ، وهو مَيْلُ النّفس والمحبّة ، فالعدل بين النّساء من كلّ جهة هو المنفيّ .

فإذا أدّى الرّجل لكلّ واحدة منهنّ كسوتها ، ونفقتها ، والإيواء إليها ، لا يضرّه ميلُ قلبه إلى واحدة منهنّ دون سواها ؛ ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يعدل بين أزواجه في الإنفاق ، وقد أخرج الحاكم وغيره عن عائشة ، قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدلُ ، فيقول : " اللهمّ هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك "[1] قال إسماعيل القاضي : يعني القلب وهذا في العدل بين نسائه . وصدق الله : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي

(١) الحاكم " المستدرك " (م٢/ ص١٨٧) كتاب النّكاح ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ... ﴿٨٣﴾ ﴾ [النّساء] .

قال الجهلاء : وكيف الجمع بين قوله تعالى في حقّ أمّة محمّد ﷺ : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ... ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى في حقّ بني إسرائيل : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [البقرة] وعضدوا جهالتهم بقولهم : كيف يستقيم هذا ، وقد أكّد الله تعالى تفضيل بني إسرائيل على العالمين بأنْ ذكر الآية مرتين في السّورة نفسها ، فقد قال الله في الآية الثّانية والعشرين بعد المائة : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [البقرة] قالوا : وهذا التّكرير للتوكيد !

والجواب، أنّ تفضيل الله تعالى لبني إسرائيل لا يخفى أنّه كان على عالمي زمانهم ، وهو من باب العام الّذي أُريْدَ به الخاص ، والفعل (كان) في قوله تعالى : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ ﴾ لا يراد به المضيّ والانقطاع ، وإنّما يراد به الاستقبال والحال ، وهذا الحكم جاء مُعَلَّلاً ، فعلّة الخيريّة فسّر سببها قوله تعالى بعد ذلك ﴿ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ... ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران] والآية وإن كانت خطاباً لأصحاب النّبيِّ ، فهي عامة في أمّة النّبيِّ ﷺ الّتي لا يخلو عصر ممّن يأمر منها بالمعروف وينهى عن المنكر .

ومن باب العام الّذي يُرادُ به الخاص قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران] فالله تعالى لم يصطفهم على سيّدنا محمّد ﷺ ، وإنّما أراد عالمي أزمنتهم . ولابن قتيبة في كتابه " تأويل مشكل القرآن "[1] بحثٌ ثَرٌّ في ذلك .

قال الجهلاء : كيف عمّ الله تعالى الآيات بالإحكام في قوله تعالى : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ... ﴿١﴾ ﴾ [هود] وخصّ بعضها بالإحكام في سورة آل عمران فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ

---

(١) انظر " تأويل مشكل القرآن " لابن قتيبة (ص٢٨١) .

أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ... ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران] .

قالوا : وكيف يمكن التّوفيق بين آية ذكرت أنّ القرآن كلّه محكم : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ... ﴿١﴾ ﴾ [هود] وآية ذكرت أنّ القرآن كلّه متشابه : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزّمر] وزعموا أنّ بين الآيتين تعارضاً !

وخلاصة القول : القرآن الكريم منه آيات محكمات هنّ معظم الكتاب ، ومنه آيات متشابهات . وقد جعله الله كلّه محكماً في قوله ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ... ﴿١﴾ ﴾ [هود] بمعنى ليس فيه عيب ، وجعله متشابهاً في قوله : ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزّمر] بمعنى أنّه يشبه بعضه بعضاً في الحسن والصّدق وغير ذلك .

وعلى ذلك ، فالإحكام الّذي عَمَّ به في سورة هود غير الذي خَصَّ به في سورة آل عمران ، وما قيل في الإحكام يُقال في المتشابه . وهكذا يتّضح أنّ الإحكام لا يأتي على معنى واحد كما يتوهّمون ، وقد ذكر ابن القيّم في (شفاء العليل) ثلاثة معان للإحكام[1] .

والجواب من وجه ثانٍ أنّ الله أوقع العموم على معنى الخصوص ، أي ذكر أنّ الكتاب كلّه محكم وأراد الخصوص أو الجزء ، ثمّ ذكر أن الكتاب كلّه متشابه وأراد الخصوص ، وهو باب يُعرفُ في البلاغة بالمجاز المرسل وعلاقته هنا الكلّيّة .

قالوا : هناك تعارض بَيِّنٌ بيْنَ قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون] وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الطّور] فآية تنفي التّساؤل بينهم ، وآية تثبته .

هذا ، ولا تَشَابه بين الآيتين ، فحين لا يتساءلون ، فذلك حين ينفخ في الصّور النّفخة الأولى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون]

(١) ابن القيّم " شفاء العليل " (ص١٩٣) .

وكيف يتساءلون ولا يبقى حَيٌّ حينها في السّماء ولا في الأرض إلاّ ما شاء ربّك ؟! قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزّمر] وعلى ذلك ، فهم يتساءلون في النّفخة الأخرى الّتي يُبْعثون بها ، فالآية توضّح الآية .

قالوا : وما قولكم في آية تنفي أن يكتم المشركون ربّهم حديثاً عمّا عملوه ، فالله تعالى يقول : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النّساء] ، وآية تثبت أنهم يكتمون ويقولون : ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام] .

وقد أجاب أهل التّأويل ما حاصله أنّ جوارحهم لا تكتم الله حديثاً ، وإن جحدت بذلك أفواههم ، كما قال تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس] وذلك أنّهم لمّا رأوا أنه لا يدخل الجنّة إلاّ المسلمون ، يجحدون بأفواههم أنّهم كانوا مشركين ، فيختم الله على أفواههم وتنطق جوارحهم ؛ فيعلمون أنّ اللهَ لا يُكْتَمُ حديثاً .

قالوا : فقد ذكر الله تعالى في سورة النّازعات خَلْقَ السّماء قبل خلق الأرض ، فقال تعالى : ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النّازعات] .

وفي سورة فصّلت ذكر خلق الأرض قبل خلق السّماء ، فقال : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصّلت] فآيةٌ تُشعِرُ بأنَّ خلقَ السّماء مُتَقَدِّمٌ على خلق الأرض ، وآية تشعر بأنّ خلق السّماء متأخّر عن خلق الأرض ؟!

قلت : المعنى الظّاهر أنّ الله تعالى خلق الأرض في يومين أَوّلاً غير مدحوّة ، ثمّ خلق

السّماء في يومين ، ثمّ دحا الأرض وبسطها ومدّها ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ أي مع اليومين اللّذين تقدّما قوله : ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ ؛ وعلى ذلك ، فالأرض متقدّمة على السّماء خلقاً ، متأخّرة عنها دحواً ، وهكذا يندفع الإشكال .

قالوا : لكنّ الله تعالى يقول في سورة البقرة : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ...﴿٢٩﴾﴾ [البقرة] قالوا : وخَلْقُ ما في الأرض جميعاً لا يكون إلاّ بعد دحوها ، والآية دلّت على أنّه تعالى خلق ما في الأرض جميعاً ـ أي أنّه دحاها ـ قبل خلق السّماء ، وهذا يُبقي الإشكال قائماً ، ولا يندفع الإشكال بمثل هذا الجمع .

قلت : لعلّ هذه الآية أجملت ما فُصّل في سورة فصّلت من ترتيب خلق الأرض والجبال من فوقها ، والمباركة فيها ، وتقدير أقواتها ، وخلق السّماء بعد ذلك ، ثم دحو الأرض ؛ فالقرآن يفسّر بالقرآن أوّلاً ، فإن تعذّر فبالسُّنَّة ، والله أعلم ؛ فإنْ خَفِيَتْ حِكْمَةٌ فهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النّحل] .

قالوا : ولِمَ خصّ الله تعالى الكفّار دون المؤمنين في قوله تعالى : ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ...﴿٢٠﴾﴾ [الحديد] قالوا : فهذا ممّا يستوي فيه الكفّار والمؤمنون ، فلو أعجب نباتُ الغيث المؤمنين ما نقص إيمانهم شيئاً ؛ فأيّ حكمة في إعجاب الكفّار دون المؤمنين ؟

ولا يخفى أنّ الكفّار في الآية بمعنى الزُّرّاع ، فالعرب تقول للزَّرّاع : كافر ؛ لأنّه يَكْفُر البَذر المبذور بتراب الأرض إذا أمرّ عليها مالَقَه ، فيستره ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ...﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] .

قالوا : وكيف تكون القوارير وهي زجاج من فضّة ؟ كما جاء في قوله تعالى : ﴿قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ ... ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان] قالوا : وكيف تكون الحجارة من طين ؟ كما جاء في قوله تعالى : ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾﴾ [الذّاريات] قالوا : وأيّ شيء أكثر من هذا

الاختلاف تريدون ؟!

أمّا قوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ ... ﴿١٦﴾ ﴾ [الإنسان] فهذا على التّشبيه ، أراد أنّها قوارير (أكواب) لها بياض الفضّة وصفاء الزّجاج يرى باطنها من ظاهرها . أمّا قوله تعالى : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الذّاريات] فذكر ابن عبّاس أنّها : الآجُرّ . والآجُرّ : طبيخ الطّين ، أو حجارة الطّين ؛ لأنّه في قسوة الحجارة ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجاثية] .

قالوا : فإنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النّساء] وكان : فعل معناه المضيّ والانقطاع ؛ فكأنّه كان ثمّ مضى ؟!

ولا يخفى أنّ فعل الكينونة جاء هنا بمعنى الدّوام والاستمرار والأزل والأبد ، أَي أَنَّ الله كان ولم يَزَلْ كذلك ، وعلى هذا المعنى تُحْمَلُ جميع الصّفات الذّاتية المقترنة بالفعل كان ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء] .

والفعل كان يأتي بمعان أخرى ، فهو يأتي بمعنى الحال ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النّساء] وبمعنى الاستقبال : ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الإنسان] وبمعنى صار : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة] وغير ذلك .

قالوا : وكيف الجمع بين آية تصف الأولاد أنّهم زينة الحياة الدّنيا كما قال تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] ، وآية تحذّر من الأولاد وأنّ منهم عدواً يجب الحذر منه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ...﴿١٤﴾ ﴾ [التّغابن] .

ومن قرأ أسباب النّزول زال عنه هذا الإشكال ، فقد أخرج التّرمذي عن ابن عبّاس

وسأله رجل عن هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [التّغابن] ، قال : " هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكّة وأرادوا أن يأتوا النّبيَّ ﷺ فأبى أزواجُهم وأولادُهم أن يَدَعُوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فلمّا أتوا رسول الله ﷺ رأوا النّاس قد فقهوا في الدّين هَمُّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [التّغابن] "(١) .

وبعض هذه المسائل المتقدّمة قديمة مُتَجَدِّدة ، فقد روى البخاري عن سعيد ، قال رجل لابن عبّاس : " إنّي أجد في القرآن أشياءَ تَخْتلفُ عليّ ، قال : ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون] ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الطّور] .

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النّساء] ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام] فقد كتموا في هذه الآية .

وقال : ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النّازعات] إلى قوله ﴿ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النّازعات] فذكر خلق السّماء قبل خلق الأرض ، ثمّ قال ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ... ﴿٩﴾ ﴾ [فصّلت] إلى ﴿ طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصّلت] فذكر في هذه خلق الأرض قبل السّماء .

وقال تعالى : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النّساء] ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النّساء] ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾ [النّساء] فكأنّه كان ثمّ مضى !

فقال : ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ في النّفخة الأولى ، ثمّ ينفخ ﴿فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى

---

(١) التّرمذي " الجامع الكبير " (م٥/ ص٣٤٤/ رقم٣٣١٧) أبواب تفسير القرآن ، وأخرجه الحاكم في " المستدرك " (م٢/ ص٤٩٠) وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه ووافقه الذّهبي ، وانظر " أسباب النّزول " للنيسابوري (ص٢٤٠) .

﴿ ... ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ... ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزّمر] ، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثمّ في النّفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وأمّا قوله : ﴿ مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾ ﴿ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ ﴾ فإنّ الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، وقال المشركون تعالوا نقول : لم نكن مشركين ؛ فختم على أفواههم فتنطق أيديهم ، فعند ذلك عُرِف أنّ الله لا يُكتمُ حديثاً ، وعنده ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... ﴿٤٢﴾ ﴾ [النّساء] الآية.

وخلق الأرض في يومين ، ثمّ خلق السّماء ، ثمّ استوى إلى السّماء فسوّاهنّ في يومين آخرين ، ثمّ دحا الأرض ، ودَحْوُها أنْ أخرج منها الماء والمرعى ، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين ، فذلك قوله دحاها ، وقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾ فَجُعِلت الأرضُ وما فيها من شيء في أربعة أيام ، وخُلِقت السماوات في يومين .

وكان الله غفوراً ، سمّى نفسه ذلك ، وذلك قوله ، أي لم يزل كذلك ، فإنّ الله لم يُرد شيئاً إلاّ أصاب به الّذي أراد ، فلا يختلف عليك القرآن ، فإن كلاًّ من عند الله "[1] .

هذا وينبغي للمسلم أن يتعلّم الإيمان قبل أن يتعلّم القرآن ، ففي سنن ابن ماجة بسند صحيح عن جندب بن عبد الله ، قال : " كنّا مع النّبيِّ ﷺ ونحن فتيان حزاورةٌ[2] ، فتعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلّم القرآن ، ثمّ تعلّمنا القرآن فازددنا به إيماناً "[3] .

---

(١) البخاري " صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٣٥) كتاب التّفسير .

(٢) حزاورة : جمع حَزْوَر وحَزَوّر، وهو الغلام إذا اشتد وقوي وقارب البلوغ ، والتّاء لتأنيث الجمع " لسان العرب " ابن منظور (م٣/ ص١٥٠) .

(٣) ابن ماجة " سنن ابن ماجة " (م١/ ص٨٦) المقدّمة ، وإسناده صحيح ، رجاله ثقات . وأخرج نحوه البيهقي ، وفي آخره زيادة : " وإنّكم اليوم تعلمون القرآن قبل الإيمان " البيهقي " الجامع لشعب الإيمان " (م١/ ص١٥٢) وإسناده ضعيف ؛ فيه الحجاج بن نُصَير الفساطيطي قال عنه ابن حجر : ضعيف كان يقبل التّلقين" تقريب التّهذيب " (ص١٥٣/ رقم١١٣٩) .

وينبغي للمسلم أن يحذر من الّذين يتّبعون ما تشابه من القرآن وأشكل من السّنّة ، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : " تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران] قالت : قال رسول الله ﷺ : " فإذا رأيت الّذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الّذين سمّى الله فاحذروهم "(١) .

وينبغي للمفسّر لكتاب الله تعالى أن يُحِيطَ بِعُلومٍ تعصم لسانه وقلمه من الخطأ ، منها : الصّرف ، والإعراب (ويجمعهما اسم النّحو) والرّسم (وهو العلم بأصول كتابة الكلمات) والمعاني ، والبيان ، والبديع (ويجمعها اسم البلاغة) وعلم أصول الدّين ، وعلم أصول الفقه، وعلم أسباب النّزول ، وعلم النّاسخ والمنسوخ ، وعلم الأحاديث المبيِّنة لتغيّر المجمل والمبهم ، إلى جانب معرفة الوجوه والنّظائر ، ومعرفة الضمائر ومرجعها ...

وينبغي أن نعلم أنّه يُحْمَد التّفقه في الدّين والسّؤال عن العلم ومعرفة العِلَل إذا كان للعمل لا للمِراء والجدل ، ويحمد إذا كان لزيادة الإيمان لا لتفريق القواعد والأركان ، ويحمد إذا كان لتصحيح العقائد لا لتأييد مذهب أو إثبات معتقد ، فخير السّؤال ما ورّث علماً نافعاً ، وخير العلم ما ورّث عملاً صالحاً .

كذلك فإنّه يُحمد أن تحدّث النّاس بما يعلمون لا بما يشتبه عليهم وينكرون ، وما أحسن قول عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : " حدّثوا النّاس بما يعرفون ؛ أتحبّونَ أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسُلُه ؟! "(٢) .

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٥/ ص١٦٦) كتاب تفسير القرآن .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص٤١) كتاب العلم . وبدأ به البخاري مُعلّقاً في باب من خَصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا ، ثم ذكر السّند من طريق أبي الطّفيل ، وهو عامر بن واثلة الليثي ـ رضي الله عنه ـ آخر الصّحابة موتاً.

آيةُ أنَّ القرآنَ وَحْيُ الله وكَلامُهُ سَلامَتُهُ من التَّناقض والتّضاد لفظاً ومعنى

سلامة القرآن الكريم من التَّناقض والتّضاد في الألفاظ والمعاني دليل قاطع على أنّه وحي الله وكلامه ! والقارئ المتدبّر في كتاب الله تراه من دقّة لفظه ومعناه خاشعاً من خشية الله ، فمن أسراره الدّقيقة الّتي قلَّ من يلحظها حُسْنُ التّقديم والتّأخير في الألفاظ والمعاني ، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ...﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران] والآية تتحدّث عن صفات أولي الألباب أنّهم يداومون على ذكر الله باللسان والجوارح والأركان في جميع الأحوال : ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ...﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران]، وهذا في حالة الصّحة والقوّة ، ولذلك انظر كيف جاء التّرتيب ، الذّكر في حالة القيام ، ثمّ في حالة القعود ، ثمّ في حالة الاضطجاع .

وقد جاء الأمر عكس ذلك في حالة المرض قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ...﴿١٢﴾ ﴾ [يونس] فجاء الذّكر في حالة الاضطجاع أوّلاً ، ثمّ القعود ، ثمّ القيام ، ليتناسب مع حالة الإنسان حال مرضه تيسيراً وتسهيلاً ، وهذه واحدة من لطائف القرآن الّتي تأسرُ الجنان !

ومن عجيب نظمه أنّ العرب كانت تستخدم الاسم لغرض الدّلالة على الثّبوت والاستقرار والاستمرار من غير دلالة على الزّمان ، وتستخدم الفعل للدلالة على الحدوث والتّجدّد مقيّداً بأحد الأزمنة الثلاثة بطريق الاختصار ، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر . فلو قال قائلهم : زيد صادق . لكان الغرض الدّلالة على ثبوت زيد على الصّدق واستمراره عليه من غير دلالة على الزّمان . ولو أرادوا خلاف ذلك لقالوا : زيد يصدق . فالفعل يصدق يفيد تجدد الصّدق مرّة بعد أخرى مقيّداً بالزّمان وكأنّه لا يصدق دائماً .

وقد جرى القرآن الكريم على نحو ذلك ، غير أنّ القرآن إذا تتبّعتَ آياته ورأيت كيف جاء التّعبير بالفعل والاسم ، عرفت معنى قول الله حكاية على لسان الجنّ : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴿١﴾ ﴾ [الجنّ] .

ومن الأمثلة : قول الله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ...﴿٩٦﴾ ﴾ [النّحل] فقد استعمل الفعل ﴿ يَنفَدُ ﴾ لأنه يدل على انتهاء ما يملكه البشر ويتجدد برزق الله لهم ، واستعمل الاسم ﴿ بَاقٍ ﴾ ليدل على استمرار بقاء ما عند الله .

قلت : ولم يقل الله تعالى : وما عند الله يبقى ؛ إذ لو قال ذلك لأفاد أنّ بقاء ما عند الله مقيّد بزمن ، وصدق الله القائل : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النّساء] فهذه واحدة من الأسرار اللغويّة العجيبة في التّراكيب .

ويتّضح الفرق في الخطاب بين الاسم والفعل في قوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر] فلو قيل : (رازقكم) هكذا باسم الفاعل لَفَاتَ ما أفاده الفعل من تَجَدُّد الرِّزق شيئاً بعد شيء ، ولهذا جاءت الحال في صورة الفعل المضارع لدلالته على التجدّد والحدوث . وأوضح من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يوسف] ولم يقل : (باكين) لأنّ الفعل المضارع أفاد تجديدهم للبكاء شيئاً بعد شيء ، وهذا سِرُّ الإعراض عن اسم الفاعل .

دعوى الاختلاف في الحديث الشّريف

وزعموا أنّ هناك تعارضاً بين الحديث الشّريف والقرآن الكريم ، مثل ما رواه مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : " قارِبُوا وسدّدوا واعلموا أنّه لن ينجو أحد منكم بعمله ، قالوا : يا رسول الله ، ولا أنت ، قال : ولا أنا إلاّ أن يتغمّدني الله برحمةٍ منه وفضلٍ "(١).

قالوا : كيف الجمع بين حديث صحيح صريح نصّ على أنّ الإنسان لا يدخل الجنّة بعمله ، وآية في كتاب الله تعالى تقرّر أنّ الإنسان يدخل الجنّة بعمله ، قال تعالى : ﴿ ٱدْخُلُواْ

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٩/ ج١٧/ ص١٦٠) كتاب صفة القيامة .

ﭐلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النّحل] .

والحقيقة أنّه لا تعارض بين الحديث والآية لاختلاف مَحْمليّ الباءين في كلّ منهما ، فالباء في قوله تعالى : ﴿ﭐدۡخُلُواْ ﭐلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النّحل] ومثلها في قوله تعالى : ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ﭐلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف] تفيد السّببيّة ، فإنّه يصحّ أنّ دخول الجنّة بالأعمال ، أي بسببها ، ولا يعدو هذا أن يكون رحمة من الله وفضلاً ؛ فما وُفّق عبدٌ للعمل بأسباب النّجاة ، وما هُدِي إلى العمل الصّالح الّذي جعله الله تعالى سبباً لدخول الجنّة ، إلا برحمته سبحانه وتوفيقه !

أمّا الباء في الحديث الشّريف : " لن ينجو أحد منكم بعمله " فهي تفيد المقابلة ، وهي الدّاخلة على الأعْوَاض ، والمعنى أنّ العبد عليه ألاّ يَغْتَرَّ بعمله ، وألاّ يرى أنّ عمله أوجب له الجنّة على الله ، أو أنّ الجنّة وجبت له عوضاً عن عمله ، أو مقابل عمله ، فلو وُزِنَتْ أعمالُهُ كلُّها مقابل نعمة من نِعَمِ الله لرجحت بها ، وبهذا يندفع الإشكال .

وقد ذكر ابن هشام في " مغني اللبيب "(١) وغيره في غيره أربعة عشر معنى لحرف الجرّ الباء المفردة ، فينبغي لطالب العلم أن يتعرَّفَ حروف المعاني أو أشهر معاني الحروف ، وما أكثر الّذين صنّفوا في هذا الضّرب ! ولكن ما أقلّ القرّاء !

وزعموا أنّ هناك اختلافاً بين الأحاديث نفسها ، وساقوا على فساد دعواهم ما رواه مسلم عن عَديّ بن حاتم : " أنّ رجلاً خَطَبَ عند النَّبيِّ ﷺ ، فقال : مَنْ يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، فقال رسول الله ﷺ : بئس الخطيب أنت ! قُـلْ : ومَنْ يعص الله ورسوله فقد غوى "(٢).

وقالوا : أنكر على خطيب من خطباء العرب أنّه جمع لفظ الله ورسوله في الضّمير، وذلك شيء مُسْتكرهٌ ، فكيف يصحّ حديث جمع فيه بينهما ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ ، وذكروا

(١) ابن هشام "مغني اللبيب " (م١/ ص١١٩) والزجاجي " حروف المعاني " .
(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٣/ ج٦/ ص١٥٩) كتاب الجمعة .

قوله ﷺ " أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما "(١) .

والحاصل أنّ سبب إنكاره على الخطيب تشريكه في الضّمير ، لأنّ ذلك يقتضي التّسوية بينهما ، وخشي على الرّجل أن يكون معتقداً ذلك ، والنّبيُّ ﷺ آمَنُ مِنْ ذلك ، كذلك نهاه لأنّ خُطَبَ الوعظ شأنها البسط والإيضاح ، والنّبيُّ ﷺ ثَنَّى الضمير لأنّه ليس في مقام الخطبة والوعظ ، وإنّما هو تعليم حُكْمٍ ، وكلّما قَلَّ لفْظُه كان أقرب إلى حفظه ، بمثل هذا أجاب علماؤنا .

وزعموا أنّ هناك اختلافاً في الحديث الواحد ، وذكروا قول النَّبيِّ ﷺ : " لا عدوى ، ولا طِيَرَةَ ، ولا هامةَ ، ولا صَفَرَ ، وفِرّ من المجذوم كما تفرُّ من الأسد "(٢) قالوا : النّبيّ ﷺ ينفي أن تقع عدوى ، أو أن تكون هناك عدوى ، ثمّ يأمر بالفرار من المصاب بالجذام ! وهذا أغرب ما سمعنا !

ولا يخفى أنّ المراد بقول النَّبيِّ ﷺ : " لا عدوى " أي لا عدوى تقع بذاتها ، فالعدوى ليست علّة فاعلة ، وإنّما تقع بقدر الله .

والنَّبيُّ ﷺ لمّا قال ذلك إنّما يريد نفي ما كانت الجاهليّة تعتقده من أنّ المرض والعلّة تُعْدِي بطبعها لا بأمر الله ، ويشهد لذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة حين قال رسول الله ﷺ : " لا عدوى ولا صَفَرَ ولا هامَةَ ، فقال أعرابيّ : يا رسول الله : فما بال الإبل تكون في الرَّمْل كأنّها الظّباء ، فيجيء البعير الأجرب ، فيدخُلُ فيها ؛ فيُجْربُها كلّها ؟! فقال ﷺ : فَمَنْ أعدى الأول ؟ "(٣) .

قالوا : وكيف يصحّ حديث عن رسول الله ﷺ يقول : " الوائدة والموءُودةُ في النّار "

---

(١) رواه البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٥٦) كتاب الإكراه ، وأخرجه في كتاب الإيمان ، وكتاب الأدب .

(٢) البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص١٧) كتاب الطّب .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٧/ ج١٤/ ص٢١٣) كتاب السّلام .

والله تعالى يقول : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [التّكوير] .

قلنا : هذا الحديث مشكل لأنّه لم يُرْوَ بتمامه ، ومن قرأه من ألفه إلى يائه يستطيع أن يوفّق بين ظاهره وحقيقته ، وينقطع الإشكال عنده ، فقد أخرجه أحمد بسند صحيح عن سلمة بن يزيد الجُعْفيّ ، قال : " انطلقْتُ أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ ، قال : قلنا : يا رسول الله ، إنّ أمّنا مُلَيْكة كانت تصلُ الرّحمَ ، وتقري الضَّيفَ ، وتفعلُ وتفعلُ ، هَـلكتْ في الجاهلية ، فهل ذلك نافعُها شيئاً ؟ قال : لا . قال : قُلنا : فإنّها كانت وأدتْ أختاً لنا في الجاهليّة ، فهل ذلك نافعُها شيئاً ؟ قال : الوائدة والموءُودةُ في النّار إلاّ أن تُدْرِكَ الوائدةُ الإسلامَ، فيعْفُوَ اللهُ عنها "[1] .

قالوا : وكيف يصحّ حديث عن عائشة ، قالت : " دخَلَ على رسول الله ﷺ رَجُلان فكلّماه بشيء ـ لا أدري ما هو ـ فأغضباه ؛ فلعنهما وسبّهما "[2] قالوا : فقد ثبت أنّ النَّبيَّ ﷺ قال : " إنّ اللعانين لا يكونون شُهداء ولا شفعاء يوم القيامة "[3] ، وقال : " إنّي لم أُبْعَثْ لعّاناً وإنّما بُعِثْتُ رحمة "[4] ، وقال أنس : " لم يكنْ رسولُ الله فاحشاً ولا لعَّاناً ولا سَبَّاباً ، كان يقولُ عِنْدَ المَعْتَبَة : مَالهُ تَرِبَ جَبِيْنُه "[5] .

قلنا : ومن عرف تتمة الحديث الّذي اعترضوا به انْحَلَّ عنده هذا الإشكال ، فقد رواه مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : " دخَلَ على رسـول الله ـ ﷺ ـ رَجُلان فكلّماه بشيء ـ لا أدري ما هو ـ فأغضباه ؛ فلعنهما وسبّهما ، فلمّا خرجا ، قُلتُ: يا رسولَ الله ، مَنْ أصابَ من الخير شيئاً ما أصابه هذان ، قال : وما ذاك ؟ قالت : قُلتُ: لعَنْتُهما وسَبَبْتُهما ،

---

(١) أحمد " المسند " (ج١٢/ ص٣٧٥/ رقم١٥٨٦٦) وقال المحقّق : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات . وهو في " السّنن الكبرى " للنسائيّ (ج٦/ ص٥٠٧) سورة التّكوير.

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٦/ ص١٥٠) كتاب البرّ والصّلة .

(٣) المرجع السَّابق.

(٤) المرجع السَّابق.

(٥) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص٨٤) كتاب الأدب .

قال : أوما علمْتِ ما شارطتُ عليه ربّي ، قلتُ : اللهمّ إنّما أنا بشرٌ فأيّ المسلمين لعَنْتُه أو سببتُه فاجْعَله له زكاة وأجراً "[1] .

والحديث فيه تقييد المدعوّ عليه أن يكون مسلماً ، وإلاّ فقد دعا ﷺ على الكفّار والمنافقين ولم يكن دعاؤه لهم زكاة وأجراً .

وقد أخرجه مسلم من حديث أنس بن مالك وفيه تقييد آخر بأن يكون من دعا عليه بدعوة ليس لها بأهل ، قال ﷺ : " فأيّما أحد دعوتُ عليه من أمّتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهُوراً وزكاةً وقُرْبَة يُقرِّبُه بها منه يومَ القيامة "[2] .

فإن قيل : كيف يدعو ﷺ على من لا يستحِقُّ الدُّعاءَ عليه أو يسبُّه ونحو ذلك ؟! فالجواب أنّ للعلماء أقوالاً ملخّصها : أنّ المراد بقوله ﷺ : " ليس لها بأهل " أي عند الله في باطن الأمر ، ولكنّه في الظّاهر مستوجب للدّعاء عليه ، فالنَّبيُّ ﷺ يحكم بالظّاهر والله يتولّى السّرائر .

وقيل : كان ﷺ لا يغضب لنفسه وإنّما يغضب لله ، فيحمله غضبه على التّعجيل في معاقبة مخالفه أو الدُّعاءِ عليه ، ويؤيّد ذلك قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ : " والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قطُّ حتّى تُنْتَهَكَ حرماتُ الله ، فينتقم لله "[3] ، وعلى ذلك فقوله ﷺ : " ليس لها بأهل " من جهة تَعَيُّن التّعجيل ، وترك الصّفح عنه .

وقيل : المراد زَجْرُ المدعوّ عليه والمبالغة في رَدْعِه ونهيه واستعظام أمره ، وأنّه ﷺ بشر فيكون هذا ببَاعِثِ البشريّة ، وقد صرّح عن ذلك في غير حديث ، وهو موافق ومبيّن لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ... ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] .

وقيل : جرى على لسانه ﷺ بلا قصد ، أي ليس المراد الدّعاء عينه ، بل هو دعاء في

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٦/ ص١٥٠) كتاب البرّ والصّلة .
(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٦/ ص١٥٥) كتاب البرّ والصّلة .
(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص١٦) كتاب الحدود .

ظاهره ولكنّه في الحقيقة لا يقصد به الدّعاء ، وإنّما هو من الكلام الجاري على أَلْسُنِ العرب يقولونه ، وهم لا يريدون الدّعاء على المخاطب ، ونظير ذلك ، قولهم : قاتلك الله ! وويلك ! وويحك ! ولا أب لك ! وثكلتك أمّك ! ولا أمّ لك ! وتربت يداك ! ونحو ذلك من الألفاظ الّتي ظاهرها الذّم والدّعاء ، وباطنها المدح والثّناء .

فخاف ﷺ أن يصادف الدّعاء إجابة ؛ فسأل الله أن يجعل دعاءه رحمةً وقربةً وطهوراً وأجراً . واستدلّوا على ذلك بدعاء النّبيِّ ﷺ على يتيمة أمّ سُلَيْم وهي أمّ أنس فقد رآها ﷺ فقال : " آنتِ هِيَهْ[1]؟ لقَدْ كبِرْتِ ، لا كَبِرَ سنُّك "[2] .

ثمّ أعقب مسلم هذا الحديث بحديث فيه دعاء على معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وهو قوله ﷺ : " لا أَشْبَعَ الله بطنه "[3] وقد خَتَمَ به الباب دلالة على أنّهما بمعنى واحد ، فكما أنّ الدّعاء على اليتيمة لها زكاة وقربى ، فكذلك معاوية ـ رضي الله عنه ـ إذ ليس المقصود الدّعاء عليه ، وإنّما الدّعاء له . قال النّوويّ : " وقد فَهِمَ مسلم ـ رحمه الله ـ من هذا الحديث أنّ معاوية لم يكن مستحقّا للدعاء عليه ، فلهذا أدخله في هذا الباب ، وجعله غيره من مناقب معاوية ، لأنّه في الحقيقة يصير دعاء له "[4] .

ويعضّده قوله ﷺ لأمّ المؤمنين صفيّة ـ رضي الله عنها ـ : " عَقْرَى حَلْقَى "[5] والمعنى الظّاهر : عَقَرَ الله جسَدَها وأصابها بوجع في حلقها ، والمعنى المراد الدّعاء لها لا عليها ، قلت : وهو أشبه بالتّورية[6] من جهة إرادة المعنى الآخر .

(١) الهاء هاء السّكت .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٦/ ص١٥٤) كتاب البّر والصّلة .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٦/ ص١٥٦) كتاب البرّ والصّلة .

(٤) المرجع السّابق .

(٥) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٤/ ج٨/ ص١٥٣) كتاب الحجّ .

(٦) التّورية : هي الكلمة تحتمل معنيين فيستعمل المتكلّم أحد احتماليها ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله .

وكان ﷺ يومها يريد الرّجوع إلى المدينة ، فقالت صفيّة ـ رضي الله عنها ـ : " ما أراني إلاّ حَابسَتكم " تريد أن تنتظر طهرها لتطوف الوداع ، وظنّت أنَّ طواف الوداع لا يسقط عن الحائض ، فقال ﷺ : " عَقْرَى حَلْقَى ، أوما كُنْتِ طفْتِ يوم النّحر ؟ قالت : بلى ، قال لا بأس انفري " (١) .

ويعضده قوله ﷺ لأمّ سَلمَة : " تَرِبَتْ يَمينُكِ " أي افْتَقَرَتْ ، وليس المراد المعنى الأصلي لها ، وإنّما المراد الزّجر والدّعاء لها ونحو ذلك ، وكانت أمّ سُلَيْم والدة أنس بن مالك قد جاءت إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : " يا رسول الله ، إنّ الله لا يستحيي من الحقّ ، فهل على المرأة من غُسْل إذا احتلمت ، قال النَّبيُّ ﷺ : إذا رأت الماء ، فغطّت أمّ سَلمة ـ تعني وجهها ـ ، وقالت : يا رسول الله ، وتحْتَلمُ المرأةُ ؟! قال : نعم تَرِبَتْ يمينُك ، فبم يشبهها وَلدُها "(٢) .

واستهلّت أمّ سليم حديثها بقولها " إنّ الله لا يستحيي من الحقّ " تريد أن تَبْسُطَ عُذْرها في السّؤال عمّا تتحرج النّساء عن السّؤال عنه ، ولهذا قالت لها عائشة ـ رضي الله عنها ـ : " فَضَحْتِ النّساء "(٣) ولذلك فمن حِكَمِ تَعدُّد زوجات النَّبيِّ ﷺ رَفْعُ الحَرَجِ عن النّساء ـ ، فقد تولّت نساء النَّبيِّ ﷺ تعليم نساء المؤمنين .

ومن الجدير ذكره أنّ استشكال النّص في الكتاب والسُّنَّة إنّما جاء ليمتحن الله تعالى به النّفوس ، وليمحّص به القلوب ، وليبسّر الله تعالى للعلماء ما يرفع لهم به الدّرجات ، فما من مسألة ولا شبهة أُثيرتْ إلاّ وقد أجاب عنها علماؤنا السّلف قبل الخلف ، لعلّهم يهتدون ، أو ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه] لكنّ المرجفين يقرؤون الشُّبهات ويثيرونها

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٤/ ج٨/ ص١٥٣) كتاب الحجّ . والبخاري في " صحيح البخاري " (م١/ ج٢/ ص١٥١) كتاب الحجّ.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص٤١) كتاب العلم .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٢/ ج٣/ ص٢٢٤) كتاب الحيض .

ويزهدون في الإجابات ويخبّئونها ! أو كما قال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾ [يونس].

دعوى أنّ الحديث الشّريف يعارض جزم القرآن بمستقبل الإسلام

هناك من يرسم صورة قاتمة لمستقبل الإسلام والمسلمين ، ويصوّر أنّ هذه الأمّة قدرها ألاّ تنهض ، وأن تعيش على أمجاد الماضي ، ويؤصّل ذلك على أحاديث شريفة ، يسوقها على ظاهرها ، بعد أن أشكل عليه فهمها ، ليعارض بها جزم القرآن بمستقبل الإسلام من جهة ، ويقنّط النّاس من الخير من جهة أخرى ، وشرّ النّاس الّذين يقنّطون النّاس من رحمة الله .

ومن هذه الأحاديث الّتي يثيرونها ما رواه البخاري عن الزّبير بن عديّ ، قال : " أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجّاج ، فقال : " اصبروا فإنّه لا يأتي عليكم زمان إلاّ الّذي بعده شرٌّ منه حتّى تلقوا ربّكم ، سمعته من نبيّكم ﷺ "[1] .

ويظنّون أنّ الصّحابيّ أنس - رضي الله عنه - فهم التّعميم ؛ بدليل أنّه يخاطب جماعة من التّابعين ، والمعنى في ظنّهم أنّ كلّ زمان لا بدّ أن يكون ما بعده شرّ منه إلى قيام السّاعة ، وهذا كلام يورث اليأس في النّفوس !

والجواب ، ما الّذي يمنع أن يكون من بين الّذين شكوا لأنس صحابة ، وأنّه كان يعنيهم ؟! فإنّ عصر الحجّاج بن يوسف كان فيه غير صحابيّ من أصحاب رسول الله ﷺ ، وعلى ذلك فالحديث ليس على عمومه ، وإنّما يختصُّ بالصّحابة ، فأمّا من يأتي بعدهم فلم يُقْصَدْ في الخبر .

ولعلّ ما يؤيّد ذلك أنّ عصر عمر بن عبد العزيز ، وهو بعد زمن الحجاج بقليل لا يفضّل على زمن الحجّاج ، مع أنّ زمن عمر قد اشتهر فيه الخير وكثر، غير أنّه لم يكن في عصره أحد من أصحاب رسول الله ﷺ .

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٩٠) كتاب الفتن.

والحديث يُحمل على غير هذا المعنى ، فلعلمائنا فيه أقوال أُخَر تستحقّ أن تُطْلَبَ من مظّانها ، ولكن يستفاد من الحديث أنّ النّبيَّ ﷺ يخبر بتغيّر الأحوال وفسادها بعد عصر الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، فهو من أعلام النُّبوَّة ؛ لأنّ ذلك من الغيب الّذي لا يعرف بالعقل والرأي وإنّما يعرف بالنّقل والوحي .

ويؤيّد المعنى الّذي ذهبنا إليه من أنّ الحديث لا ينصّ على أنّ كلّ زمان ما بعده شرّ منه قطعاً إلى قيام السّاعة ، أنّه سيأتي زمان أفضل من كثير من الأزمنة المتقدّمة ؛ فقد أخبر ﷺ أنّه ستكون خلافة على منهاج النُّبوَّة ، قال ـ ﷺ : " ... ثمّ تكون مُـلْكاً جبريّة فتكون ما شاء الله أن تكون ثمّ يرفعها إذا شاء أن يرفعَها ، ثمّ تكون خلافة على منهاج النُّبوَّة "(١) .

ومن الأحاديث الّتي يسوقونها لتعيش هذه الأمّـة في يأس قوله ﷺ : " بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء "(٢) والحديث ليس فيه شيء يوهم بما ذهبوا إليه من أنّ مصير الإسلام إلى ضعف ؛ فالمعنى أنّ أهل الإسلام أَوّل الأمر كانوا قلّة ، وهم في آخر الزّمان كذلك إلاّ أنّهم خِيَار(٣) .

قلتُ : وكثرة المسلمين أو قلّتهم لا تعني قوّة للإسلام ولا ضعفاً ؛ فالإسلام دين الله تعالى ، ودين الله منصور بخِيَار هذه الأمّة على قلّتهم بإذن الله إلى قيام السّاعة .

والحديث فيه بشارة إلى استمرار هذا الدّين إلى آخر الزّمان ، وأنّ الّذين يشهدون غربة الإسلام ويتمسّكون به لهم منزلة عظيمة عند الله تعالى !

ولا أعلم حديثاً صحيحاً يُفهم منه أنّ النَّبيَّ ﷺ يدعو الأمّة إلى القنوط ، فلا يُتَصوَّرُ ذلك ، وقد أُنْزِلَ عليه وعد الله للمؤمنين ـ عموم المؤمنين ـ بالنّصر : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الرّوم] والنّجاة : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا

---

(١) أحمد " المسند " (ج١٤/ ص١٦٣/ رقم١٨٣١٩) وإسناده صحيح .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ" (م١/ ج١/ ص١٧٦) كتاب الإيمان .

(٣) انظر " تأويل مختلف الحديث " ابن قتيبة (ص١٠٩) .

عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يونس] والدّفاع عنهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحجّ] والولاية لهم : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة] والمعيّة : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال] والاستخلاف في الأرض : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ... ﴿٥٥﴾ ﴾ [النّور] .

ولا يتصوّر أنّ النّبيَّ ﷺ يدعو إلى اليأس وقد أنزل الله عليه وعده بإحباط كيد الكائدين : ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطّارق] وردّ مكر الماكرين : ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال] .

كما أنّ هناك آيات كثيرة جزمت بانتصار الإسلام ، والتّمكين له ، وإظهاره على الدّين كلّه ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التّوبة] ووردت هذه الآية في سورة الصّف باللفظ نفسه ، ووردت في سورة الفتح بلفظ ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح] .

كما جزمت الآيات بأنّ الكفر إلى زوال لا محال، وأنّ الغلبة لهذا الدّين : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾ [آل عمران] وأن أعداء الإسلام لن يفلحوا ، وأنّ العاقبة للمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الأنعام] .

ولكن لا بُدَّ من عقبات وكبوات ، ولا بُدَّ من تنغيص وتمحيص ، ولا بدّ من بأساء وضرّاء : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة] .

ومتى كانت هذه الأمّة على ما كان عليه النّبيّ ﷺ من نُصْرةٍ لدين الله تحقّق لها وَعْدُ الله بالنّصر : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمّد] .

دعوى أنَّ الحجّ أشبه بالوثنيَّة

قالوا : يطوف المسلمون حول حَجَر ، ويسعون بين حجرين ، ويصعدون إلى عرفة فيقعدون على حَجَر ، ثمّ يفيضون إلى مزدلفة فيلتقطون حجارة ليضربوا في مِنَى حجراً بحجر، قالوا : والأغرب أنّهم يقبّلون حجراً ويضربون حجراً آخر ! وهذا كلّه أشبه بالوثنيَّة .

هذه الشّبهة سمعتها أوّل مرّة في صعيد عرفات من أحد الفضلاء ، ولم أسمع الإجابة عنها ، فطاش عقلي ؛ كيف خطرت هذه الشُّبهة على بال شياطين الإنس !

ونقض هذه الأضاليل لا يحتاج إلى جهد جهيد أو عناء مُعَنًّى ، فالله تعالى فرض علينا الحجّ في العمر مرَّة ، وقد ثبتت فرضيته في الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمَّة : أمَّا الكتاب ، فقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ ﴿٩٧﴾ ﴾ بالله وبما فرضه من الحجَّ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران] ومن السُّنَّة ، قوله ﷺ : " قد فَرَضَ الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا "[1] وقوله ﷺ " بني الإسلام على خمس : شهادةِ أنْ لا إله إلاّ الله وأنَّ محمَّداً عبْده ورسوله ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، وحجِّ البيت ، وصوم رمضان "[2].

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٥/ ج٩/ ص١٠٠) كتاب الحجّ .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النَّوويّ " (م١/ ج١/ ص١٧٧) كتاب الإيمان . والبخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص٨) كتاب الإيمان .

فالحجّ ركن من أركان الإسلام ودعائمه العظام نقوم بمناسكه طَاعَةً لله لأنَّ الله أمر بذلك ، ونؤدِّيه اتِّباعاً لسنَّةِ نبيِّه ﷺ لأنّه فعل ذلك ، فقد ثبت عنه ﷺ أنَّه قال : " لتأخذوا مناسككم فإنّي لا أدري لعلّي لا أحجّ بعد حجَّتي هذه "(١) واللام في " لتأخذوا " : لام الأمر . والتّقدير : خذوا عنّي هيأة الحجّ وصفته من أقوال وأفعال . وهذا الحديث أصل في مناسك الحجّ ومشروعيتها ، فنحن المسلمين لا نعبد الله إلاّ بما أَذِن به على لسان نبيّه.

ونحن لا نعظِّم هذه الأماكن ، وإنّما نعظِّم أمرَ الله ورسوله ، وهذا عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ يردُّ على هذه الشّبهة منذ قرون ، ويعلّم المشركين أنّ المسلمين لا يستلمون الحجر الأسود من باب تعظيمه كما فعلت العرب في الجاهليَّة ، وإنَّما هو من باب الاتِّباع لفعل رسول الله ﷺ ، أخرج البخاري عن عابِس بن ربيعة ، عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنَّه جاء إلى الحجر الأسود فقبَّله ، فقال : " إنِّي أعلم أنَّك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ ، ولولا أنِّي رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقَبِّلك ما قبَّلْتُك "(٢) فالحجر بذاته لا ينفع ولا يضرّ إلاّ بإذن الله ، والَّذي ينفع عند الله هو امتثال أمر الله والاستنان بنبيِّه محمَّد ﷺ .

وعمر ـ رضي الله عنه ـ إنَّما قال ذلك دفعاً لما كان عليه أهل الجاهليَّة من اعتقاد في عبادة الأوثان ، فنصَّ على أنَّ تقبيل الحجر ليس عبادةً له ، وإنَّما هي عبادةٌ لله تعالى باتِّباع أمر الله ورسوله ﷺ . فلا يقصد من استلامه إلاّ تعظيم أمر الله والأخذ بسنَّة نبيِّه ﷺ ، ولولا الاقتداء برسول الله ﷺ ما قبَّله عمر ـ رضي الله عنه ـ وما تابعه المسلمون .

وقول عمر وفعله ـ رضي الله عنه ـ يُؤْخذ منه بيان السُّنن المشروعة ومتابعتها والحثّ على الاقتداء بها ، فهي حجَّة على من بلغته وإن لم يَفْقَهْ عِلَلَها . كما يُؤْخذ منه حُسْنُ السَّمع والطّاعة لأمر الله ورسوله ﷺ في أمور الشَّرع ، وحسن الاتِّباع للنَّبيِّ ﷺ حتَّى لو خفيت علينا الحكمة من وراء هذه الأمور .

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النَّووي " (م٥/ ج٩/ ص٤٤) كتاب الحجّ .
(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج٢/ ص١٦٠) كتاب الحجّ .

ومن حِكَم مشروعيَّة استلام الحجر الأسود زيادة على ما تقدَّم ما بيَّنه قولُ النَّبيِّ ﷺ : "ليبعثَنَّ اللهُ الحجرَ يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهدُ لمن استلمه بحقّ "[1] وقول النَّبيِّ ﷺ هذا موافق لقوله تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ﴾[الزّلزلة] فالحجر الأسود قطعة من الأرض وسوف يحدِّث أخباره .

ولا شكّ أنّ الحجارة تتفاضل كما تتفاضل المساجد والأماكن والشّهور والأيّام والليالي... وليس لنا من الأمر شيء ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب] فإذا أُمِرْنَا أن نستلم حجراً استلمناه ، وإذا أمرنا أن نضرب بحجر فعلنا ، وإذا أمرنا الله تعالى أن نستقبل قبلة استقبلناها ، وإذا أمرنا أن نتحوّل عنها إلى قبلة أخرى سمعنا وأطعنا ؛ فهذا من كمال الإيمان وتمام العبوديّة لله وحده .

ومهما قيل حول حكمة مشروعيَّة هذه المناسك فالقول الفصل أنّها أمور تعبديَّة يجب التّسليم فيها للشَّارع نؤدِّيها طاعة لله تعالى وتعظيماً لأمره .

***

(١) أحمد " المسند " (ج١٣/ ص١٨٧/ رقم٢٦٤٣) بإسناد صحيح عن ابن عبّاس .

المبحث الثّاني

" أمّتكم هذه جعل عافيتها في أوّلها "

﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة]

رضيهم الله لدينه ، أفلا نرضاهم لدنيانا ؟!

في كتاب الإيمان باب بعنوان (علامة الإيمان حبّ الأنصار) أورد فيه البخاري حديثاً عن عبد الله بن جابر قال : سمعت أنساً ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال : " آية الإيمان حبّ الأنصار وآية النفاق بُغْضُ الأنصار "(1).

قلت : وإن كان المراد في الحديث الشّريف الصّحابة من أهل المدينة ، إلاّ أنّ الصّحابة كلّهم أنصار لله ورسوله ﷺ ؛ فالمهاجرون كانوا أنصاراً لله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحشر].

وعقيدتنا أنّهم عدول لا نفرق بين أحد منهم ، بل نتبعهم بإحسان ؛ لننال رضا الله، فهذا واجب كلّ مسلم ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ...﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة].

وقد أوجب الله علينا الدُّعاءَ والاستغفار لهم ، وألاّ يكون في قلوبنا غِلٌّ على أحد منهم ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر].

---

(1) البخاري "صحيح البخاري " (م1/ ج1/ ص10) كتاب الإيمان .

واعجَبْ كيف يذكرهم أقوام بسوء وهم يقرؤون كلام الله تعالى ! حتّى الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ لم يَسْلَمْ من ألسنتهم ، مع أنّه لا يتقدّم عليه بالفضل أحد إلا الأنبياء والمرسلون ! فما طلعت الشّمس ولا غربت بعد النّبيّين والمرسلين على رجل أفضل منه ، رجل سَلِمَ من عتاب الله تعالى ، بل وامتدحه في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ...(٤٠) ﴾ [التّوبة] .

والذين يظنّون ظنّ السّوء ببعض أصحاب النّبيّ ﷺ ويجرحونهم فريقان : فريق جاهل ، وفريق مقلّد لآبائه وأجداده ، وليس للفريقين عُذْرٌ عند الله ؛ فالجهل بالصّحابة وقدرهم لا يعفي أحداً من السّؤال أمام الله ، فقد نهى الله تعالى كُلَّ أحد عن أن يقول ما ليس له به علم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا (٣٦) ﴾ [الإسراء].

والتّقليد الّذي هم عليه ، وإمهال الله لهم ليس دليلاً على رضا الله عنهم : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) ﴾ [الأنعام].

وإذا تقرّر أنّ الله نهى عن اتّباع الإنسان ما ليس له به علم ؛ فلا يكون لمخلوق أن يرمي أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ بما لم يوقن أنّه فيه ، ولا أن يحكم عليه بالظّن : ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ... (٣٦) ﴾ [يونس].

فالحكم بالظّنّ لا يحلّ ، قال تعالى ذامّاً لأقوام : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) ﴾ [الجاثية] وقال تعالى : ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) ﴾ [الزّخرف] وقال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ (١٠) ﴾ [الذّاريات] ، وقال تعالى: ﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ... (١٢) ﴾ [الحجرات] وقال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا

﴿ تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [النّجم].

فمن قدح في الصّحابة بعد أن جاءه من ربه الهدى ، متمسكاً بحجج واهية تمسّك الرّضيع بالظّئر ، فأمره إلى الله ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة] وكلّ من خالف الله ورسوله فلا برهان له أصلاً ؛ وإنما كلّف الإتيان ببرهان تبكيتا وتيئيساً !

وليس عذراً التّقليد ، فالتّقليد الأعمى ذمّ الله به الكفّار في غير آية ، ومن الآيات التي نَعَت هؤلاء المقلّدين ، وذمّت طريقتهم ، قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المائدة] وقوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزّخرف] والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وكلّها تدلّ على منع التّقليد ، وضلال متّبعه سواء قلّد مُحِقّاً أو مُبْطلاً ؛ فالمقلّد قد هيّأ نفسه أن يتّبع سبيل التّقليد بعصبيّة مقيتة ، وصدق الله إذ قال : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ...﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام] .

قلت : وليس في كتاب الله تعالى آية تدلّ على عدم عدالة أحد من الصّحابة ، ومن قال خلاف ذلك ، فهو من وَضْعِ القرآن في غير موضعه ، وتفسيرِهِ بغير معناه ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب].

ولَرُبَّ معترضٍ من هؤلاء الّذين ما قدروا أصحاب النَّبيِّ ﷺ حقّ قدرهم يحتجّ بآية أو حديث في إكفاره لهم ، فمنهم من يتعلّل بقول النَّبيِّ ﷺ : " ليَرِدَنَّ عليَّ الحوضَ رجالٌ ممّن صاحبني حتّى إذا رأيتهم ورُفِعُوا إليّ اخْتُلِجُوا دُوني ، فلأقولنّ : أيْ ربّ ، أُصَيْحابي ،

أُصَيحابي ، فليُقَالنّ لي : إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك "[1].

ويظنّون أنّ هذا الحديث الشّريف يُدين أصحاب النّبيِّ ﷺ ، ويجيئون به كدليل يحتجّون به على إكفارهم لأصحاب النّبيِّ ﷺ : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [مريم].

والحديث صحيح رواه مسلم عن أنس بن مالك ، ورواه غيره بأسانيد وطرائق متكاثرة ، وهو عند البخاري عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: خطب رسول الله ﷺ فقال : " ... ألا وإنّه يجاء برجال من أمّتي فيُؤخذُ بهم ذات الشّمال فأقول : يا ربِّ ، أصيحابي، فيقال : إنّك لا تدري ما أحدثوا بَعْدك ، فأقول كما قال العبد الصّالح : ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ ... ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة] فيُقال: إنّ هؤلاء لم يزالوا مرتدّين على أدبارهم منذ فارقتهم "[2].

وهذا الحديث من أعلام النُّبوّة لإخبار النَّبيِّ ﷺ عن أقوام يرتدّون على أدبارهم بعد موته ، وهم الأعراب المنافقون الّذين ارتدّوا في عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ، ويدلّك على ذلك ما وقع في رواية البخاري " فيُقال إنّ هؤلاء لم يزالوا مرتدّين على أدبارهم منذ فارقتهم " ويدلّك قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [التّوبة].

وأصحاب النَّبيِّ ﷺ غير معنيين بالحديث أو الآية ، ولعمري إنّهم خيرٌ من مِلْءِ الأرض من هؤلاء الّذين يذكرونهم بسوء ، فيغدون في سخط الله ويروحون في نقمته !

والصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ أَحبُّ إلى كلّ مؤمن من نفسه وآله وماله ! ولا أدري

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٥/ ص٦٤) كتاب الفضائل .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٥/ ص١٩١) كتاب تفسير القرآن .

كيف لا نرضاهم لدنيانا ، وقد رضيهم الله لدينه ؟! هذا هو الحقّ ، ومن لم ينفعه الحقّ أضرّه الباطل ! أو كما قال تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس] أي كيف تصرفون عن الحقّ والإيمان مع قيام الحجّة والبرهان !

ليس في أصحاب رسول الله ﷺ نُخالة !

دخل الصحابي الجليل عائذ بن عمرو ذات يوم على عبيد الله بن زياد ينصح له ، ويبلِّغه العلم الذي عنده ، فكان ممّا نصحه به ألّا يَأْخُذَ رَعِيَّتَهُ بالعنف بحيث يؤذيها ويحطمها بل يرفق بها ، فلمّا سمع ذلك كره مقالته ، ووصفه أنّه من نخالة أصحاب الرَّسول ﷺ وليس من فضلائهم ، فنصَّ الصحابيُّ الجليل عائذ ـ رضي الله عنه ـ على أنّ الصحابة كلّهم صَفْوةٌ عُدولٌ قدوة لا نخالة فيهم ! وهذا من صادق الكلام الذي أدين الله به ، ويجب أن ينقاد له كل مسلم ؛ فهم المُثْنى عليهم في التوراة والإنجيل والقرآن ، الّذين غاظ الله بهم الكفار ، الذين ظاهرهم كباطنهم ، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ... ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح] وقال تعالى : ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة].

روى مسلم عن الحسن ، أنّ عائذ بنَ عمرو ـ (وكان من أصحاب رسول الله ﷺ) دخل على عبيد الله بن زياد ، فقال : " أي بنيّ ، إنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : إنَّ شرَّ الرّعاء الحطمة . فإيّاك أن تكون منهم . فقال له : اجلس ، فإنّما أنت من نُخالة أصحاب محمّد ﷺ فقال : وهل كانت لهم نُخالة ! إنّما كانت النّخالة بعدهم ، وفي غيرهم "(١).

قلت : وصدق رسول الله ﷺ إذ قال : " وإنّ أمّتكم هذه جُعِلَ عافيتها في أوّلها "(٢) فمن أراد أن يدرك العافية فليكن على ما كان عليه الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ فإنّ التشبّه

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٦/ ج١٢/ ص ٢١٥) كتاب الإمارة .
(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ "(م٦/ ج١٢/ ص٢٣٣) كتاب الإمارة .

بالكرام فلاح .

توقير أمهات المؤمنين

أوجب الله تعالى تعظيم الفاضل في الدُّنيا على المفضول إنساناً كان أو جماداً ، مثل تفضيل النَّبيِّ ﷺ على سائر النّبيّين ، وتفضيل المسجد الحرام على غيره من المساجد ، وتفضيل سائر الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ على سائر التّابعين ... فإذا تقرّر ذلك ، فإنّا لا نرى أَوْجَبَ بعد تعظيم النَّبيِّ ﷺ من تعظيم زوجاته أمّهات المؤمنين ، فلا أحد يستحقّ التَّعظيم بعد النَّبيِّ ﷺ أكثر منهنّ بدليل قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ... ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] فأوجب الله لهنّ حقّ الأمومة على كلّ مؤمن ، ولا يخفى ما للأمِّ من عظيم حقّ ، فكيف بها إذا كانت أمّاً للمؤمنين ، وزوجة لسيِّد المرسلين ، وخاتم النّبيّين !

وفضلاً عن ذلك أمّهات المؤمنين لهنّ من القرب من النَّبيِّ ﷺ في الدّنيا والآخرة ما يشهد لذلك ، فقد اخترن الله ورسوله والدّار الآخرة : ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب] فلهنّ أرفع الدّرجات عند الله ورسوله وعند المؤمنين ، وهنّ أزواجه في الآخرة يقيناً .

ولم يحلّ الله تعالى لأحد أن يتزوّجَ من نساء الرّسول ﷺ من بعده ، قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] فنساء الرّسول ﷺ لَسْنَ كأحد من النّساء ! قال تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ...﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

أمّا مَنْ يحتجُّ بقول النَّبيِّ ﷺ : " ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرّجل الحازم من إحداكنّ "[1] ويعتقد أنّه أكمل عقلاً وديناً من أمّهات المؤمنين ، فهذه دعوى ،

(١) البخاري "صحيح البخاري " (م١ / ج١/ ص٧٨) كتاب الحيض .

وعلّة النّقص لا يجهلها مسلم ، فنقص العقل كون شهادة الرجل بشهادة امرأتين ، ونقص الدّين كون المرأة إذا حاضت لا تصوم ولا تصلّي . ونقص العقل والدّين في هذين الموضعين (الشهادة والحيض) ليس موجباً نقص الفضل بالكليّة ، فالنّاس يتفاضلون في غير ذلك .

وهذا الحديث الشّريف خاطب فيه النّبيُّ ﷺ معشر النّساء ، ولم يخاطب فيه أمّهات المؤمنين ، فقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري ، قال :

" خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلّى فمرّ على النّساء فقال : يا معشر النّساء تصدّقنَ فإنّي أريتكنّ أكثر أهل النّار ، فقلنَ : وبمَ يا رسول الله ؟ قال : تكفرْنَ العشير ، ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أذهبَ للبّ الرّجل الحازم من إحداكنّ . قلْنَ : وما نقصانُ ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال : أليس شهادةُ المرأةِ مثلَ نصف شهادةِ الرّجل ؟ قُلنَ : بلى . قال : فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تُصلّ ولم تصم ؟ قُلْنَ : بلى . قال : فذلك من نقصان دينها "[1].

ما أحوج الأمّة أن تعود نساؤها كأمّهات المؤمنين ! وما أحوجنا إلى جيل كأمثال الصّحابة ! وليس هذا على الله بعزيز . وليتحقق ذلك ، يجب أن تقرأ نساؤنا ما نزل بحقّ أمّهات المؤمنين وحقهنّ ، ويجعَلْنَه واقعاً في حياتهنّ ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ... ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب] وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ... ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى خطاباً لنبيّه ﷺ : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ

---

(١) البخاري "صحيح البخاري " (م١ / ج١/ ص٧٨) كتاب الحيض ، وأخرجه في كتاب الزّكاة. وأخرجه مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م١/ ج٢/ ص٦٥) كتاب الإيمان .

زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ ... ﴿٣١﴾ ﴾ [النور].

والمؤمنة حريصة على معرفة ما كان عليه السّلف الصّالح ، وما كانت عليه أمّهات المؤمنين ؛ فلها فيهنّ بعد رسول الله ﷺ أسوة حسنة ! ولعمري إنّ الفقه في الدّين علامة خير ، قال النّبيُّ ﷺ : " من يرد اللهُ به خيراً يفقّهه في الدِّين "(١) ، وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرّعد].

ولا أدري كيف يجرؤ أحد على رمي أمهّات المؤمنين ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النور] فما بالك إذا كانت المحصنة الغافلة المؤمنة أمّاً من أمّهات المؤمنين ، وزوجة لسيّد المرسلين ﷺ ، ومن آل بيته المطهّرين !

الأدلّة على أنّ أمّهات المؤمنين من آل البيت

قال الله تعالى في حَقِّ أمّهات المؤمنين وبيان فضلهنّ : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

هذه جملة من الآداب أمر الله تعالى بها نساء النّبيِّ ﷺ، ونساءُ المؤمنين تبعٌ لهنّ ، فقد أراد الله تعالى أن يجعلهنّ مثلاً صالحاً وأسوة حسنة للنساء من بعدهنّ فطهّر ظاهرهنّ

(١) البخاري : " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص١٤٩) كتاب الاعتصام بالكتاب .

وباطنهنّ ، فمن يلوك بلسانه ويلوي بشدقه سيرة أمّهات المؤمنين اللاتي أذهب الله عنهنّ الرّجس وطهرهنّ تطهيراً فقد افترى ! فهذا نصّ صريح في دخول أزواج النّبيِّ ﷺ في أهل البيت لأنّهنّ سبب نزول الآية .

أمّا من ذهب إلى أنّ أمّهات المؤمنين غير مخاطبات بالآية ، وأنهنّ خرجن من أهل البيت بدليل أنّ الله تعالى، قال: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ﴾ولم يقل: عنكنّ ، وقال : ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ ولم يقل : ويطهركنّ .

فالجواب أنّ المذكّر غلب على المؤنّث ذلك أنّ النّبيَّ ﷺ يدخل في أهل البيت ، ثمّ كيف لا يدخلْنَ في أهل البيت والسّياق كلّه في ذكرهنّ ؟!

فإن قالوا : لكنّ النّبيَّ ﷺ نصّ على أنّ أهل البيت هم : الحسن والحسين ، وفاطمة وعليّ ، بدليل ما أخرجه الإمام مسلم عن صفيّة بنت شيبة ، قالت : قالت عائشة : " خرج النّبيُّ ﷺ غَداةً وعليه مِرطٌ (كساء) مُرَحَّلٌ من شعر أسود ، فجاء الحسن بن عليّ ، فأدخله ، ثمّ جاء الحسين ، فدخل معه ، ثمّ جاءت فاطمةُ فأدخلها ، ثمّ جاء عليّ فأدخله ، ثمّ قال : إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا "(١).

قلنا : فهل نَصَّ الحديثُ على أنّ هؤلاء الأربعة ـ رضي الله عنهم ـ هم أهل البيت وحدهم ؟! قطعاً الجواب لا ؛ فهناك أحاديث ثابتة بالتّواتر القطعيّ الدلاّلة كابراً عن كابر إلى رسول الله ﷺ أنّ أمّهات المؤمنين من آل بيته ، منها ما أخرجه مسلم عن أبي حُمَيْد السَّاعديّ أنّهم قالوا : " يا رسول الله ، كيف نصلّي عليك ؟ قال : قولوا : اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى أزواجه وذُرِّيَّته كما صلّيتَ على آل إبراهيم ، وبارك على محمّد وعلى أزواجه وذُرِّيَّته كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيدٌ "(٢).

(١) مسلم : " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٥/ ص١٩٤) كتاب الصّحابة .

(٢) مسلم" صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٢/ ج٤/ ص١٢٧) كتاب الصّلاة ، والبخاري " صحيح =

وهذا الحديث احتجّ به العلماء ومنهم ابن عبد البرّ على أنّه مفسِّرٌ لقول النَّبيِّ ﷺ : "قولوا : اللّهُمّ صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد ، كما صلّيت على آل إبراهيم إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ ، اللهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد ، كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد "[1].

ومنها قول النَّبيِّ ﷺ ، وهو على المنبر : " يا معشرَ المسلمين ، من يعذرُني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ؟! فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيرا "[2] والمعنى من يقوم بعذري إن جازيت من آذاني في أهلي (عائشة) على قبيح صنعه ، وقيل المعنى : من ينصرني .

ومنها ما حدّث به زيد بن أسلم حصين بن سَبْرة ومن معه من أنّ النَّبيَّ ﷺ قام يوما خطيباً بماء يدعى خمّاً بين مكة والمدينة ، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه كان ممّا قاله ﷺ : "وأنا تارك فيكم ثَقَلين : أوّلها ، كتاب الله ، فيه الهدى والنّور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، فحثّ على كتاب الله ، ورغّب فيه ، ثمّ قال : وأهل بيتي أذكّركم اللهَ في أهل بيتي ، أذكّركم اللهَ في أهل بيتي ، أذكّركم اللهَ في أهل بيتي ، فقال له حصين : وَمَنْ أهلُ بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصّدقة بعده ... "[3].

فنساء النَّبيِّ ﷺ من أهل بيته الّذين يساكنونه ويعولهم ، فإن قالوا : لكنّ النَّبيَّ ﷺ نصّ على أنّ أهل بيته من حُرِمَ الصَّدقة بعده ، وهم: " آل عليّ ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عبّاس "[4].

= البخاري " (م٤/ ج٧/ ص١٥٦) كتاب الدّعوات .

(١)مسلم" صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٢/ ج٤/ ص١٢٧) كتاب الصّلاة.

(٢) البخاري" صحيح البخاري " (م٣/ ج٥/ ص٧) كتاب تفسير القرآن ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٩/ ج١٧/ ص ١٠٩) كتاب التّوبة.

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٥/ ص١٧٩)كتاب فضائل الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

(٤) المرجع السَّابق.

فالجواب، أنّ زوجاته أيضا ممّن تحرم عليهنَّ الصّدقة ، قال ابن قيّم الجوزيّة : " تحريم الصّدقة على أزواج النَّبيِّ ﷺ ليس بطريق الأصالة ، وإنّما هو تبعٌ لتحريمها عليه ، وإلاّ فالصّدقة حلال لهنَّ قبل اتّصالهنّ به ، فهنّ فرع في هذا التّحريم "(١).

ويؤيّـد ذلك ما أخرجه البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ : " ... فخرج النّبيّ ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة ، فقال : السّلام عليكم أهلَ البيت ورحمة الله ، فقالت : وعليك السّلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلك بارك الله لك ؟ فتَقَرّى (فَتَتَبَّعَ) حُجَرَ نسائه كُلّهُنّ يقول لهُنّ كما يقول لعائشة ، ويقُلْنَ له كما قالت عائشة "(٢).

المبرّأة من الله عائشـة صدّيقـة الأمّـة وأمّ المؤمنين

قال رسول الله ﷺ " بحسب امرئ من الشّرّ أن يحقِرَ أخاهُ المسلم ، كلُّ المسلم على المسلم حرام : دمُهُ ، ومالُهُ ، وعرضُهُ "(٣) فإذا كانت أعراض المسلمين محرّمة علينا ، فحرمة أعرا ض أمّهات المؤمنين أشدّ حرمة !

ويموت قلبك من كمدٍ حين تعلم أنّ أقواماً تَتَقَرَّبُ إلى الله بِلَعْنِ أمّ المؤمنين عائشة ! ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الزّخرف].

أخرج أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : " ليس المؤمن بطعّان ، ولا بلعّان ، ولا الفاحش البذيء "(٤).

---

(١) ابن قيّم الجوزيّة " جلاء الإفهام " (ص١٣٤) وقد كتب ابن قيّم الجوزيّة فصلا تحت عنوان : من هـم آل النّبيّ ﷺ ؟ وذكر أنّه اختلف في آل النّبيّ ـ ﷺ ـ على أربعة أقوال ، وذكر هذه الأقوال وساق حججها ، وبيّن ما فيها من الصّحيح والضّعيف .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٦/ ص٢٥) كتاب التّفسير .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٦/ ص١٢٠) كتاب البرّ والصّلة .

(٤) أحمد " المسند " (ج٤/ ص٥٥/ رقم٣٨٣٩) ورواه التّرمذي عن محمّد بن يحيى الأزدي ، عن محمّد بن =

كيف يخفى على هؤلاء أنّ الله تعالى أنزل عذرها من السّماء في القرآن ، وأنّها جُعِلت طيّبة لطيّب ، قال تعالى :﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور] وحيث كان النّبيُّ ﷺ أطيب الطيّبين اتّضح أنّ الصّدّيقة بنت الصّدّيق كانت من أطيب الطّيبات ، وأنها بريئة بشهادة الله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ [النّور] فهذا نصّ صريح على براءتها ممّا رماها به أهل الإفك.

ولا يخفى ما في اسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليهم وشرفهم ، والآية الكريمة تحمل على معان كثيرة مآلها إلى تنزيه الصّدّيقة بنت الصّدّيق ، فما كان الله ليجعلها زوجة لأحبِّ الخلق إليه لولا أنّها طاهرة من سلالة طاهر .

فليحذر الذين يرمون عائشة ـ رضي الله عنها ـ ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور] فبراءة عائشة ـ رضي الله عنها ـ من الإفك براءة قطعيّة بنص القرآن الكريم ، وبأحاديث شريفة صحيحة ، لا سقيمة ولا معلولة ، فلا عذر لمرتاب أبداً !

ومن رمى عائشة ـ رضي الله عنها ـ فكأنّما ترك كلام الله وراء ظهره ، فالله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النّور] أو ردّ القرآن الكريم ، لأنّ الله يقول : ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النّور] فمن وقع في ذلك فقد وقع بين مخالفة الله وردّ كلامه تبارك وتعالى .

أخرج البخاري عن عروة عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ خطب النّاس فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : " ما تشيرون عليّ في قوم يَسُبُّون أهلي ما علمت عليهم من سوء قطّ "[1].

= سابق في " الجامع الكبير " (م٢/ ص٥٢٠/ رقم١٩٧٧) ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، وقد روي عن عبد الله من غير هذا الوجه .

(١) البخاري "صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص١٦٣) كتاب الاعتصام .

وعن عروة قال : " لمّا أُخبِرَت عائشة بالأمر قالت : يا رسول الله ، أتأذن لي أن أنطلق إلى أهلي ؟ فأذِنَ لها ، وأرْسَلَ معها الغلام ، وقال رجل من الأنصار : سبحانك ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم "(١).

ولا يخفى أنّ الطّعن في أمّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ القصد منه الطّعن في كتاب الله تعالى الذّي برّأها ، والسُّنَّة النَّبويَّة الّتي رَوَتْها عن رسول الله ﷺ.

طرف من خصائص أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ الصّديقة بنت الصّديق

عائشة بنت أبي بكر الصّديق ، أُمُّها الصّحابيّة الجليلة أمّ رومان ، وُلِدَتْ عائشة بعد المبعث بأربع أو خمس سنين ، فقد ثبت أنّ النَّبيَّ ﷺ تزّوجها وهي صغيرة ، ومات عنها وهي صغيرة ، فقد أخرج مسلم عن الأسْود ، عن عائشة ، قالت : " تزوَّجها رسول الله وهي بنت ستٍّ(٢)، وبنى بها وهي بنْتُ تسْع ، ومات عنها وهي بنْتُ ثمانَ عشرة "(٣).

وعائشة ـ رضي الله عنها ـ لها من الخلال والخصائص ما يَضِيقُ المقام عن ذكره ، منها أنّها كانت أحبّ أزواج النَّبيِّ ﷺ إليه وبنت أحبّ خلق الله إليه ، فقد ثبت في الصّحيح عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ : " أنّ النَّبيَّ ﷺ بعثه على جيش ذاتِ السّلاسل ، فأتيته ، فقلت : أيّ النّاس أحبّ إليك ؟ قال : عائشة ، فقلت : من الرِّجال ؟ فقال : أبوها ..."(٤).

ومن خصائصها أنّ الملك أرى صورتها للنَّبيِّ ﷺ في قطعة من جَيِّد الحرير قبل أن يتزوّجها ، أخرج البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّ النَّبيِّ ﷺ قال لها : " أريتُك في المنام مرّتين أرى أنّك في سَرَقَة من حرير ، ويقول : هذه امرأتك فأكشفُ فإذا هي أنت ، فأقول : إن يك هذا من عند الله يُمْضِه "(٥).

---

(١) البخاري "صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص١٦٣) كتاب الاعتصام.

(٢) وفي رواية أنّه تزوّجها وهي بنت سبع سنين ، والجمع بأنها أتمّت السّادسة ودخلت في السّابعة .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٥/ ج٩/ ص٢٠٨) كتاب النّكاح .

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٥/ ص١١٣) كتاب المغازي .

(٥) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص٢٥٢) كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه في كتابيّ =

ومن خصائصها أنّه وصلها السّلام من جبريل ـ عليه السّلام ـ ، فقد قال لها رسول الله ﷺ يوماً : " يا عائش ، هذا جبريلُ يُقْرِئُك السّلامَ ، فقلت : وعليه السّلام ورحمة الله وبركاته "(1).

ومن خصائصها أنّ الوحي كان ينزل على رسول الله ﷺ وهو في لحافها ولم يكن هذا لغيرها ، فقد ثبت أنّه ﷺ قال : " يا أمَّ سلمة ، لا تؤذيني في عائشة ، فإنّه والله ما نزل عليّ الوحيُ وأنا في لِحَاف امرأة منكنّ غيرها "(2).

ومن خصائصها غزارة علمها ، فقد كان كبار الصّحابة إذا أشكل الأمر عليهم يسألونها فيجدون عندها علماً وفقهاً ، قال مسروق : " رأيتُ مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض "(3).

ومن خصائصها أنّ الله تعالى لمّا أنزل على نبيّه آية التّخيير بدأ بها ، فقد ثبت في الصّحيحين أنّ النّبيَّ ﷺ قال لها : " يا عائشة ، إنّي ذاكر لك أمراً فلا عليك أنْ تعْجلي فيه حتّى تسْتأمري أبويك ... فقلت : أوفي هذا استأمر أبويّ فإنّي أريد الله ورسوله والدّار الآخرة "(4) فاسْتنَّ بها أزواج النّبيِّ ﷺ ، وفعلن ما فعلت .

ومن خصائصها ما أخرجه مسلم عن عائشة : " أنّ النّاس كانوا يتَحرّون بهداياهم يوم

= النّكاح والتّعبير ، وأخرجه مسلم في "صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٥/ ص٢٠٢) كتاب فضائل الصّحابة .

(١) البخاريّ "صحيح البخاريّ " (م٢/ ج٤/ ص٢١٩) كتاب أحاديث الأنبياء ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص٢١١) كتاب فضائل الصّحابة وكلاهما عن أبي سلمة عن عائشة .

(٢) البخاري "صحيح البخاريّ " (م٢/ ج٤/ ص٢٢١) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٣) ابن حجر " الإصابة " (م٤/ ج٨/ ص١٤٠).

(٤) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٥/ ج١٠/ ص٩٣) كتاب الطّلاق ، والبخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٦/ ص٢٣) كتاب تفسير القرآن .

عائشة ؛ يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ "[1].

ومن خصائصها أنه ﷺ توفّي في بيتها ، وفي يومها ، ومات وهو مستند على صدرها ، فقد صحّ عنها ـ رضي الله عنها ـ أنّها كانت تقول : " إنّ من نعم الله عليَّ أنَّ رسولَ الله ﷺ توفيَّ في بيتي ، وفي يومي ، وبين سَحْري وَنَحْري ، وأنّ الله جَمَعَ بين ريقي وريقه عند موته "[2].

وقد قُبِضَ عنها ﷺ ولها ثمان عشرة سنة ، وكان النَّبيُّ ﷺ قد بَشَّرَها في حياته أنّها زوجته في الدّنيا والآخرة ، فقد أخرج الحاكم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أنّ رسول الله ذكر فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ، قالت : فتكلّمتُ أنا ، فقال : " أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدّنيا والآخرة ، قلتُ : بلى والله ، قال : فأنت زوجتي في الدّنيا والآخرة "[3].

وتوفّيت ـ رضي الله عنها ـ في أواخر زمن معاوية ودفنت في البقيع .

***

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص٢٠٥) كتاب فضائل الصّحابة .

(٢) البخاريّ " صحيح البخاريّ " (م٣/ ج٥/ ص١٤١) كتاب المغازي .

(٣) الحاكم " المستدرك " (ج٤/ ص١٠) كتاب معرفة الصّحابة ، وقال الحاكم : الحديث صحيح ولم يخرّجاه، ووافقه الذّهبي .

القسم الرابع

المبحث الأول

الحقّ المبين في الجمل وصفّين

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة]

سبب خَطأَ الباحثين في التّعامل مع تاريخ المؤرّخين

" تاريخ الأمم والملوك " للطبري أقدم مصدر من مصادر التّاريخ أَخرَج الرِّوايات مُعَنْعَنة ، وكلّ من جاء بعده نقل عنه ، أو اعتمد عليه . وقد أسند الطّبري الرِّوايات ، ومن أورد السّند فقد أحالك وحمّلك مسؤولية التّثبّت من تلك الرّوايات ، فبرئت ذِمَّتُه ، وألقى بالعهدة على الرُّواةِ والقُرَّاء.

فقد أشار ـ رحمه الله ـ في مقدّمة كتابه أنّه لم يلتزم بإيراد الصَّحيح لعلل دعت إلى ذلك، فهو لم يلتزم النقل عمّن آمن واهتدى وصدّق بالحسنى فحسب ، وإنّما نقل عن هؤلاء ، وعن كلِّ مَنْ هَبَّ ودَبَّ وعوى وغوى ، وحمَّل رواته التَّبعة ، وحمّل بذلك الدّارسين لكتابه البحث عن حال هؤلاء الرِّجال في كتب الرِّجال والجرح والتّعديل .

وللأسف ، فقد وقع على هذه الرِّوايات كثير من الكتاب والقرّاء عبر العصور ، دون نقدها ، فلم يتثبّتوا من حال أسماء رواة هذه الأخبار ، ولا من صحّة متونها ، وسوّدوا هذه الأخبار والقصص والحكايات في كتبهم على ظاهرها ؛ فقد حسبوا المتورِّمَ سميناً ، واستعظموا ما ليس عظيماً ، واغتروا بظاهر يخالف حقيقة الواقع ، فكانوا كمن استسمن ذا وَرَمٍ .

فعمل هؤلاء الكتّاب على تكريس هذه الأخبار الباطلة في أذهان العامّة وبعض الخاصّة ، فَضَلّوا وأضلّوا ، وساهموا من حيث يعلمون أو لا يعلمون بإغراء العامّة ومن في

حكمهم على تنقيص الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ !

وليس يغني عن كاتب أو جاهل قول راوٍ عن فلان ، وقوله عن فلان ، إذا لم يتثبّت من حال فلان وفلان ؛ فالرّوايات التّاريخيّة قوامها علم الجرح والتّعديل. ولأنّ السّند هو الأصل ، والمتن هو الفرع ، فإنّه يشترط لصحَّة الفرع سلامة الأصل ، ولذلك يجب النّظر فيمن تُقْبَلُ روايته أو تُرَدُّ ، وذلك يتأتّى ممّن رأيه يُعْتَمد وممّن قوله يُعْتدّ به .

ولا أدري كيف يجهل النّاس أنّ كثيراً من الرِّوايات التّاريخيّة موضوعة ؛ فلم تسلم الرّواية عن رسول الله ﷺ من الوضع ، فهناك آلاف الأحاديث الموضوعة والمنكرة والشّاذة والمكذوبة على رسول الله ﷺ ، فإذا كان الأمر كذلك في الحديث الشّريف ، فهل يسلم الحديث عن الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ من الدَّسِّ وإخفاء المكر؟!

وأنا على يقين أنّ غيرَ كتاب من كتُب التّراث تعرّضت أصوله للتّحريف والتّصحيف من النّاشرين وغيرهم قبل أن تصل إلينا هذه الكتب ؛ فقد وقعت هذه المخطوطات في أيد غير أمينة زمناً طويلاً .

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك كُتُبا محقّقة لا تساوي ثمن الحبر الّذي كُتِبَتْ به ؛ فالمحقّقون على مشارب : فمنهم المتشدّد في الحقّ وهذا يؤخذ عنه ولا مانع من تعقّبه ، ومنهم المتساهل وهذا لا يؤخذ منه ، ومنهم القوام بين ذلك وهذا يؤخذ منه ويُردّ عليه ، ومنهم من نَزَعَهُ عِرْقٌ وغلبه هوى فهو يرمي إلى تأييد مذهب أو إثبات معتقد وهـذا يُحْذر منـه ، ومنهم من زاد في تحقيقه الطّين بِلَّة عامداً متعمِّداً فكان كمن ﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المدّثّر] وهذا أمره إلى الله ، ومنهم الجاهل الّذي يسعى إلى شهرة بائسة فوضع اسمه على هذه الكتب بدعوى تحقيقها ، وهذا لم يأتنا بِهَلَّة ولا بَلَّة ، وإنّما جاءنا ببَقبَقة في زَقزَقة يفتخر بما ليس عنْده ، ومثله كمثل الحَادِي وليس له بعير ينتفخ بما لا يملك ، وما أكثر هؤلاء ! والله نسأل أن يجنِّبنا حبّ الظهور الّذي يكسر الظّهور ويذهب بالأجور ، وهذا يصدق فيه قول الشّاعر :

ألقابُ مملكة في غير موضعها ... كالهرّ يَحْكي انتفاخاً صَوْلة الأسد

وقد وقع المستشرقون عبر العصور بالخطأ عينه ، فنقلوا من كتب التّراث ، واعتمدوا على كُتَّاب السّيرة الأوائل من المسلمين ، وكتبهم غير محقّقة ولم تسلم من التّصحيف والتّحريف ، فلم يتبيّن لهؤلاء المستشرقين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وظنّوا أنّ تاريخ المسلمين ما وجدوه مسطوراً في هذه التّركة من الكتب الّتي جاءت بعد الأمويين من أصحاب الأهواء والبدع ، فأخذوا هذه الرّوايات ، وجعلوا ما يوافق أهواءهم عُمْدَة ، وما يخالفها ردّوه ما استطاعوا إليه سبيلاً ، أو لوّوا به ألسنتهم إن لم يسعهم إنكاره !

وهم لا يملكون القدرة على محاكمة هذه الرّوايات التّاريخيّة ؛ لجهلهم بعلم الجرح والتّعديل ، فضلاً عن أنّ هذا العلم لا يخدمُ أهدافَهم ، زد على ذلك جهلهم باللغة العربيّة وعلومها وأسرارها ، وكلّ هذا يؤكّد الحاجة إلى تحقيق كتب التّراث لتغيير فهم المسلمين خاصّة والنّاس عامّة لتاريخ المسلمين الأوائل ، الّذي لا نخشى الحديث عنه ؛ إذ لو كان ذلك صحيحاً لاقتضى أنّ لهم فيه أعمالاً تَحُطُّ من شأنهم ، وهذا ما لا يقوله مسلم ، ولا يتصَوَّرُهُ عاقل .

سبب خروج عائشة ـ رضي الله عنها ـ ومن معها إلى البصرة

وممّا كثر اللغط فيه ما جرى بين الصّحابة في الجمل وصفّين[1] ، فما انفكّ أقوام يَثْلِبُونَ الصّحابة الّذين انعقد على عدالتهم الإجماع ، ونطقت بذلك الآيات الصِّراح ، وشهدت بذلك الأحاديث الصّحاح .

وقد آثرت أن أبيّن حقيقة ما جرى بينهم لِعزَّته ، وقلّة من أحاط بعلمه ، ولأنّ هناك مسائل أعيا كثيراً من النّاس جوابها ؛ فالقارئ في كثير من الكتب يقف فاغراً فاهاً أمام ما يجدُه في صفحاتها من هول ما يقرأ !

فبعد أن قُتِـل الخليفةُ عثمانُ ـ رضي الله عنه ـ في داره وهو يقرأ كلام الله في المُصْحَفِ الذي جَمَعَ النَّاس عليه ، وفاض دمه على قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) صفّين : مدينة قديمة على شاطئ الفرات بين الرّقّة ومنبج .

ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة] تباينت مواقف أهل الأمصار من استشهاده :

فمنهم من كان يرى وجوب التّعجيل في محاسبة قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، وهم أهل الشّام وعلى رأسهم معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وشطر من أهل البصرة ، ومثلهم من أهل مصر .

ومنهم من كان يرى ضرورة تأجيل إقامة الحدود على قتلة عثمان حتّى يتوطَّدَ الحكمُ للخليفة عليّ ـ رضي الله عنه ـ وتقوى شوكته ، وتستتبَّ الأمورُ بعد انتقاض البلاد ، واضطراب العباد ؛ بسبب استشهاد عثمان ـ رضي الله عنه ـ وهم كثير من أهل الأمصار لا سيّما أهل الكوفة فقد كانوا مع عليّ في ذلك .

ومنهم من اعتزل الفتنة ، مثل : سعد بن أبي وقّاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمّد بن أبي مسلمة وغيرهم كثير ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .

وهناك من سعى للإصلاح وجمع الكلمة بين من يريد التّعجيل ، ومن يريد التّأخير، ويمثّل هؤلاء أمّ المؤمنين عائشة وطلحة والزّبير ـ رضي الله عنهم ـ ، فخرجوا من مكّة إلى البصرة وكان مرادهم الإصلاح وجمع الكلمة ، وليس المطالبة بدم عثمان ـ رضي الله عنه ـ كما ذهب إلى ذلك غير كاتب ، فلو كان ذلك صحيحاً لذهبوا إلى الشّام وكانوا مع معاوية ـ رضي الله عنه ـ من أوّل الأمر ، ولكن هذا لم يكن .

وهناك كثير من الرّوايات تصوّر عائشة ومن معها أنّهم نقموا على عليّ لتأخيره محاسبة قتلة عثمان ، وأنّهم خرجوا إلى البصرة لتحريض النّاس على المطالبة بدم عثمان ، وأنّهم خرجوا على عليّ وأبطلوا خلافته وطعنوا فيها ، بدليل أنّهم خرجوا للقتال ولهم خليفة لا يرجعون إليه !

وهذه الأخبار لا تَصِحُّ ؛ فلو أرادوا مَنْ ينصرهم للنيل من قتلة عثمان لخرجوا إلى الشّام ـ كما تقدّم ـ حيث معاوية أعزّ ناصراً وأكثر عدداً ، أمّا أنّهم شقّوا عصا الطّاعة وخرجوا عن الجماعة فظاهر البطلان ؛ فما ظهر عندهم ولا عند غيرهم ما يوجب نقض بيعة عليّ ، ولو

أرادوا ذلك لسعوا إلى بيعة غيره من أوّل الأمر، لكن ذلك لم يحدث ، فهم يرون له من الحقّ ما لا يرونه لغيره ، فهو أفضل من بقي من أهل الشّورى الّذين نصّ عليهم عمر ـ رضي الله عنه ـ ولم يكن يومها على أديم الأرض مَنْ هو أفضل منه ، فهذه الأخبار مفضوح كَذِبُها ، ولذلك قال الحاكم :

" فأمّا قول من زعم أنّ عبد الله بن عمر ، وأبا مسعود الأنصاري ، وسعد بن أبي وقّاص، وأبا موسى الأشعري ، ومحمّد بن مسلمة الأنصاري ، وأسامة بن زيد ، قعدوا عن بيعته ، فإنّ هذا قول من يجحد حقيقة تلك الأحوال "(1) والحاصل خلافته ـ رضي الله عنه ـ صحيحة بالإجماع ، وكان هو الخليفة في عصره لم ينازعه على الخلافة أحد .

فخروجهم إلى البصرة لم يكن خروجاً للقتال أو خروجاً على الإمام ، وإنّما خرجوا للإصلاح ، وإعزاز الإسلام بسَدِّ باب الفتنة الذي فُتِح بعد مقتل الخليفة عثمـان ـ رضي الله عنه ـ ظلماً وعدواناً كما أجاب غير عالم .

فهم يريدون جمع كلمة الأمّة ، وتحذير المسلمين من التّقصير في معاونة علي ـ رضي الله عنه ـ والتّعجيل في محاسبة المحلّين لدم عثمان ـ رضي الله عنه ـ قبل أن تربو مفسدة هؤلاء المنافقين ويستطير شَرُّهم وتزداد شوكتهم ويكثر جمعهم ، خصوصاً وأنّ الفتنة يسارع إليها أهل الفساد ، وهم الأكثرون .

وقد أخرج الحاكم ما يشير إلى سبب خروج عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وهو الصّلح ، والدّعوة إلى مساندة الفئة التي بُغِي عليها ، فقد أخرج بسنده إلى عائشة ، قالت : " ما رأيت مثل ما رَغِبَتْ عنه هذه الأمّة من هذه الآية : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] "(2).

(1) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص١١٥) كتاب معرفة الصّحابة .

(2) الحاكم " المستدرك " (ج٢/ ص١٥٦) كتاب قتال أهل البغي . وقال : هذا حديث صحيح على شرط =

فهي تريد الإصلاح والدّعوة إلى الوقوف مع عليّ في وجه الفئة الباغية على عثمان ـ رضي الله عنه ـ .

وفي " كتاب الثّقات " ما يشير إلى نيّتها ـ رضي الله عنها ـ فقد ذكر أنّ زيد بن صوحان قدم من عند عائشة معه كتابان من عائشة إلى أبي موسى والي الكوفة ، وإذا في كلّ كتاب : "بسم الله الرّحمن الرّحيم ـ من عائشة أمّ المؤمنين إلى عبد الله بن قيس الأشعري ـ سلام عليك، فإنّي أحمد إليك الله الّذي لا إله إلاّ هو ، أمّا بعد : فإنّه قد كان من قتل عثمان ما قد علمتَ ، وقد خرجتُ مصلحةً بين النّاس ، فمُر مَنْ قبلك بالقرار في منازلهم والرّضا بالعافية حتّى يأتيهم ما يحبّون من صلاح أمر المسلمين ، فإنّ قتلة عثمان فارقوا الجماعة وأحلّوا بأنفسهم دار البوار "(١) .

فلم يكن بنيّة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ومن معها ملاحقة قتلة عثمان ومحاسبتهم ؛ فليس من المعقول أن يغيب عن أذهان هؤلاء الصّحابة الأجلاّء مع سابقتهم وفضلهم أن يقاتلوا قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ ولهم خليفة ولا يرجعون إليه ! فغاية قصدها ـ رضي الله عنها ـ ومن معها الإصلاح بين النّاس ، وسيأتي قريباً في حديث الحوأب الصّحيح ما يقطع بذلك .

فليتّق الله أقوام يُصَوِّرون عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقود جيشاً فيه كبار الصّحابة لمقاتلة عليّ والتّحريض عليه ؛ فالنَّبيُّ ﷺ لم يأذن للنّساء بقيادة الجيوش ! وهذا الكلام يسوقونه لتخطئة عائشة ومن كان معها من الصّحابة ، والجرح بمن يصوّر ذلك أولى .

وليتّق الله أقوام يتّهمون عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّه كان في نفسها شيء على عليّ ـ رضي الله عنه ـ لموقفه من حادثة الإفك ، ذلك أن عليّا ـ رضي الله عنه ـ لمّا استشاره النّبيُّ ﷺ في فراق أهله قال ـ رضي الله عنه ـ : " يا رسول الله ، لمْ يضيّق اللهُ عليك والنّساء سواها كثير ،

= مسلم ولم يخرّجاه .

(١) أبو حاتم " كتاب الثّقات " (ج٢/ ص٢٨٢).

وسل الجارية تصدقك "[1].

وهذا الخبر رواه الشّيخان عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وليس فيه ما يشير من قريب أو بعيد إلى أنّها كرهت ذلك من عليّ ـ رضي الله عنه ـ ! وإذا كان هذا ما أخرجها إلى البصرة ، فما الّذي أخرج من كان معها ؟! فهذا كلام يُرَادُ به النَّيل من الصّحابة أنّهم يوافقونها على الخطأ ، ويطعن في سلامة قلوبهم ونقاء سريرتهم ، ونحن نعلم أنّ طهارة قلوب الصّحابة نَصَّ عليها القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ... ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح]. وقال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] وقال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة].

عدد من خرج إلى البصرة وعِلْمُ عليّ بخبرهم

أخرج الطّبريّ روايتين متضاربتين في تعيين عدد من خرج إلى البصرة من طريقين لا تقوم بهما حجّة ، الرّواية الأولى من طريق سيف عن أشياخه ، وفيها أنَّ عدد من خرج ستمائة ، ولَحِقَ بهم من لحق حتّى صاروا ألفاً ، وفيها أنّ أمّ الفضل بعثت برسالة مع رجل يُدعى ظفرا تخبر عليّا بخبرهم ، فقد أخرج الطّبريّ عن سيف عن محمّد وطلحة ، قالا :

" ... فحملوا ستمائة رجل على ستمائة ناقة سوى من كان له مركب ، وكانوا جميعاً ألفاً ... وبعثت أمّ الفضل بنت الحارث رَجُلاً من جهينة يُدْعى ظفرا فاستأجرته على أن يطوي ويأتي بكتابها فقدم على عليّ بكتاب أمّ الفضل بالخبر "[2].

وهذه الرّواية باطلة سنداً ومتناً ، ومدار بطلان سندها على سيف[3] ، فهو ضعيف وقد

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٥/ ص٥٧) كتاب المغازي ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٩/ ج١٧/ ص١٠٨) كتاب التّوبة .

(٢) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٣/ ص٤٧٠) .

(٣) قال الحافظ : سيف بن عمر التميمي ، صاحب كتاب الرّدة ، ويقال الضّبي ، ضعيف الحديث ، عمدة في التّاريخ ، أفحش ابن حبّان القول فيه " تقريب التّهذيب " (ص٢٦٢/ رقم٢٧٢٤).

أفحش ابن حبّان القول فيه ، أمّا بطلان متنها فيدلّك عليه أنّ أمّ الفضل وهي لبابة بنت الحارث[1] الّتي أرسلت إلى عليّ بخبر خروجهم لم تكن يومها على قيد الحياة ، فقد ماتت بَعْدَ زوجها العبّاس في خلافة عثمان !

أمّا الرّواية الثّانية فهي من طريق يونس بن يزيد عن الزّهري ، وفيها أنّ عددهم سبعمائة ولحق بهم النّاس حتّى كانوا ثلاثة آلاف ، فقد أخرج الطّبريّ عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزّهريّ ، قال : " ... فخرجوا في سبعمائة رجل من أهل المدينة ومكّة ولحقهم النّاس حتّى كانوا ثلاثة آلاف رجل فبلغ عليّاً مسيرهم فَأَمَّرعلى المدينة سهل بن حنيف ، وخرج فسار حتّى نزل ذا قار[2] "[3].

قلنا : والزّهري لم يدرك هذه الأحداث حتّى يُحدِّثَ عنها ، وهذا التّناقض في تعيين العدد يضعف الرّوايتين معاً .

ثمّ إنّ خروج عليّ إلى ذي قار لا يدلّ على أنّه كان يلحق بهم ؛ فهذا يعني أنّه جاء من طريق : النّقرة[4] ، فيد[5] ، الثّعلبيّة[6] . ولو أراد اللحاق بهم لخرج من النّقرة إلى النَّباج[7]

---

(١) قال الحافظ : لبابة بنت الحارث بن حزم الهلالية أمّ الفضل ، زوج العبّاس بن عبد المطّلب ، وأخت ميمونة زوج النّبيّ ﷺ ، قال ابن حبّان : ماتت بعد العبّاس في خلافة عثمان "تقريب التّهذيب " (ص٧٥٣/ رقم ٨٦٧٦).

(٢) ذو قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة " معجم البلدان" (ج٤/ ص٢٩٣) .

(٣) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٣/ ص٤٧١) .

(٤) النّقرة : ملتقى الدّروب تقع على طريق الكوفة ولا تزال تحمل اسمها إلى الآن ، وتبعد عن المدينة مائتان وستة وثلاثون كيلو مترا ، ومنها يتيامن حتّى يصل إلى النّباج من أراد الذّهاب إلى البصرة . انظر " الملامح الجغرافية لدروب الحجيج " لسيّد عبد المجيد (ص٥٤) .

(٥) قال ياقوت : قال السكوني : فيد : نصف طريق الحاج من الكوفة إلى مكّة " معجم البلدان " (ج٤/ ص٢٨٢) .

(٦) قال ياقوت : الثّعلبيّة : من منازل طريق مكّة من الكوفة " معجم البلدان " (ج٢/ ص٧٨) .

(٧) قال ياقوت : النّباج : قرية في بادية البصرة على النّصف من طريق البصرة إلى مكّـة " معجم البلدان "=

فالبصرة، وهذا كلّه يضعف متون الرّوايات الّتي تصوّر عائشة ـ رضي الله عنها ـ هاربة وتَتَيامَنُ عن أوطاس[1] خَشْيةً من عليّ .

عائشة تهمُّ بالرّجوع والزّبير يثنيها عن عزمها

فلمّا خرجت عائشة ـ رضي الله عنها ـ ومن معها من الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وكانوا على نيّتها ورأيها في الإصلاح ، تذكّرت أنّ النَّبيَّ ﷺ كان قد حَذَّرَ في حياته أمّهات المؤمنين من هذه الفتنة ، فلمّا رأت أمُّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ آية ذلك همّت بالرّجوع ؛ لكنّ الزبير ـ رضي الله عنه ـ ثناها عن عزمها لما كان يرجوه في خروجها من إصلاح بين النّاس ، ولما كان يأمله في رؤية النّاس لها من جمعٍ للكلمة ، ولم يكن يعلم ـ رضي الله عنه ـ أنّه يسير إلى قدره !

فقد أخرج أحمد بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم ، أنّ عائشة لّما أتت على الحوأب سمعت نباح الكلاب ، فقالت : " ما أظنّني إلاّ راجعة لأنّ رسول الله ﷺ قال لنا : أيتكنّ تنبح عليها كلاب الحوأب[2] . فقال لها الزّبير ـ رضي الله عنه ـ : ترجعين ؟! عسى الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يصلح بك بين النّاس "[3].

وممّا يدلّك على حسن نيّة من خرج معها ، أنّ الزّبير لّما التقى مع عليّ ذكّره عليّ بحديث سمعه من رسول الله ﷺ فرجع ، فقال له ابنه عبد الله : " ... وللقتال جئت ! إنّما جئتَ لتصلحَ بين النّاس ويصلح الله هذا الأمر بك "[4].

= (ج٥/ ص٢٥٦) .

(١) قال ياقوت : أوطاس (البريكة) : واد في ديار هوازن فيه كانت غزوة حنين " معجم البلدان " (ج١/ ص٢٨١) .

(٢) الحوأب : منزل بين مكّة والبصرة.

(٣) أحمد " المسند " (ج١٧/ ص٢٧٣/ رقم٢٤١٣٥) .

(٤) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص٣٦٦) كتاب معرفة الصّحابة ، وأخرجه البيهقي في " دلائل النّبوّة " =

وقد أنكر ابن العربي ـ رحمه الله ـ هذا الحديث أشدّ الإنكار، فقال : " وأمّا الذي ذكرتم من الشّهادة على ماء الحوأب ، فقد بؤْتُم في ذكرها بأعظم حُوب (إثم). ما كان قطّ شيء ممّا ذكرتم ، ولا قال النَّبيُّ ﷺ ذلك الحديث ، ولا جرى ذلك الكلام ، ولا شهد أحد بشهادتهم ، وقد كتبت شهاداتكم بهذا الباطل وسوف تسألون "[١].

ولعلّ عذر ابن العربي أنّ هذه الرّواية وردت في كُتُبِ التّاريخ بأسانيد غاية في الضّعف، والحاصل ، الحديث صحيح ، وهو موجود في كُتُبِ السُّنَّة : فقد أخرجه أحمد في "المسند "[٢] كما تقدّم بإسناد صحيح ، وأخرجه الحاكم في " المستدرك "[٣] ، ولم يقع في المطبوع منه التّصريح بالتّصحيح منه ، ولا من الذّهبي ، وقد يكون التّصحيح غَفِلَ عنه الطّابع أو النّاسخ ؛ فقد نقل الحافظ في " فتح الباري "[٤] عن الحاكم أنّه صَحَّحَه وسنده على شرط الصّحيح ، وهو كذلك ، وذكره الألباني في " سلسلة الأحاديث الصحيحة "[٥] وصحّحه الهيثمي في " مجمّع الزوائد "[٦] من رواية البزّار عن ابن عبّاس ، قال : قال رسول الله ﷺ

= (ج٦/ ص٤١٥) ونقله ابن كثير في " البداية والنّهاية " (م٦/ ص٢١٣) وعزاه للمصنّف (البيهقي) ، وقال : غريب .

(١) العواصم من القواصم " (ص١٦٤) ووافقه محقّق الكتاب محبّ الدّين الخطيب ، وقال عن الحديث : " ليس له موضع في دواوين السّنّة المعتبرة " (ص١٦٤) ووافقهما كذلك أحمد عوض أبو الشّباب محقق كتاب " الإمام عليّ ـ رضي الله عنه ـ " لمحمّد رضا ، وقال : "حديث ماء الحوأب فيه كلام وليس له موضع في السّنّة الصّحيحة " (ص٧٢).

(٢) أحمد " المسند " (ج١٧/ ص٢٧٣/ رقم٢٤١٣٥) .

(٣) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص١٢٠) كتاب معرفة الصّحابة .

(٤) ابن حجر " فتح الباري " (م ١٣/ ص٤٥).

(٥) الألباني " سلسلة الأحاديث الصحيحة " (م١/ ص ٢٢٣/ رقم ٤٧٥) حديث الحوأب .

(٦) الهيثمي " مجمّع الزّوائد " (ج٧/ ص٢٣٤).

لنسائه : " ليت شعري أَيَّتُكنَّ صاحبة الجمل الأدبب[1] تخرج فينبحها كلاب الحوأب " وقال الهيثمي : رواه البزّار ، ورجاله ثقات ، وقال الحافظ في " فتح الباري "[2] بعدما ساق الحديث نفسه : وهذا رواه البزّار ورجاله ثقات " ، وذكره ابن حجر في " المطالب العالية "[3] ، وقال المحقّق : صحيح . وصحّحه البوصيري في " الإتحاف "[4] وقال : رواه أبو بكر بن أبي شيبة ورواته ثقات .

عليّ يخرج إلى البصرة ليردّ عائشة إلى مأمنها عملاً بوصية النَّبيِّ ﷺ

ولم تصحّ الروايات في أنّ عليّاً وعمّاراً - رضي الله عنهما - حَضَّا أهل الكوفة إلى الخروج لقتال أمّ المؤمنين عائشة ، وأنّه خرج إلى البصرة لملاقاتها ... ، وأُضْرِبُ عن هذه الرّوايات علماً منّا ببطلان سندها ومتنها ، إذ لا فائدة تُرجَى من ذكرها ، وما صحّ ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن زياد الأسديّ ، قال : " لمّا سار طلحة والزّبير وعائشة إلى البصرة بعث عليّ عمّار بن ياسر ، وحسن بن عليّ ، فقدما علينا الكوفة ، فصعدا المنبرَ ، فكان الحسنُ ابنُ عليّ فوقَ المنبر - في أعلاه - وقام عمّار أسفل من الحسن ، فاجتمعنا إليه ، فسمعتُ عمّاراً يقول : إنّ عائشة قد سارت إلى البصرة ، ووالله إنّها لزوجةُ نبيّكم ﷺ في الدّنيا والآخرة ، ولكنّ الله - تبارك وتعالى - ابتلاكم ليعلم إيّاه تطيعون أم هي "[5].

وكانت خطبته هذه قبل حادثة الجمل ليكفّهم عن الخروج معها - رضي الله عنها - ، ولعلَّ الضَّميرَ في الحديث " إيّاه " يعود على الله تعالى ، والمراد اتّباع حكمه ، فهو القائل : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ... ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب] ليمنعهم من الخروج معها . فإذا كان يعود على

---

(١) الأدبب : الكثير وبر الوجه .

(٢) ابن حجر " فتح الباري " (م١٣/ ص٤٥).

(٣) ابن حجر " المطالب العالية " (م١٨/ ص١٢٣/ رقم٤٤٠٠).

(٤) " مختصر إتحاف السّادة المهرة " (م٥/ ص٤٥١/ رقم٨٣١٠) كتاب الفتن .

(٥) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٩٧) كتاب الفتن.

عليّ ـ رضي الله عنه ـ فالمعنى اتّباع حكم الله في طاعة الخليفة ، وليس في الحديث دعوة للخروج مع عليّ ـ رضي الله عنه ـ لمقاتلة أحد .

وأخرج عن الحكم عن أبي وائل قال : " قام عمّار على منبر الكوفة فذكر عائشةَ ، وذكر مسيرها ، وقال : إنّها زوجةُ نبيّكم ﷺ في الدّنيا والآخرة ، ولكنّها ممّا ابتُليتُم "(١).

ومراد عمّار ـ رضي الله عنه ـ أنّ الحقّ مع عليّ ـ رضي الله عنه ـ ، وأنّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ مخطئة في خروجها واجتهادها ، ومع ذلك ما بَدَّلَتْ وما خرجت عن الإسلام بما يجعلها تفارق النَّبيَّ ﷺ ، ويمنعها من أن تكون زوجته ﷺ في الدّنيا والآخرة ، وما كان عمّار ليشهد لها أنّها زوجة النَّبيِّ ﷺ في الآخرة إلاّ لشيء سمعه أو علمه ، فضلاً عن علمه بحسن نيّتها ، وأنّها متأوّلة مجتهدة مصيبة لأجر الاجتهاد ، وأنّ خروجها ابتلاء من الله تعالى ، وأنّ العبد يبتلى على قَدْر دينه .

وهذا القول من عمّار وشهادته بالفضل لعائشة ـ رضي الله عنها ـ واعتذاره عنها ، وعدم بخسها حقّها يدلّ على علمه وورعه وتقواه وإنصافه لعائشة ـ رضي الله عنها ـ وتحرّيه الحقّ قولاً وعملاً ؛ فمع أنّه كان يدعو لعليّ إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من التّحدّث بمنقبة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وفي ذلك مدّكر لمن أراد أن يدّكر ؛ فهذا يكشف عن معادن أصحاب رسول الله ﷺ الخيّرة ، فقد قال النَّبيُّ ﷺ :

" النّاسُ معادنُ كمعادِنِ الفضّة والذّهب ، خِيَارُهُم في الجاهليّة خِيارُهُم في الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنودٌ مُجنّدةٌ ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف "(٢).

أمّا مَنْ يتعلّل بما رواه البخاري عن عمرو أنّه سمع أبا وائل يقول : " دخل أبو موسى وأبو مسعود على عمّار حيث بعثه عليّ إلى أهل الكوفة يستنفرهم "(٣) ويظنّ أنّ علياً ـ رضي الله

---

(١) البخاري " صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ٩٧) كتاب الفتن.

(٢) مسلم بسنده إلى يزيد بن الأصمّ عن أبي هريرة بحديث يرفعه " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٦/ ص١٨٥) كتاب البرّ والصّلة والأدب .

(٣) البخاري " الصحيح " (م٤/ ج٨/ ص٩٨) كتاب الفتن .

عنه ـ يستنفر أهل الكوفة لقتال عائشة ـ رضي الله عنها ـ فهذا لا يَصِحُّ ، فالخليفة عليّ ـ رضي الله عنه ـ يعرف أنّ خروج عائشة ـ رضي الله عنها ـ من أصله كان قدراً مقدوراً ، فقد حذّرها النَّبيُّ ﷺ في حياته من الخروج ، وسمع عليّ ـ رضي الله عنه ـ هذا التّحذير ، وسمع طلب النَّبيِّ ﷺ منه أن يرفق بها ، فقد أخرج الحاكم بإسناد صحيح عن سالم بن أبي الجعد عن أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ ، قالت :

" ذَكرَ النَّبيُّ ﷺ خروج بعض أمّهات المؤمنين ، فضحكت عائشة، فقال : انظري يا حُمَيْرَاء[1] ، ألاّ تكوني أنت ، ثمّ التفت إلى عليّ ، فقال : إنْ وليتَ من أمرها شيئاً ، فارفقْ بها "[2].

فكيف يصحّ القول بأنّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ كان يحرّض على قتالها ، وقد أمره النَّبيُّ ﷺ بالرّفق بها ؟! وإنّما استنفر عليّ ـ رضي الله عنه ـ أهل الكوفة لأنّه خَشِيَ على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فخرج ومن معه إلى البصرة ليجتمع بعائشة ـ رضي الله عنها ـ ويعيدها إلى مأمنها .

فقد أخرج أحمد بإسناد حسن عن أبي رافع أنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ بن أبي طالب : " إنّه سيكون بينك وبين عائشة أمر ، قال : أنا يا رسول الله ؟! قال : نعم ، قال : أنا ؟! قال : نعم ، قال : فأنا أشقاهم يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولكن إذا كان ذلك فارْدُدْهَا إلى مَأْمَنِها "[3].

فالله تعالى أطلع نبيّه ﷺ على ما يقع بين عليّ وعائشة ، فالنَّبيُّ ﷺ كان يعلم أنّ أمراً (حدثاً) سيقع بينهما ، وليس معركة كما يصّورون ويهوّلون ! ولم ينهَ النَّبيُّ ﷺ عليّا ولا عائشة؛ لأنّه يعلم أنّ هذا الأمر واقع بأمر الله ليظهر عذرهما ، وإنّما نبههما وأوصى عليّا بها ، فالله تعالى إذا أراد شيئا هيّأ الأسباب له .

---

(١) تصغير حَمْراء ويفيد التحبُّب.

(٢) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص١١٩) كتاب معرفة الصّحابة ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٣) أحمد " المسند " (ج١٨/ ص٤٦٨/ رقم٢٧٠٧٦) .

ومن الرّوايات الّتي تطمئنّ القلوب لمتنها ، والّتي تبيّن قصد عليّ ـ رضي الله عنه ـ من الخروج إلى البصرة ، ما أخرجه الطّبري بإسناد ضعيف عن محمّد وطلحة ، قالا : " لمّا أراد عليّ الخروج من الرّبذة إلى البصرة قام إليه ابن لرفاعة بن رافع ، فقال : يا أمير المؤمنين أي شيء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ فقال : أمّا الّذي نريد فالإصلاح إن قبلوا منّا وأجابونا إليه ، قال : فإن لم يجيبونا إليه ؟ قال : ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحقّ ونصبر ، قال : فإن لم يرضوا ؟ قال : ندعهم ما تركونا ، قال : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم ، قال : فَنَعَم إذاً ... "(١).

وكان عليّ ـ رضي الله عنه ـ محقاً في خروجه ؛ فقد استطاع أن يعيد أمّ المؤمنين إلى مأمنها عملاً بوصيّة النَّبيِّ ﷺ له ، أخرج الحاكم عن عمرة بنت عبد الرحمن ، قالت : " لمّا سار عليّ إلى البصرة دخل على أمّ سلمة زوج النَّبيِّ ﷺ يودّعها ، فقالت : سِرْ في حفظ الله وفي كنفه ، فوالله إنّك لعلى الحقّ والحقّ معك ، ولولا أنّي أكره أن أعصي الله ورسوله فإنّه أمَرَنا ﷺ أن نقرّ في بيوتنا لسرتُ معك ، ولكن والله لأرسلنّ معك من هو أفضل عندي وأعزّ عليّ من نفسي ابني عمر "(٢).

الأيدي الخبيثة توقع الفتنة بين الفريقين

وهكذا يتَّضِحُ أنّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ لم ينهض إلى البصرة لقتال عائشة ـ رضي الله عنها ـ ومن معها كما تقدّم ، وإنما ليرُدَّها إلى مأمنها ويقوى بمن كان معها ، فهو يعلم أنّ القلوب واحدة والنّيّة واحدة ، لكنّه كان يخشى ـ رضي الله عنه ـ أن ينفتق في الإسلام فتق ، وآية ذلك أنّهم لمّا اجتمعوا في النّصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، اجتمعت كلمتهم ، ولم يقتتلوا ، ولم يكن بينهم قتال ؛ فخشي المنافقون وأعوانهم الّذين نُسِبَ إليهم قتل الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ من اجتماعهم على قتالهم ، فلمّا جَنَّ الليلُ اندس قتلة عثمان

---

(١) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٣/ ص ٤٩٤) ونقل عنه ذلك ابن الأثير في "الكامل في التّاريخ " (م٢/ ص٣٢٥).

(٢) الحاكم " المستدرك "(ج٣/ ص١١٩) ، كتاب معرفة الصّحابة ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ـ رضي الله عنه ـ بين هؤلاء وهؤلاء . وبعد أنْ اطمأنّ الفريقان أنشبوا السّهام ، وبذلوا السُّيوفَ فيهم ، فنشب القتال على غير نيّة ، فأخذت كلّ طائفة تدفع عن نفسها ، وهي تظنّ أنّ الأخرى بدأتها القتال ، فكلتا الطائفتين محقّة في غايتها ، سليمة في نيتها ، مدافعة عن نفسها، بمثل هذا أجاب غير عالم من علمائنا عن سبب وقوع القتال .

وقد أشار الطّبري إلى هذا الأمر ، فقال : " ... فباتوا على الصّلح ، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الّذي أشرفوا عليه ، والنّزوع عمّا اشتهى الّذين اشتهوا ، وركبوا ما ركبوا ، وبات الّذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة باتوها قطّ ، قد أشرفوا على الهلكة ، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلّها حتّى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السِّرِّ ، واستسرُّوا بذلك خشيةَ أن يفطنَ بما حاولوا من الشَّرِّ ، فغدوا مع الغَلَس وما يشعرُ بهم جيرانُهم ، انسلّوا إلى ذلك الأمر انسلالاً ، وعليهم ظلمةٌ ... فوضعوا فيهم السّلاح ، فثار أهل البصرة ، وثار كلّ قوم في وجوه أصحابهم ... ونادى عليّ في النّاس : أيّها النّاس ، كُفُّوا ، فلا شيء "[1].

المنافقون يُؤَجِّجُونَ الفتنة بقتل كبار الصّحابة

أورد البخاري من حديث عمرو بن جاوان ، قال : " والتقى القوم ـ يعني يوم الجمل ـ فقام كعب بن سور الأزدي معه المصحف ينشره بين الفريقين ، وينشدهم الله والإسلام في دمائهم ، فما زال بذلك المنزل حتّى قُتل طلحة أوّل قتيل ، وذهب الزّبير يريد أن يلحق به فقُتل "[2].

وانظر كيف بدأت هذه الحادثة بقتل صحابيين جليلين ، فقد سارع المنافقون إلى قتلهما لإشعال الفتنة بين المسلمين وإذكاء نارها ، وتأجيج أوارها ، خشية أن يجتمعوا عليهم بعد أن

(١) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٣/ ص٥١٧) وإسناده ضعيف ، ولكنّ متنه ممّا لا يُسْتَبْعَد ، ونقله ابن الأثير في " الكامل في التّاريخ " (م٢/ ص٣٣٦) وغيره في غيره .

(٢) البخاري " التّاريخ الأوسط " (ص٤١/ رقم ٢٩٠) والخبر في " " تاريخ خليفة بن خيّاط " (ص١٨٥) وفي " سير أعلام النّبلاء " (ج١/ ص٣٥) وقال المحقّق : وفيه ابن أعين ، وعمرو بن جاوان لم يوثّقه غير ابن حبّان .

قتلوا خليفة المسلمين عثمان ـ رضي الله عنه ـ !

وقد وردت أخبار كثيرة في حرصهم على قتل عائشة ـ رضي الله عنها ـ ودفاع من كان معها عنها ، منها ما أورده ابن حجر في " الفتح " عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : " أَيَّتُكُنَّ صاحبة الجمل الأدبب تخرج حتّى تنبحها كلاب الحوأب يقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثيرة ، وتنجو بعدما كادت "[١].

وهؤلاء القتلة لا أحسبهم إلاّ جماعة من المنافقين ، فقد وَصَفَهم النَّبيُّ ﷺ بذلك ، فقد أخرج ابن ماجه حديثاً صحيحاً عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، قالت : قال رسـول الله ﷺ : " يا عثمان ، إن ولاّك الله هذا الأمر يوماً ، فأرادكَ المنافقون أن تَخْلعَ قميصك الّذي قمّصك الله ، فلا تخْلعه "[٢].

وأخرج نحوه أحمد بسند صحيح عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال: " يا عثمـان ، إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ عسى أن يُلْبِسَكَ قميصاً ، فإن أرادك المنافقون على خلعـه فلا تخلعـه حتّى تلقـاني "[٣].

وهؤلاء المنافقون حَرَّكَتْهُم أَيْدٍ خبيثة ؛ فالّذين كانوا يضمرون الشَّرَّ للإسلام وأهله يومها كانوا كَثْرةً كاثرة من أهل الكتاب ، والمرتدين ، والأكاسرة والأباطرة ، والكفّار ، فضلاً عن حديثي العهد بالإسلام ممّن يسهل استمالتهم ، فقد كثُر في ذلك العهد من لم يصحب النَّبيَّ ﷺ ، وفُقِد من عرفَ فضل الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ! فأمسى النّاس أسرع إلى الاختلاف، وقد سَأَلَ رجلٌ عليّ بن أبي طالب ذات مرّة : " ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر ؟! فقال : لأنّ أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي ، وأنا اليوم والٍ

(١) ابن حجر " فتح الباري " (ج١٣/ ص٤٥) وقال ابن حجر : رواه البزّار ورجاله ثقات . وأورده الهيثمي في " مجمع الزّوائد " (ج٧/ ص٢٣٤) وقال : رواه البزّار ورجاله ثقات .

(٢) ابن ماجة " صحيح سنن ابن ماجة " (م١/ ص٢٠٥/ رقم٩٠ـ ١١٢) الألباني ، وقال : صحيح .

(٣) أحمد " المسند " (ج١٧/ ص٣٦٩/ رقم٢٤٤٤٧) والمراد بالقميص الخلافة .

على مثلك "[1].

ولا يستبعد أنّه قُتِل في حادثة الجمل بعض من يُتَّهم في دم عثمان ـ رضي الله عنه ـ وممّن أعان عليه ومالأ على دمه ، فقد أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي حفص ، قال : " سمع عليّ يوم الجمل صوتاً تلقاء أمّ المؤمنين ، فقال : انظروا ما يقولون ، فرجعوا فقالوا : يهتفون بقتلة عثمان ، فقال : اللهمّ احلل بقتلة عثمان خزياً "[2] فمن دعائهم وسُؤاله أن يخزهم الله في هذا اليوم بالقتل يفهم أنّ كلا الطّرفين ليس عنده أدنى شكّ في أنّ قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ هم الّذين أنشبوا القتال ، وأنّهم وراء كلّ شرّ وبلاء ، وأنّهم اختلطوا في الفريقين .

وهذا الحدث الجَلَل يُسْتَفادُ منه الحذر من الأيدي الخفيّة التي كانت وما زالت توقع بين المسلمين ، والحذر من الألسن والأقلام الّتي تثير الحفائظ ، وتُوغِر الصُّدور !

الرَّدُ على من احتجَّ على خروج عائشة بقوله تعالى :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ...(٣٣) ﴾ [الأحزاب]

ولمّا ظهر عليّ ـ رضي الله عنه ـ جاء إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، فقال : " غفر اللهُ لك، قالت : ولك ، ما أردْتُ إلاّ الإصلاح "[3].

وأخرج عبد الرّزاق في المصنّف بسند منقطع قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ : " إنّما أريد أن يحجز بين النّاس مكاني ، قالت : ولم أحسب أن يكون بين النّاس قتال ، ولو علمْتُ ذلك لم أقِفْ ذلك الموقف أبداً "[4] أي كانت تعتقد أن مكانتها تكون حاجزاً بين النّاس من

---

(١) ابن خلدون " المقدّمة " (ص٢١١) وشبيه بذلك قول عبد الملك بن مروان : " أنصفونا يا معشر الرَّعيّة، تريدون منّا سيرة أبي بكر وعمر ! ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعيّة أبي بكر وعمر " ابن قتيبة " عيون الأخبار " (م١/ ص٦٢).

(٢) ابن أبي شيبة " مصنّف ابن أبي شيبة " (ج١٥/ ص٢٧٧/ رقم١٩٦٥٦) .

(٣) ابن عماد " شذرات الذّهب " (ج١/ ص٢٠٦).

(٤) الصّنعاني " المصنّف " (ج٥/ ص٤٥٧/ رقم٩٧٧٠).

الاختلاف .

فعذرها ـ رضي الله عنها ـ أنّها كانت تريد الإصلاح ، وكانت متأوِّلةً لقوله تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النّساء]

فخروجها خروج طاعة لا خروج معصية ، وهذا فيه ردٌّ على من حَمَل على خروج عائشة ـ رضي الله عنها ـ واحتجّ بقوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ... ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب] وقوله ﷺ لنسائه عام حجّة الوداع : " هذه ثمّ ظهور الحُصُر "[1].

فإنّ خروج الطّاعة لا ينافي أمر الله ورسوله بالقعود ، وليس في الآية أو الحديث الشّريف أمر بالقعود عن الحجّ أو الإصلاح بين النّاس ، أو ما فيه مصلحة للمسلمين ، فاحتجاجهم بالآية أو الحديث الشّريف على المنع مطلقاً ليس صحيحاً ، وقد كان معها محرمها عبد الله بن الزّبير بن العوّام ، إذ أنّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ تكون خالته ؛ فوالدة عبد الله بن الزّبير هي أسماء بنت أبي بكر الصّـدّيق ذات النّطاقين أخت عائشة .

أيضا لو كان في خروجها معصيةٌ لله تعالى ما أخبر النَّبيُّ ﷺ أنّها زوجته في الآخرة ، أخرج البخاري عن الحكم عن أبي وائل قال : " قام عمّار على منبر الكوفة فذكر عائشةَ ، وذكر مسيرها ، وقال : إنّها زوجةُ نبيّكم ﷺ في الدّنيا والآخرة "[2].

ولو كان في خروج مَنْ كانَ معها مثل طلحة والزّبير معصية لله ما أخبر النّبيُّ ﷺ أنّهما شهيدان فقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : " أنّ رسول الله ﷺ كان على حِرَاء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزّبير ، فتحرّكت الصّخرةُ ، فقال رسول الله ﷺ : اهدأ ؛ فما عليك إلاّ نبيٌّ ، أو صدِّيقٌ ، أو شهيد "[3] فكيف يحكم ﷺ أنّ

---

(١) أحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة " المسند " (م١٨/ ص٣١٥/ رقم٢٦٦٣٠)

(٢) البخاري " الصحيح "(م٤/ ج٨/ ص٩٧) كتاب الفتن.

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص١٩٠) كتاب فضائل الصّحابة .

عائشة زوجته في الآخرة ، وأنّ طلحة والزّبير شهيدان لو كان في خروجهم معصية لله ، أو كان في خروجهم دغل أو غشّ أو خروج على الخليفة ؟!

وهذا يدلّك على سلامة نيّة الصّحابة في الخروج ، وأنّهم لم يخرجوا لدنيا يصيبونها ، وحسبهم قول النَّبيِّ ﷺ : " إنّما الأعمال بالنّيّات ، وإنّما لامرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ... "(١) وحسبهم قوله ﷺ : " عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خير وليس ذاك إلاّ للمؤمن "(٢).

ندم عائشة ـ رضي الله عنها ـ على خروجها ودلالته

وقد ندمت عائشة ـ رضي الله عنها ـ على خروجها ، أخرج الحاكم عن هشام وقيس عن عائشة ، قالت : " وددتُ أنّي كنت ثكلت عشرة مثل الحارث بن هشام ، وأنّي لم أَسِرْ مسيري مع ابن الزّبير "(٣) وندمها ـ رضي الله عنها ـ يَدُلُّ على أنّ خطأها في الاجتهاد من الخطأ المغفور المأجور !

ولمّا سُئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خروجها برّرت واعتذرت ، فقد أخرج ابن أبي شيبة بسند حسن عن عبيد بن سعد ، عن عائشة ، أنّها سُئلت عن مسيرها ، فقالت : " كان قدراً "(٤) ومن لم يَسَعْهُ ذلك فليَسَعْهُ قولُ الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ...﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف] فمن بقي له شيء بعد ذلك عند الله فليطلبه !

وقد لَفَتَ انتباهي أنّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ لها مع الجمل حكايتان : الأولى يوم خرجت مع النَّبيِّ ﷺ في غزوة غزاها ، فنزلت عن الجمل فَمَشَتْ حتّى جاوزت الجيش ، فلمّا

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٥٩) كتاب الحيل .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٩/ ج١٨/ ص١٢٥) كتاب الزّهد.

(٣) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص١١٩) كتاب معرفة الصّحابة ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٤) ابن أبي شيبة " مصنّف ابن أبي شيبة " (ج١٥/ ص٢٨١/ رقم ١٩٦٦٥) كتاب الجمل .

قضتْ من شأنها أقبلت إلى الرَّحْل فلمست صدرها فإذا عقدها قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدها فحبسها ابتغاؤه ، فكان ما كان من حديث الإفك حتّى برّأها الله ممّا قالوا .

والثّانية : لّما خرجت إلى البصرة تركب جملها لتصلح بين النّاس فكان ما كان في حادثة الجمل ، وحسب عائشة ـ رضي الله عنها ـ شرفاً أنّها خُلقِت طيّبة ووعدت بمغفرة ورزق كريم ، قال تعالى : ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النّور] فشهد الله لها أنّها في الجنّة ! ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف].

الرَّدُّ على مَنْ طَعَنَ على عائشة بقوله ﷺ " لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة "

هذا الحديث الشّريف لم يَعْنِ به النَّبيُّ ﷺ عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وإنّما قاله ﷺ لّما بلغه أنّ فارساً ملّكوا ابنة كسرى بعدما هلك كسرى ، فقد أخرج البخاري عن أبي بكرة ، قال : " نفعني الله بكلمة أيّام الجمل ، لّما بلغ النّبيَّ أنّ فارساً ملّكوا ابنة كسرى ، قال : لن يفلحَ قومٌ ولّوا أمرهم امرأة "(١).

وظاهر الكلام يوهم بأنّ أبا بكرة ـ رضي الله عنه ـ يُضَعِّفُ رأي عائشة ـ رضي الله عنها ـ في خروجها ، وليس الأمر كذلك ؛ فالمشهور أنّه كان على رأي عائشة في طلب الإصلاح ، لكنّه لّما رأى ما آلت إليه الأمور اعتزل القتال مستفيداً من حديث النَّبيِّ ﷺ في حَقِّ ابنة كسرى ، وغلب على ظنّه أنّهم سَيُغْلَبُون على أمرهم .

فإن قال قائل : لكنَّ الحديث يفهم منه العموم ؛ لأنّ كـُلًّا من كلمـة (قـوم) وكلمـة (امرأة) : نكرة وقعت في سياق النَّفي فتعمّ ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب ، كما هو معلوم في الأصول ؟ فالجواب : أنّ المراد بالولاية : الولاية العامّة لا الولاية الخاصة ، والصّحابة لا يجهلون أنّ المرأة لا تتولى الإمارة ، وعائشة لم تكن تتولى إمرة أحد من المسلمين لا ولاية عامّة ولا خاصّة ! والرّوايات الّتي تصّور عائشة أنّها كانت تقود جيشاً لا تصحّ .

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٩٧) كتاب الفتن .

فإنْ قالوا : لكنّ النَّبيَّ ﷺ قال : " يخرج قوم هلكى لا يفلحون قائدهم امرأة " فالجواب أنّ هذا حديث منكر لا يصحّ عن رسول الله ﷺ والهلكى هم الّذين وضعوا هذا الحديث الهالك ، فقد ذكره الألباني في " سلسلة الأحاديث الضّعيفة " ، وقال : " منكر "[1]. وذكره الهيثمي في " مجمع الزّوائد " وقال : " رواه البزّار ، وفيه عمر بن الهجنع ذكر الذّهبي في ترجمته هذا الحديث في منكراته "[2].

تجنُّب الصَّحابة للقتال

حتّى الّذين شهدوا الفتنة من الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا حريصين على عدم القتال ، ويشهد لذلك ما أخرجه أحمد بسند صحيح عن محمّد بن عمارة بن خزيمة بن ثابت ، قال : " ما زال جدّي كافاً سلاحه يوم الجمل حتّى قُتل عمّار بصفّين ، فَسَلَّ سيفه ، فقاتل حتّى قُتل ، قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : تقتل عمّاراً الفئة الباغية "[3] أي أنّه لم يقاتل في الجمل ولا في صفّين حتّى تبيّن له الحقّ فقاتل عن بَيِّنة .

وروى البخاري عن أبي حميلة قال : " قال محمّد بن طلحة لعائشة يا أمّ المؤمنين ، يوم الجمل ، فقالت : كن كخير ابني آدم ؛ فأغمد سيفه بعد ما سلّه ، ثمّ قاتل حتّى قُتِل "[4]. أي كُنْ المقتُول ولا تكُن القاتِل ، وهذا يدلُّكَ على أنَّ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ كانت تَنْهَى عن القتال ولا تَأْمر به.

حتّى الخليفة عليّ ـ رضي الله عنه ـ كان يتجنّب القتال كيلا يُصِيبَ دماً حراماً ففي "المطالب العالية " بسند صحيح عن سليمان بن صرد ، قال : جئت إلى الحسن ـ رضي الله عنه

---

(١) قال الألباني : مُنْكر " سلسلة الأحاديث الضّعيفة " (م٢/ ص١٦/ رقم٥٣١).

(٢) الهيثمي " مجمع الزّوائد " (ج٧/ ص٢٣٤).

(٣) أحمد " المسند " (ج١٦/ ص١٢١/ رقم٢١٧٧٠) والحاكم في "المستدرك" (ج٣/ ص٣٩٧) كتاب معرفة الصّحابة .

(٤) البخاري " التّاريخ الأوسط " (ص٤٦/ رقم٣٣٧).

ـ فقلت : " اعذرني عند أمير المؤمنين ؛ حيث لم أحضر الوقعة ، فقال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: ما تصنع بهذا ، لقد رأيتُه يَلوذُ بي وهو يقول : يا حسن ليتني متُّ قبل هذا بعشرين سنة ! "(١).

وكذلك طلحة بن عبيد الله والزّبير بن العوّام تجنّبا القتال ، فالمشهور أنّهما لم يقاتلا ، فأمّا طلحة فأصابه سهم أوّل الأمر فقتل مظلوماً شهيداً ، وأمّا الزّبير فرجع تاركاً للقتال فقتل مظلوماً شهيداً بوادي السّباع(٢) قرب البصرة مُنْصرفاً في طريقه إلى المدينة تاركاً للقتال ، قتله ابن جرموز غدراً وغيلة .

ويؤيّد هذا أنّ ابنُ جُرْمُوز لّما استأذن بالدّخول على الخليفة وكان في اعتقاده أنّه سينال حظوة عند الخليفة ، قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ يومها : " بشّر قاتل ابن صفيّة بالنّار " أخرجه أحمد والحاكم(٣) بسند صحيح عن زِرِّ بن حُبَيْش .

حادثة الجمل لم تقع بدافع العصبيّة

لم يكن في اعتقاد عائشة ـ رضي الله عنها ـ ومن معها أنّ فتنة ستقع ، ولم يخطر ببال أحد منهم أنّه سيكون قتال بين المسلمين ، خِلافاً لما يصوّره البعض من أنّ خروجهم كان لقتال عليّ الّذي تهاون في محاسبة قتلة عثمان بزعمهم ، وأنّ خروجهم لا يسلم من العصبيّة والأهواء والمطامع والتّنازع على الملك وغير ذلك من الافتراء على الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ !

وممّا يدلّك على أنَّ حادثة الجمل لم تقع عن عصبية ، ولم تحدث بتدبير من عائشة أو

---

(١) ابن حجر " المطالب العالية " (م١٨/ ص١٤٤/ رقم٤٤٠٦) وقال المحقّق : صحيح بهذا الإسناد ، ورواته ثقات .

(٢) وادي السّباع : الّذي قُتِلَ فيه الزّبير بن العوّام ، بين البصرة ومكّة ، بينه وبين البصرة خمسة أميال . ياقوت " معجم البلدان " (ج٥/ ص٣٤٣).

(٣) أحمد " المسند " (ج١/ ص٤٦٤/ رقم٦٨١) والحاكم في " المستدرك " (ج٣/ ص٣٦٧) كتاب معرفة الصّحابة ، وانظر " كتاب الثّقات " (ج٢/ ص٢٨٣) و " تاريخ خليفة بن خيّاط " (ص١٨٦).

عليّ أنّ عبد الرّحمن بن أبي بكر بن أبي قحافة ، أخا عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، شَهِدَ الجمل مع عائشة وأخوه محمّد مع عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ . قال الحافظ : " عبد الرّحمن بن عبد الله وأمّه أمّ رومـان والدة عائشـة ... شهـد وقعـة الجمل مع عائشة ، وأخوه محمّد مع عليّ "[1] .

أَثَرُ استشهاد طلحة والزّبير في نفس عليّ

أخرج خليفة عن عمر بن جاوان ، قال : " سمعت الأحنف بن قيس ، قال : لمّا التقوا كان أوّل قتيل طلحة بن عبيد الله ، وخرج كعب بن سور من البصرة معه المصحف ناشره بين الصّفين يُنَاشِدُ النّاس في دمائهم فَقُتِل وهو بتلك الحالة "[2] .

وكان النَّبيُّ ﷺ قد أخبر في حياته : أنّ عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزّبير شهداء ، فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : " أنّ رسول الله ﷺ كان على حِرَاء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزّبير ، فتحرّكت الصّخرةُ، فقال رسول الله ﷺ : اهدأ ؛ فما عليك إلاّ نبيٌّ ، أو صدِّيقٌ ، أو شهيد "[3].

والحديث يفهم منه أنّ من قُتلَ ظُـلْماً فهو شهيد في أحكام الآخرة وما أعدّه الله للشهداء من ثواب ، والحديث من معجزات النُّبوَّة ؛ فقد قُتل عمر وعثمان وعليّ وطلحة والزّبير ظلماً ، فماتوا شهداء ـ رضي الله عنهم ـ .

وقد كان لاستشهاد طلحة والزّبير ـ رضي الله عنهما ـ أَثَرٌ بالغ في نفس عليّ ـ رضي الله عنه ـ ، ففي " مجمع الزوائد " عن طلحة بن مصروف يحدّث : " أنّ علياً انتهى إلى طلحة بن عبيد الله وقد مات ، فنزل عن دابته وأجلسه ، فجعل يمسح الغبار عن وجهه ولحيته ، وهو

---

(١) ابن حجر " الإصابة " (م٢/ ج٤/ ص١٦٨/ رقم٥١٤٣)

(٢) خليفة "تاريخ خليفة بن خيّاط " (ص١٨٥) وابن حجر " الإصابة " (م٣/ ج٥/ ص٣٢٢/ رقم٧٤٨٧).

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص١٩٠) كتاب فضائل الصّحابة .

يترحَّمُ عليه ، وهو يقول : ليتني متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة "[١].

وأخرج أحمد بسند صحيح عن زِرّ بن حُبيش ، قال : استأذن ابن جُرْموز على عليّ ، فقال : من هذا ؟ قالوا : ابن جُرْموز يستأذن ، قال : ائذنوا له ، ليدخُل قاتلُ الزّبير النّار "[٢].

براءة مروان من دم طلحة

أمّا قَتْلُ طلحة فَيُتَّهَمُ فيه مروان بن الحكم ، فقد أخرج خليفة في تاريخه عن ابن سيرين، قال : " رُمِي طلحة بسهم فأصاب ثغرة نحره . قال : فأقرّ مروان أنّـه رماه "[٣] وفي طبقات ابن سعد عن جويرية بن أسماء ، عن نافع ، قال : " ... نظر (مروان) إلى طلحة بن عبيد الله واقفاً ، فقال : والله إن دم عثمان إلاّ عند هذا ، هو كان أشدّ النّاس عليه وما أطلب أثراً بعد عين . ففوق[٤] له بسهم فرماه فقتله "[٥].

وقد أنكر ابن العربيّ هذا الحديث ، فقال : " وقد روي أنّ مروان لمّا وقعت عينه في الاصطفاف على طلحة ، قال : لا نطلب أثراً بعد عين ، ورماه بسهم فقتله . ومن يعلم هذا إلا علاّم الغيوب ، ولم ينقله ثَبْتٌ ؟ "[٦] ووافقه المحقّق محبّ الدّين الخطيب ، وقال : " وهذا الخبر عن طلحة ومروان (لقيط) لا يعرف أبوه ولا صاحبه . وما دام لم ينقله ثبت بسند معروف عن رجال ثقات فإنّ للقاضي ابن العربيّ أن يقول بملء فيه : ومن يعلم هذا إلاّ علاّم

---

(١) الهيثميّ " مجمع الزوائد " (ج٩/ ص١٥٠) وقال الهيثميّ : رواه الطّبراني بإسناد حسن . وأخرج نحوه الحاكم في " المستدرك " (ج٣/ ص٣٧٢) وأبو شيبة في " مصنّف بن أبي شيبة " (ج١٥/ ص٢٦٩/ رقم١٩٦٤٢).

(٢) أحمد " المسند " (ج١/ ص٤٦٣/ رقم٦٨٠).

(٣) خليفة " تاريخ خليفة بن خيّاط " (ص١٨٥).

(٤) فُوق السَّهم: مَوْضع الوَتَر فيه.

(٥) ابن سعد " الطّبقات الكبرى " (م٥/ ص٣٨) وذكر نحوه ابن سعد في " الطّبقات الكبرى " (م٣/ ص٢٢٣) .

(٦) ابن العربيّ " العواصم من القواصم " (ص١٦١).

الغيوب ؟! "[1].

قلت : وقد حكم على صحّة هذا الخبر ثلاثة من الأئمّة الأعلام : ابن حجر ، والذّهبي، والهيثمي .

قال الحافظ ابن حجر :

" أخرج أبو القاسم البغوي بسند صحيح عن الجارود بن أبي سبرة ، قال : لمّا كان يوم الجمل نظر مروان إلى طلحة فقال : لا أطلب ثأري بعد اليوم ، فنزع له بسهم فقتله ، وأخرج يعقوب بن سفيان بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم أنّ مروان بن الحكم رأى طلحة في الخيل ، فقال : هذا أعان على عثمان فرماه بسهم في ركبته ، فما زال الدّم يسيح حتّى مات "[2]. وأخرج نحوه الحاكم في "المستدرك"[3] وحَكَم عليه الذّهبي بالصِّحَّة في تلخيص المستدرك.

كما صحّح هذا الخبر الهيثمي من رواية الطّبراني عن قيس بن أبي حزام ، قال : " رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذ بسهم فوقع في يمين ركبته ، فما زال يسبح إلى أن مات "[4].

وأخرجه خليفة من طريق جويرية بن أسماء ، عن يحيى بن سعيد ، عن عمّه ، قال : "رمى مروان طلحة بن عبيد الله بسهم ، ثمّ التفت إلى أبان بن عثمان ، فقال : قد كفيناك بعض قَتَلةِ أبيك "[5].

---

(١) ابن العربيّ " العواصم من القواصم " (ص١٦١).

(٢) ابن حجر " الإصابة " (م٢/ ج٣/ ص٢٩٢/ رقم ٤٢٥٩) .

(٣) الحاكم "المستدرك" (ج٣/ ص٣٧٠) كتاب معرفة الصَّحابة.

(٤) وقال الهيثميّ : رواه الطّبرانيّ ورجاله رجال الصّحيح "مجمع الزّوائد " (ج٩/ ص١٥٠) وهو في " المعجم الكبير " للطبراني كما ذكر (م١/ ص٧٢/ رقم٢٠١) .

(٥) خليفة " تاريخ خليفة بن خيّاط " (ص١٨٥) وأورده الذّهبي في " سير أعلام النّبلاء "=

قلت : وهذا الحديث لا يَصِحُّ متناً حتّى لو صَحَّ سنداً ؛ فليس كلّ صحيح سنداً ينبغي أن يكون صحيحاً متناً ، بل يشترط سلامة الحديث من مبدئه إلى منتهاه ، من غير شذوذ ولا علّة . وهذا ممّا لا يجهله الحافظ ـ رحمه الله ـ ولا غيره من النُّقّاد ، ولكنّه لم ينظر إلى متنه معرفة منه أنّ صحّة الإسناد لا يلزم منها صحّة الحديث ، قال ابن الصّلاح : " والحكم بالصِّحَّة أو الحُسن على الإسناد لا يلزم منه الحُكم بذلك على المتن ، إذ قد يكون شاذّاً أو معلّلاً "[1].

ويدلّك على بطلان المتن أمور خمسة :

الأوّل : أنّ مروان بن الحكم وطلحة بن عبيد الله في صَفّ واحد ، قال ابن حجر : "مروان بن الحكم ... شهد الجمل مع عائشة ، ثمّ صفّين مع معاوية ، ثمّ ولي إمرة المدينة لمعاوية "[2] فكيف يقتله وهو في صَفِّه ؟!

الثّاني : كيف يَسْتَحِلُّ مروان قتل طلحة وهو أحد العشرة المبشرين بالجنّة ، بدعوى أنّه من قتلة عثمان ، ومروان أعلم النّاس بقتلة عثمان ، فقد كان مع عثمان يوم الدّار وشهد حَصْرَه ، وكان من المدافعين عنه ومن آخرهم خروجاً من عنده يوم قتل ـ رضي الله عنه ـ ، وقتلته من المنافقين كما أخبر عثمان ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ ومروان لا يجهل ذلك لقربه من عثمان ، وهو كاتبه ، أخرج خليفة بسند صحيح عن عبد الرّحمن بن مهدي ، عن حصن بن أبي بكر ، عن يحيى بن عتيق ، عن محمّد بن سيرين ، قال :

" انطلق الحسن ، والحسين ، وابن عمر ، وابن الزّبير ، ومروان ، كلّهم شاكٍ في السّلاح حتّى دخلوا الدّار ، فقال عثمان : " أَعْزِم عليكم لما رجعتم فوضعتم أسلحتكم ولزمتم بيوتكم ، فخرج ابن عمر والحسن والحسين ، فقال ابن الزّبير ومروان : ونحن نعزم

= (ج١/ ص٣٦)عن خليفة بن خيّاط ، وقال المحقّق : إسناده صحيح كما قال الحافظ في " الإصابة " .

(١) ابن كثير " الباعث الحثيث " (ص٤٨) .

(٢) ابن حجر " الإصابة " (م٣/ ج٦/ ص١٥٦/ رقم٨٣١٢).

على أنفسنا أن لا نبرح "[1].

الثّالث : كيف يَسْكُتُ معاويةُ عن فِعْلَةِ مروان بن الحكم وهي من الموبقات السّبع ولا يحقِّقُ عليه ، ويجعله في صفِّه ، ويولِّيه إمرة المدينة بعد ذلك ؟! وكيف يرضى أهل المدينة بإمرته وفيهم الصّحابة أمثال عبد الله بن عمر ، وعائشة ... ، وهذا فيه تخطئة للصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، كما أنّه لم ينقل عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّها أنكرت على مروان ذلك ، ونحن نعلم أنّ مروان كان معها في حادثة الجمل ، وكانت في المدينة يوم كان مروان على إمرتها .

الرّابع : لو صحّت هذه الرّوايات من أنّ مروان قتل طلحة بزعم أنّه من قتلة عثمان ، فإنّ سكوت عائشة وعليّ يومها على قَوْلِ وفِعْل مروان فيه إقرار بصحّة دعواه من أنّ طلحة من قتلة عثمان ! وهذا أظهر ما يردُّها ؛ فكيف يقتل طلحة عثمان وكان النَّبيُّ ﷺ قد بشّره بالجنّة ؟!

الخامس : أنّ مروان بن الحكم بن أبي العاص من كبار التّابعين ، أَرْسَل عن النَّبيِّ ﷺ، وروى عن غير واحد من الصّحابة منهم عمر وعثمان وعليّ ، وروى له البخاري وأبو داود والتّرمذي ، والنّسائي ، وابن ماجة ، وقَرَنَهُ البخاري بالمسور بن مخرمة في روايته عن الزّهري عن عروة عنهما في حديث الحديبية بطوله ، فلو أنّ مروان قتل طلحة لكانت من موبقاته الّتي تكفي أن يتوقّف البخاري عن ذكره في صحيحه . ومروان لا يُتّهم في حديثه ولم يجرِّحْه أحدٌ ، ولو كان شيء من ذلك لتداولته كتب الجرح والتّعديل بالتّضعيف .

وفي " تاريخ دمشق " أنّ طلحة أصيب بسهم غَرْب أي أتاه سهم طائش من حيث لا يدري ، فلا يُعرَف راميه ولا من أين أتى وهذا هو الرّاجح ، قال ابن عساكر : " ... سنة ست وثلاثين وفيها قُتِلَ طلحة بن عبيد الله في المعركة أصابه سهم غَرْب فقتله "[2].

---

(١) خليفة " تاريخ خليفة بن خيّاط " (ج١/ ص١٨٨) .

(٢) ابن عساكر " تاريخ مدينة دمشق " (ج٢٥/ ص١٢٢).

عدد قتلى الجمل وزمن القتال ودلالته

الرّواية عند الطّبري عن عدد قتلى الجمل أنّهم عشرة آلاف ، وأنّه قُتل من بني عديّ يومئذ سبعون شيخاً كُلّهم قد قرأ القرآن ، وأنّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما زالت ترجو النّصر حتّى خفيت أصوات بني عديّ . وكلّ هذا لا يصحّ ، فقد أخرجه الطّبري من طريق سيف ، وهو ضعيف ، فضلاً عن أنّ المتن فيه اضطراب .

فقد أخرج الطّبري عن شعيب ، عن سيف ، عن محمّد وطلحة ، قالا : " كان قتلى الجمل حول الجمل عشرة آلاف نصفهم من أصحاب عليّ ونصفهم من أصحاب عائشة : من الأزد ألفان ، ومن سائر اليمن خمسمائة ، ومن مضر ألفان ، وخمسمائة من قيس ، وخمسمائة من تميم ، وألف من بني ضبّة ، وخمسمائة من بكر بن وائل "(١) قلت : وانظر إلى المجموع ، فإنّه لا يساوي عشرة آلاف ، وهذا يدلّك على تهلهل المتن واضطرابه . أيضاً الرّواية عند الطّبري في تَعيين عدد من خَرَجَ مع عائشة تتحدَّث ـ كما تقدَّم ـ أنه خرج معها ألف أو ثلاثةُ آلاف، فكيف يُقْتَلُ من أصحاب عائشة ـ رضي الله عنها ـ خمسة آلاف؟!

ثمّ ذكر الطّبري بعد ذلك ـ دون سند ـ أنّه قيل : " قُتِل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف ، وقُتِل من أهل البصرة في المعركة الثّانية خمسة آلاف ، فذلك عشرة آلاف قتيل من أهل البصرة ، ومن أهل الكوفة خمسة آلاف "(٢) ورواية المجاهيل لا تصحّ قولاً واحداً ؛ فلا ينظر إلى أيّ متن إذا لم يصحّ إسناده بدليل .

ثمّ رجع الطّبري إلى سنده الأوّل عن سيف ، ومحمّد وطلحة قالا : " وقُتل من بني عدي يومئذ سبعون شيخاً كلّهم قد قرأ القرآن ، سوى الشّباب ومن لم يقرأ القرآن ، وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما زلت أرجو النّصر حتّى خفيت أصوات بني عدي "(٣).

---

(١) الطّبري : " تاريخ الأمم والملوك " (ج٣/ ص٥٤٣).

(٢) المرجع السَّابق.

(٣) المرجع السَّابق.

قلت : وهذه الرّواية باطلة سنداً ، ومدار بطلان سندها على سيف ، أمّا بطلان متنها فَمَرَدُّهُ إلى اتّهام أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّها كانت تنطوي على غِلّ للمسلمين ، وتشتهي النّصر ولو كان ثمنه قتل القرّاء ، وحفظة القرآن ، وهذا باطل بداهة ! وهذا كلام مَنْ قَصُر نظرُه عن معرفة عدالة الصّحابة ؛ فالصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ أبرُّ النّاس قلوباً ، وأصلحهم أنفساً ، وأعمقهم إيماناً ، وأرسخهم علماً ، وأصدقهم خوفاً من الله تعالى ؛ ولذلك اختارهم الله تعالى لصحبة نبيّه ﷺ ، ونقل دينه ، فكانوا وربّ النّاس مثلاً للنّاس ، لكن من تأخّر منهم ابتلي بِحُثَالةٍ من النَّاس !

والصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ قطع الله عنهم العمل ولم يقطع عنهم الأجر ، فذهبوا بالأجور ، وما انقطعت أجورهم ؛ فهذه السّنن التي بين أيدينا ، لهم أجرها ، وأجر من عمل بها حتّى تقوم السّاعة ! ومن ذكرهم بسوء ولو بِشَطْرِ كلمة فإنّما يهديهم حسناته ، إن كانت له حسنات !

وأخرج الطّبري عن محمّد بن الفضل ، عن سعيد القطعي ، قال : " كنّا نتحدّث أنّ قتلى الجمل يزيدون على ستة آلاف "(١) وإسناده ضعيف لكذب محمّد بن الفضل ، قال ابن حجر : " محمّد بن الفضل بن عطيّة الخرساني ، كذّبوه "(٢).

وأخرج خليفة عن كهْمَس ، عن سعيد ، عن قتادة ، قال : " قُتِل يوم الجمل عشرون ألفاً "(٣) وإسناده ضعيف : كهمس بن المِنْهَال السّدوسي ، قال عنه ابن حجر : " صدوق رمي بالقدر "(٤) وقال عنه الذّهبي : " اتّهم بالقدر ، وله حديث منكر أدخله البخاري من أجله في كتاب الضّعفاء وقال أبو حاتم : محلّه الصّدق "(٥) وسعيد هو ابن أبي عروبة : مِهران اليشكري

---

(١) الطّبري : " تاريخ الأمم والملوك " (ج٣/ ص٥٤٧).

(٢) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص٥٠٢/ رقم٦٢٢٥).

(٣) خليفة " تاريخ خليفة بن خيّاط " (ص١٨٦).

(٤) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص٤٦٢/ رقم ٥٦٧١).

(٥) الذّهبي " المغني في الضّعفاء " (م٢/ ص٢٣٢/ رقم ٥١١٣) وانظر ترجمته في " كتاب الضّعفاء =

قال عنه الحافظ : " كثير التّدليس واختلط وكان من أثبت النّاس في قتادة "[1] وقتادة لم يدرك الحادثة.

وقد أورد خليفة بياناً بأسماء من حُفِظ من قتلى الجمل فكانوا قرابة المائة[2]. وهذا يؤكّد قِلَّةَ عدد القتلى ، وهذا ليس غريباً فلم يكن أحد من الفريقين يهاجم الآخر ، وإنّما كان يدفع عن نفسه ، والمشْهُورُ أنَّ الصَّحابة كانوا يتجنَّبون القتال وينهونَ عنه.

وممّا يدلك على قلّة عدد قتلى الجمل قِصَرُ زمن القتال يومها ، فقد نشب القتالُ بعد الظّهر وانتهى مع غروب الشّمس ، أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن زيد بن وهب أنّ القتال نشب بعد الظّهر قال : " فكفّ عن طلحة والزّبير وأصحابهما ، ودعاهم حتّى بدؤوه فقاتلهم بعد صلاة الظّهر ، فما غربت الشّمسُ وحول الجمل عين تطوق ممّن كان يَذُبُّ عنه ، فقال عليّ : لا تتمّوا جريحاً ، ولا تقتلوا مدبراً ، ومن أغلق بابه وألقى سلاحه فهو آمن ، فلم يكن قتالهم إلاّ تلك العشيّة وحدها "[3].

الأسباب الّتي جعلت حادثة الجمل تؤلم المسلمين عبر التَّاريخ !

مع أنَّ حادثة الجمل ما هي إلاّ فتنة دامت ساعات معدودات ، إلاّ أنّها أوجعت المسلمين عبر التَّاريخ لأسباب ثلاثة :

الأوّل : كونها أوّل قتال يقع بين المسلمين ، والثّاني : بسبب ما نتج عن هذه الحادثة من استشهاد اثنين من كبار الصّحابة ، وهما طلحة والزّبير ـ رضي الله عنهما ـ ، والثّالث : نتيجة نقلها من رواة لا يعتدّ بهم ، أو نقلها دون سند تعرف به ، فهذا اليعقوبي مثلاً يقول : " كانت

= الصّغير " للبخاري (ص١٠١) .

(١) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص٢٣٩/ رقم٢٣٦٥).

(٢) خليفة " تاريخ خليفة " (ص١٨٧ـ ١٩٠) .

(٣) ابن أبي شيبة " مصنّف ابن أبي شيبة " (ج١٥/ ص٢٨٦/ رقم١٩٦٧٩) وصحّحه الحافظ في " فتح الباري " (ج١٣/ ص٤٨) وقال: أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح.

الحرب أربع ساعات من النّهار ، فروى بعضهم أنّه قُتِلَ في ذلك اليوم نيف وثلاثون ألفاً "[1] وهذا لا يصحّ نقلاً ولا عقلاً ؛ فالقتال أربع ساعات بالسّيوف لا يوقع هذه الأعداد من القتلى! وقد يقول قائل لكنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر آنّه : " يقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثيرة "[2] فالجواب نعم ولكن ليس بهذه الكثرة المبالغ بها ! ولا غرو أنَّ المبالغة من علامات الوضع الّتي تُعرف بها الرّوايات الباطلة .

الثناء على عائشة قبل موتها على لسان ابن عبّاس

لمّا حضرت عائشة ـ رضي الله عنها ـ الوفاة استأذن ابن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ عليها وهي تموت ، فأثنى عليها ، فلمّا خرج من عندها وافَقَ خروجُه دخول ابن الزّبير ، فأخبرته عن دخول ابن عبّاس وثنائه عليها ، وقالت : " وددت لو كنت نَسْياً منسياً " وهذا على عادة أهل التُّقى والورع !

أخرج البخاري عن ابن أبي مُلَيْكة ، قال : " استأذن ابن عبّاس ـ قبل موتها ـ على عائشة ، وهي مغلوبةٌ ، قالت : أخشى أن يثني عليّ ، فقيلَ : ابن عمّ رسول الله ﷺ ومن وجوه المسلمين ، قالت : ائذنوا له ، فقال : كيف تجدينَك ؟ قالت : بخيرٍ إن اتَّقيْتُ الله ، قال : فأنتِ بخير إن شاء الله ؛ زوجةُ رسول الله ﷺ ، ولم ينكحْ بكراً غيرك ، ونزل عذرُكِ من السّماء، ودخل ابن الزّبير خلافه ، فقالت : دخل ابن عبّاس ، فأثنى عليّ ، ودِدْتُ أنّي كنتُ نَسْياً مَنْسيّاً "[3].

وأخرج البخاريّ عن القاسم بن محمّد أنّ عائشة اشتكتْ ، فجاء ابن عبّاس ، فقال :

---

(١) اليعقوبي " تاريخ اليعقوبي " (م٢/ ص٨١) .

(٢) ابن حجر " فتح الباري " (ج١٣/ ص٤٥) وقال ابن حجر : رواه البزّار ورجاله ثقات . وأورده الهيثمي في " مجمع الزّوائد " (ج٧/ ص٢٣٤) وقال : رواه البزّار ورجاله ثقات .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٦/ ص١٠) كتاب تفسير القرآن ، وانظر " الرّصف " لابن العاقولي (م٢/ ص٢١٢) .

"يا أمّ المؤمنين ، تَقْدمينَ على فَرَط صدْق على رسول الله وعلى أبي بكر "[1].

وابن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ يريد بهذه الكلمات أن يبشّرها بمنزلتها في الجنّة ، وقوله لها : " على فَرَط صدق " يعني رسول الله ﷺ ، وأبا بكر ؛ لأنّ قوله " رسول الله ... " بدل من فرط صدق ، وأضافهما إلى الصّدق وصفاً لهما ومدحاً . والمعنى أنّك ستلحقين بالأحبّة ، فقد سبقاك وهيّآ لك المنزل في الجنّة ، فافرحي يا عائشة .

وهذه الشّهادة عندما تأتي من عبد الله ابن عبّاس لها دلالتها ؛ لقربه من عليّ ، فما كان ليشهد لها ـ رضي الله عنه ـ لولا علمه بذلك !

***

(١) البخاريّ "صحيح البخاريّ " (م٢/ ج٤/ ص٢٢٠) كتاب أحاديث الأنبياء .

المبحث الثّاني

صاحب الأجر وصاحب الأجرين

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب]

عُذْرُ معاوية في التّعجيل وعذر عليّ في التّأخير

ماذا جرى في صفّين ؟ وعَلامَ اختلف معاوية وعليّ ؟ وهل سبب الاختلاف يجيز الاقتتال ؟ وكم دام هذا الاقتتال ؟ وكم كان عدد القتلى ؟ وما أحقيّة معاوية في الطّلب بدم عثمان ؟ وأيّ الفريقين كان معه الحقّ ؟

هذه الأسئلة وغيرها عزّت إجاباتها الدّقيقة على كثير من النّاس ؛ لندرة وتفرّق أخبارها الصّحيحة في كُتُب التّاريخ والتّراجم والسّير والمتون والتّخريج والعلل والسؤالات والشّروح والفقه والتّراجم والطّبقات والبلدان والأنساب ... ولا أدّعي أنّني أحطتُ بها لم يُحط به أحد من الباحثين ، وإنّما هو ما تيسّر من التّقدير وتقدّر من التّيسير ، والفضل كلّه لله تعالى الّذي نسأله أن يهدينا لما اختلف فيه النّاس من الحقّ بإذنه ، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [النّور] .

أمّا ما جرى في صفّين ، فقد جرى بين فريقين مُتَأَوّلين مجتهدين : فريق معاوية ـ رضي الله عنه ـ صاحب الأجر ، وفريق علي ـ رضي الله عنه ـ صاحب الأجرين .

وكان معاوية يطلب بدم ابن عمه عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، وينكر على عليّ ـ منعه من اقتضاء حقّه من قتلة عثمان ، والتّعجيل في تعقّبهم والاقتصاص منهم ؛ إقامة لحدود الله لا سيّما أنّ له شوكة عليهم .

وكان عليّ يرى أنّ إقامة القصاص على قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ وعلى مَنْ مَالأَ على دمه حقّ واجب ، لكنّ أخذ البيعة من معاوية مُقَدَّمٌ عليه لا سيّما وأنّه عامل على بلاد الشّام

من عهد أبي بكر وعثمان ، أفلا يكون له من الطّاعة ما كان للخلفاء من قبله !

ولذلك كان عليّ يرى أنّ على معاوية وأولياء دم عثمان ـ رضي الله عنه ـ أن يتحاكموا إليه بعد أن يتوطّد الأمر له ، فإذا ثبت على أحد بعينه أنّه ممّن قتل الخليفة عثمـان ـ رضي الله عنـه ـ أو مَالأَ على دمه ، أو أعان عليه اقتصَّ منه .

وعُذْرُ عليّ ـ رضي الله عنه ـ في تأخيره لإقامة الحدود على هؤلاء البغاة مَردُّه إلى أمرين:

الأوّل : أنّه لم يكن يومها من السّهل عليه أن يتبيّن هؤلاء البُغَاة ، بعد أن تفرّقوا في الأمْصَار . فالّذين شغبوا على عثمان ـ رضي الله عنه ـ من المنافقين والغوغَاء والعامّة والموتورين وأتباع ابن سبأ ، جاؤوا من أمصار مختلفة ، وكانوا كثرة كاثرة ، ولهم قبائل وطوائف تتعصّب لهم وتنتصر لهم ، وإقامة الحدود عليهم لا تكون خَبْط عَشْواء ، فهناك من يُتّهم بقتل الخليفة ، وهناك من أعان على دمه ، وهناك من ضَـلّ وغوى ، وهناك جاهل مغرّر به لا هو في العير ولا في النّفير، وهذا يحتاج إلى تحقيق وتدقيق وتروٍّ .

الثّاني : أنّ البلاد انتقضت وانتفضت بعد مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ فالأمر لم يكن قد توطّد له بعد ، فهو يحتاج إلى قُوَّة تعينه على أمره ، ولو كان له قوّة ما تأخّر في إخضاع البلاد ومحاسبة البغاة على عثمان ـ رضي الله عنه ـ . ولا يخفى أنّ للخليفة أن يُؤَخِّر الأحكام إذا كانت المصلحة في ذلك ، هذا عذره ـ رضي الله عنه ـ .

ولربّ قائل يقول : ألم يكن لعثمان من هو أولى بالطّلب بدمه من معاوية ؟!

والجواب : بلى ، كان هناك ولده أبان بن عثمان ، ولكن لم تكن له شُوكَةٌ كما كانت لمعاوية ـ رضي الله عنه ـ ولذلك أقام معاوية نفسه مقام وليّ الدّم ، وهو ابن عمّه ، وقُتل ظلماً وعدواناً ، وعثمان يومها مقدّم في الفضل على سائر الصّحابة ، فكيف يقعد معاوية عن نصرته وله قوّةٌ على ذلك ، والله تعالى يقول :﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ... (٣٣) ﴾ [الإسراء] هذا عذره ـ رضي الله عنه ـ .

سبب تشدّد معاوية في الطّلب بدم عثمان

وقد يسأل سائل : ما الحكمة من إصرار معاوية على الاقتصاص من قتلة عثمان في الحال؟ ! أما وسعه أن يطيع أمر الخليفة الّذي يرى أنَّ التَّريُّثَ هو السّبيل إلى النّيل من قتلة عثمان ؟! أم أنّ لمعاوية مآرب أخرى ؟

قد يتوهّم متوهّم أنّ العصبيّة وراء تشدّد معاوية ، فهو يطلب بدم ابن عمّه ، أو أنّ وراء ذلك طلب السّيادة والملك .

أمّا العصبيّة فلا ، فدعوى الجاهليّة عند الصّحابة موضوعة ؛ لأنّ النَّبيَّ ﷺ خطب فيهم يوم عرفة ، وقال : " ألا كُلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمَيَّ موضوع"(1) وما وَضَعَهُ النَّبيُّ ﷺ وضعه الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، لكنّه ـ رضي الله عنه ـ كان يرى أنّ له سلطاناً ، فالله تعالى يقول :﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا ... ﴿٣٣﴾﴾[الإسراء].

وأمّا المُلْك فلا ؛ لأنّ معاوية لا يَسْأل الإمارة ، فهو يعرف قول النَّبيِّ ﷺ لّما خاطب عبد الرّحمن بن سمرة ، وقال له : " لا تسأل الإمارة فإن أعطيتها عن مسألة وكِلت إليها "(2) والصّحابة لا يُؤَمِّرون أحداً يسأل الإمارة أو يحرص عليها ، لقوله ﷺ لرجلين من قوم أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ : " إنّا لا نولّي هذا مَنْ سأله ولا من حرص عليه "(3).

ولكنَّ وراء تشدّده أَمْرَين فيما نعتقد : ظاهر ، وخفيّ . أمّا الأمر الظّاهر فهو أنّ البغاة على الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ اجترؤوا على رأس الدّولة ، وهو خير من طلعت عليه الشّمس بعد النَّبيِّ ﷺ وخليفته ، فكأنّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ لا يرى لنفسه عذراً أمام الله إن تهاون بالطّلب في دم عثمان ، والبغاة يرتعون ويلعبون في أرض الهجرة وقبّة الإسلام ودار الإيمان ، لا سيّما وأنّ له شوكة عليهم .

---

(1) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٤/ ج٨/ ص١٨٢) كتاب الحجّ .

(2) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص١٠٦) كتاب الأحكام .

(3) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص١٠٧) كتاب الأحكام .

أمّا الخفيّ الّذي عَزَّ معرفته على الكثير ممّن يُنَقِّبونَ عن المثالب ولا تعنيهم المناقب فهو أنّ معاوية كان يخشى من تأخير محاسبتهم أن يستطير شرُّهم ، وأن يكثر عليهم أمثالُهم من المنافقين وأراذل النّاس ، فيصيب عليّاً ما أصاب عثمان ، ويستبيحوا بَيْضَةَ الإسلام مرّتين !

نعم كان يخشى على عليّ منهم ، قال الطحاوي : " ثمّ جرت فتنة صِفِّين لرأي ، وهو أن أهل الشّام لم يعدل عليهم ، أو لا يتمكّن من العدل عليهم ـ وهم كافّون ، حتّى يجتمع أمر الأمّة ، وأنّهم يخافون طُغْيانَ مَنْ في العسكر ، كما طَغُوا على الشَّهيد المظلوم "(١).

ولو شاء الله أن يجتمع عليّ ومعاوية على هؤلاء البغاة ما وقعت حادثة الجمل ولا صفّين ﴿وَلَـٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ... ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال].

وعلى ذلك فإنّ معاوية محقّ في طلبه ، سليم في نيّته ، لكن عظيم مصابه في عثمان ـ رضي الله عنه ـ جعله يتشدّد في طريقة الطّلب بدمه ، إلى حَدٍّ طلب فيه حقّاً وقاتل عليه .

من الأدلّة على أنّ عليّاً ومن معه أولى بالحّق من معاوية وصحبه

نحن نعلم أنّنا أقلُّ من أنْ نتكلّم فيما جرى بين الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، فالصَّحابة زَكَّاهم الله تعالى ، ومن زكّاه الله فقد أغناه عن تزكية أحد . ولذلك لا يحتاج واحد منهم إلى الدِّفاع عنه ، لكن كثرة الرّوايات الباطلة دفعتنا إلى الكشف عن الحقّ من بين ركام الزَّيْف ، فالرّوايات لها زيف مثل زيف الدّراهم ، تحتاج إلى نقد وتمييز.

وحتّى لا نُتَّهَمُ بالميل إلى معاوية دون وجه حقّ نقول : هناك أدلّة قاطعة على أنّ عليّاً ومن معه أولى بالحقّ من معاوية وأصحابه ، منها : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : " تَمْرُقُ مارقة عند فُرْقة من المسلمين يقتلها أولى الطّائفتين بالحقّ "(٢) والمارقة هم الخوارج ، وقد وَلِي قتلهم عليّ ـ رضي الله عنه ـ ومن معه ، فدلّ هذا الحديث على أنّ عليّاً ومعاوية متعلّقان بالحقّ ولكنّ عليّاً الأقرب إليه.

---

(١) الطحاوي " شرح العقيدة الطحاوية " (ص٥٤٦).

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٤/ ج٧/ ص١٦٨) كتاب الزّكاة.

ومن الأدلّة : قول النَّبيِّ ﷺ لعمّار : " وَيْحَ عمَّار تقتُله الفئة الباغية"(١) وعمّار ـ رضي الله عنه ـ كان في صفّ عليّ ـ رضي الله عنه ـ ولم يكن في صفّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ .

بطلان خبر رفع المصاحف على الرّماح

وما حدث بين عليّ ـ رضي الله عنه ـ بعد أن بويع بالخلافة ، وبين معاوية ـ رضي الله عنه ـ الّذي كان يومها عاملاً على دمشق ممّا لا يمكن العلم بدقيقه وصغيره ، والقول المفصّل فيه قول بلا علم ، لأنّ الأخبار الصّحيحة شحيحة .

فخبر الاقتتال على الماء ، وخبر دعاء عليّ معاوية إلى الطّاعة والجماعة ، وخبر رفع المصاحف على الرِّماح والدُّعاء إلى الحكومة (الاحتكام) ، جُلُّ هذه الأخبار لا تصحُّ ؛ فقد أخرجها الطّبري من طريق أبي مخنف ، وأبو مخنف لا يوثق به ، وستأتي ترجمته ، وأخرج طرفاً من هذه الأخبار من طريق الزّهري ، والزّهري لم يدرك هذه الأحداث .

وسأجتزئ بعض هذه الأخبار المفضوح كذبها لدراستها ، بعد أن أذاعها مَنْ أذاعها ، وصدّقها من صدّقها ، فَضَلَّ مَنْ ضَلَّ ، وخَسِرَ من خسر! ثمّ أسوق بعد ذلك ما صحّ من الأخبار وما يطمئنّ له القلب من الآثار ؛ لأعارض تلك الأخبار وأَرُدَّها .

فقد أخرج الطّبري من طريق أبي مخنف ، أنّ عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يرفعوا المصاحف على الرّماح ليوقعوا الفرقة في جيش عليّ ، قال أبو مخنف :

" فلمّا رأى عمرو بن العاص أنّ أمر أهل العراق قد اشتدّ ، وخاف في ذلك الهلاك ، قال لمعاوية : هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة ؟ قال : نعم، قال : نرفع المصاحف ، ثمّ نقول : ما فيها حكم بيننا وبينكم ، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول : بلى ينبغي أن نقبل ، فتكون فرقة تقع بينهم ، وإن قالوا : بلى نقبل ما فيها رفعنا هذا القتال عنّا ، وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين فرفعوا المصاحف بالرّماح ،

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص٢٠٧) كتاب السّير .

وقالوا : هذا كتاب الله بيننا وبينكم "[1].

وهذه الرِّواية باطلة سنداً لأنّها من طريق أبي مخنف ، وهو أخباريّ تالف ، وباطلة متناً من وجوه :

أحدها : تزعم الرّواية أنّ عليّاً كان كارهاً للتحكيم وينهى عنه ، وهذا خلاف الثّابت ، فإنّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ لمّا بلغه طلب معاوية التّحكيم ، قال : " نَعم أنا أولى بذلك ، بيننا وبينكم كتابُ الله "[2] وسيأتي ذلك في موضعه .

الثّاني : أنّ كلمة (بلى) الواردة في الرّواية وهي حرف جواب مختصّة بالنّفي ، لا تقع إلاّ بعد نفي في اللفظ أو في المعنى ، سواء اقترنت به أداة استفهام أو لا ، فإن اقترنت به أداة استفهام وكان الاستفهام منفياً وأردت الإثبات قلت : بلى ، وإن أردت النّفي ، قلت : نعم . وقد اسْتُخْدِم حرف الجواب (بلى) في الرّواية مرّتين استخداماً خاطئاً ، وهذا من علامات الوَضْع ، إذ أنّ الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ أهل الفصاحة والبلاغة ، وهذا كلام يحتاج أن ترشد صاحبه الّذي وضعه ، فقد ضَلَّ .

الثّالث : تزعم الرّواية أنّهم لمّا طلبوا الاحتكام إلى كتاب الله تعالى رفعوا المصاحف على الرّماح ، وهذا خلاف الثّابت ، فقد صحّ أنّ عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يرسل إلى عليّ بمصحف مع أحد رجاله يدعوه إلى كتاب الله ، ففي رواية أحمد : " فجاء به رجل ، فقال بيننا وبينكم كتاب الله "[3].

وهذا هو اللائق والأولى ، فرواية الطّبري تُوهِمُ أنّ عشرات بل مئات المصاحف رفعت على الرّماح ، ونحن نعلم أنّ المصاحف يومها كانت قليلة ، فالخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ هو الّذي جمع النّاس على مصحف واحد وأَمَرَ نفراً من الصّحابة بكتابة المصاحف ،

---

(١) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٤/ ص٣٤) .

(٢) أحمد " المسند " (م١٢/ ص٣٩٩/ رقم١٥٩١٧) بإسناد صحيح عن حبيب بن أبي ثابت .

(٣) المرجع السَّابق.

وأرسل لكلّ مصر مصحفاً ، فمن أين جاؤوا بهذه المصاحف كلّها ، ثمّ إنّ الأولى أن يُحمل كتابُ الله بالأيدي لا أن يحمل على الرّماح !

الرّابع : لا يصدّق أنّ الصّحابة تخدع بعضها في الله ، فلا يُعْقَلُ أن يُظْهِرَ معاوية وعمرو للخليفة عليّ أمراً ويضْمِرا خلافه ، ويخدعانه بماذا ؟ يخدعانه بكتاب الله ! هذا قطعاً ليس من أخلاق الصّحابة ، أمّا من ذهب إلى جواز ذلك واستدلّ بقوله : "الحرْب خَدْعة" [1] فإنّ الحديث لا يفهم منه جواز ذلك ، وإنّما يفهم منه جواز خداع الكفّار في الحرب ، إلاّ أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز. والصّحابة لا يخدعون ولا يغدرون بعضهم في الصّلح ولا في غيره .

كما أخرج الطّبريّ في أمر المصاحف والتّحكيم من طريق أبي مخنف ، عن عبد الرّحمن ابن جندب الأزدي ، عن أبيه أنّ عليّاً ، قال : " عبادَ الله امضوا على حقّكم وصدقكم قتال عدوّكم ، فإنّ معاوية ، وعمرو بن العاص ، وابن أبي معيط ، وحبيب بن مسلمة ، وابن أبي سرح ، والضّحاك بن قيس ، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، أنا أعرف بهم منكم ، قد صحبتُهم أطفالاً ، وصحبتهم رجالاً ، فكانوا شَرَّ أطفال ، وشَرَّ رجال ، وَيْحَكُمْ ! إنّهم ما رفعوها ، ثمّ لا يرفعونها ، ولا يعلمون بما فيها ، وما رفعوها لكم إلاّ خديعة ودهناً ومكيدة ، فقالوا له : ما يسعنا أن نُدْعَى إلى كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ فنأبى أن نقبله !

... فقال له مسعر بن فدكي ، وزيد بن حصين[2] الطّائي ثمّ السّنبسي في عصابة معهما من القرّاء الّذين صاروا خوارج بعد ذلك : يا عليّ ، أجب إلى كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ إذا دُعِيْتَ إليه ؛ وإلاّ ندفعُكَ برمّتك إلى القوم ، أو نفعلُ كما فعلنا بابن عفّان ... "[3].

وهذه الرّواية باطلة سنداً ومتناً ، أمّا بطلان سندها فمردّه إلى أبي مخنف ، لوط بن يحيى ،

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص٢٤) كتاب الجهاد والسّير .

(٢) الصّواب زيد بن حصن يبدو أنّه تصحيف .

(٣) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٤/ ص٣٤).

فهو متروك ، أمّا بطلان متنها فمن وجوه :

أحدها : أنّ الرّواية تطعن في وجوه الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، فهي تطعن في عليّ كما تطعن فيمن ذُكِر من الصّحابة ، فلا يصدّق أنّ معاوية ومن معه من الصّحابة ليسوا أصحاب دين وقرآن ، ونحن نعلم أَنَّ النَّبيَّ ﷺ اسْتَكْتَبَ معاوية وجعله أميناً على القرآن وخبر السّماء .

ولا يصدّق أنّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ وهو من هو في العلم والفقه ينفي الدِّينَ عن أصحاب النَّبيِّ ﷺ لأجل أنّهم في صفِّ معاوية ! فهل يخفى على عليّ عدالة الصّحابة الثّابتة بالتّواتر في كتاب الله وسنَّةِ رسوله ﷺ حتّى يتّهمهم بأنّهم ليسوا أصحاب دين ، فإذا لم يكن أصحاب النَّبيِّ ﷺ أصحاب دين، فمن يكون إذاً ؟!

وقد وضع العلماء قواعد لمعرفة الرّواية المختلقة ، منها مخالفة الرّواية لما ثبت في الكتاب والسُّنَّة ، وهذه الرّواية تخالفهما معاً ؛ فهي تشكّك في عدالة الصّحابة ، وعدالة الصّحابة قد نصّ عليها الكتاب والسُّنَّة .

الثّاني : الرّواية تتّهم الصّحابيّ زيد بن حصن الطّائي ثمّ السّنبسي[1] أنّه من قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، وأنّه من الخوارج ، ونحن نعرف أنّه لا يُتَّهم أحدٌ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ في دم عثمان ـ رضي الله عنه ـ وقد بيّنا ذلك في كتابنا (شهيد الدّار عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ)، وليس في الخوارج أحد ممّن صحب رسول الله ﷺ فقد ثبت أنّ ابن عبّاس قال للخوارج: " أتيتكم من عند صحابة النَّبيِّ ﷺ من المهاجرين والأنصار ، لأبلغكم ما يقولون فعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بالوحي منكم ، وفيهم أنزل : وليس فيكم منهم أحد"[2].

---

(١) ذكر الحافظ في ترجمته أنّه كان عامل عمر بن الخطّاب على حدود الكوفة ، وقال : " وقد قَدَّمْتُ غير مرّة أنّهم كانوا لا يؤمِّرون في ذلك الزّمان إلاّ الصّحابة " ابن حجر " الإصابة " (م٢/ ج٣/ ص٢٦/ رقم٢٨٨٧)

(٢) الحاكم " المستدرك " (ج٢/ ص١٥٠) كتاب قتال أهل البغي . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرِّجاه . وأخرجه النّسائي في " خصائص أمير المؤمنين عليّ " (ص١٥٠) ، وقال=

الثّالث : هذه الرّواية تزعم أنّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ كان يعرف قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ ويُؤْويهم في جيشه منذ أن قُتل عثمان ، والأمر أمرهم ، وهذا باطل ، فالخليفة عليّ هو من روى قول النَّبيِّ ﷺ : " المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْر إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى مُحْدِثاً فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين ، لا يُقْبَلُ منه يوم القيامة صَرْف ولا عدْلٌ "(١) .

الرّابع : لا يصدّق أنّ عليّاً يُدعى إلى الاحتكام إلى كتاب الله تعالى ويأبى ، وهو يقرأ قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النّور].

الخامس : المشهور عند العلماء أنّ من علامات الوضع ركاكة الألفاظ وفساد المعنى ، فمّما يُظهر جليّاً أنّ هذه الرّواية من وحي أهواء المبطلين أنّها اشتملت بعد ذلك على ألفاظ يعفّ قلمي عن ذكرها تقديراً لمقام أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، فكيف يسمع الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ مثل تلك الألفاظ ولا ينكرونها ؟! فضلاً عن أن تجري على ألسنتهم ، وقد قال الله تعالى في حقّهم: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ... ﴿٢٤﴾﴾ [الحجّ] .

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك كثيراً من الروايات والأخبار للمؤرِّخ نصر بن مزاحم المتوفى سنة (٢١٢هـ) في كتابه " وقعة صفّين " تقشعرّ لها الأبدان وتشيب من هولها نواصي الولدان لا تصحّ البتّة ، فضلاً عن الأشعار الكثيرة في هذا الكتاب ، والّتي هي مِنْ صِناعَةِ الرُّواةِ أو تَلْفِيقِ أصحاب الأخبار .

وهذه ترجمة لأبي مخنف ونصر بن مزاحم ليكون القارئ على بصيرة فلا يقع في أعراض الصّحابة ، وقد قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات] فلو جاء الإنسان بكلّ معذرة

= المحقّق : إسناده صحيح .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص١٠) كتاب الفرائض .

يعتذر بها يوم القيامة ، لا ينفعه ذلك من بعد ما تبين له الحقّ ، فإنّ جوارحه ستشهد عليه ، كما قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة].

ترجمة أبي مِخْـنَـف

ترجم له ابـن الجـوزي في " كتاب الضّعفاء والمتروكين " وقـال : " لـوط بن يحيى ، أبو مخنَف ، قال يحيى : ليس بثقة . وقال مرة : ليس بشيء . وقال أبو حاتم الرّازي : متروك الحديث . وقال الدراقطني : ضعيف "(١).

وترجم له الجرجاني في " الكامل " فقال : " ... حَدَّثَ بأخبار مَنْ تقدّم من السّلف والصّالحين ولا يبعد منه أن يتناولهم ، وهو شاعي (شيعي) محترق صاحب أخبارهم ... له من الأخبار المكروه الّذي لا أستحبّ ذكره "(٢).

وترجم له الرّازي في " الجرح والتّعديل " ... قال : " حدّثنا عبد الرّحمن ، قال : سمعت أبي يقول : أبو مخنف متروك الحديث "(٣).

وترجم له العقيلي في " كتاب الضّعفاء الكبير " فقال : " عن محمّد ، عن عبّاس ، قال : سمعت يحيى ، قال : أبو مخنف ، وأبو مريم ، وعمرو بن شمر، ليسوا هم بشيء ، قلت : ليحيى : هما مثل عمرو بن شمر ؟ قال : هما شَرٌّ من عمرو بن شمر "(٤).

وترجم له ابن حجر في " لسان الميزان " وقال : " لوط بن يحيى ، أبو مخنَف ، أخباري تالف ، لا يوثق به . تركه أبو حاتم وغيره . وقال الدارقطني : ضعيف . وقال ابن معين : ليس بثقة . وقال مرة : ليس بشيء . وقال ابن عدي : شيعي محترق ، صاحب أخبارهم "(٥).

---

(١) ابن الجوزي " كتاب الضّعفاء والمتروكين " (ج٣/ ص٢٨/ رقم٢٨١٣).

(٢) الجرجاني " الكامل في ضعفاء الرّجال " (ج٦/ ص٩٣/ رقم ٥/ ١٦٢١).

(٣) الرّازي " الجرح والتّعديل " (م٧/ ص٢٤٧/ رقم ١٢٥٧٤/ ١٠٣٠).

(٤) العقيلي " كتاب الضّعفاء الكبير " (ج٤/ ص١٨/ رقم ١٥٧٢).

(٥) ابن حجر " لسان الميزان " (م٦/ ص٤٣٠/ رقم ٦٤٤٨).

وترجم له الذّهبي في " المغني في الضّعفاء " فقال : " ساقط ، تركه أبو حاتم . قال الدّارقطني : ضعيف "[1].

هذه آراء بعض الحفّاظ فيه ، وعلى ذلك فكلّ من نقل عنه واهتمّ به شرقيّاً كان أم غربيّاً، فكلامه لا يُعْتَدُّ به .

ترجمة نصر بن مزاحم

ترجم له العُقَيْليّ في " كتاب الضّعفاء الكبير " فقال : " نصر بن مزاحم المنقري : كان يذهب إلى التّشيّع ، وفي حديثه اضطراب وخطأ كثير "[2].

وترجم له ابن الجوزي في " كتاب الضّعفاء والمتروكين " قال : " قال أبو خيثمة : كان كذّاباً ، قال يحيى : ليس حديثه بشيء . وقال أبو حاتم الرّازي : واهي الحديث متروك الحديث. وقال الدّارقطنيّ : ضعيف . وقال إبراهيم الجوزجانيّ : كان زائغاً عن الحقّ . وقال أبو بكر الخطيب : يريد بذلك غلوّه في الرّفض . وقال صالح بن محمّد : روى عن الضّعفاء أحاديث مناكير . وقال أبو الفتح الأزدي : كان غالياً في مذهبه ، غير محمود في حديثه "[3].

وترجم له ابن حجر في " لسان الميزان " فقال : " نصر بن مزاحم الكوفيّ : رافضيٌّ جَلْدٌ، تركوه . وقال العِجْليُّ : كان رافضيّاً غالياً ليس بثقة ولا مأمون "[4].

بطلان قِصَّة التَّحكيم المشهورة من وجوه

وأخرج الطّبري من طريق سليمان بن يونس بن يزيد ، عن الزّهري ، قال : " قال صعصعة بن صوحان يوم صفّين حين رأى النّاس يتبارون : ألا اسمعوا ، تعلَمُنّ والله لئن

(١) الذّهبي " المغني في الضّعفاء " (ج٢/ ص٢٣٤/ رقم٥١٢٢).

(٢) العُقَيْليّ " كتاب الضّعفاء الكبير " (ج٤/ ص٣٠٠/ رقم١٨٩٩).

(٣) ابن الجوزي " كتاب الضّعفاء والمتروكين " (ج٣/ ص١٦٠/ رقم٣٥١٨).

(٤) ابن حجر " لسان الميزان " (م٨/ ص٢٦٧/ رقم٨١٢٧).

ظهر عليّ ليكوننّ مثل أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ، وإن ظَهَرَ معاوية لا يُقِرُّ لقائل بقول حقّ ، قال الزّهري : فأصبح أهل الشّـأم قد نشروا مصاحفهم ، ودعوا إلى ما فيها ؛ فهاب أهل العراقين ، فعند ذلك حكّموا الحكمين ، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري ، واختار أهل الشّأم عمرو بن العاص . فتفرّقَ أهل صفّين حين حكم الحكمان ، فاشترطا أن يرفعا ما رفع القرآن ، وأن يخفضا ما خفض القرآن ، وأن يختارا لأمّة محمّد ﷺ ، وأنّهما يجتمعان بدومة الجندل ، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا في العام المقبل بأذرح ، فلمّا انصرف عليٌّ خالفت الحروريّة ، وخرجت ، وكان ذلك أوّل ما ظهرت فآذنوه بالحرب ، وردّوا عليه إن حكّمَ بني آدم في حكم الله ـ عزّ وجلّ ـ وقالوا : لا حُكْمَ إلاّ لله ـ سبحانه ـ وقاتلوا .

فلمّا اجتمع الحكمان بأذرح وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من النّاس ، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطّاب ، وعبد الله بن الزّبير في إقبالهم في رجال كثير ، ووافى معاوية بأهل الشّأم ، وأبى عليٌّ وأهل العراق أن يوافوا ... فلمّا اجتمع الحكمان وتكلّما ، قال عمرو بن العاص : يا أبا موسى ، رأيت أوّل ما نقضي به من الحقّ أن نَقْضِيَ لأهل الوفاء بوفائهم ، وعلى أهل الغَدْرِ بغدرهم ، قال أبو موسى : وما ذاك ؟ قال : ألست تعلم أنّ معاوية، وأهل الشّأم قد وَفُوا وقَدِمُوا للموعد الّذي واعدناه إيّاه ؟ قال : بلى ، قال عمرو : واكتبها ، فكتبها أبو موسى ، قال عمرو : يا أبا موسى أأنت على أن نسمّي رجلاً يلي أمر هذه الأمّة ، فَسَمِّ لي ، فإن أقدر على أن أتابعك ، فلك عليّ أن أتابعك ، وإلاّ فلي عليك أن تتابعني ، قال أبو موسى: أسمّي لك عبد الله بن عمر ، وكان ابن عمر فيمن اعتزل ، قال عمرو : إنّي أسمّي لك معاوية بن أبي سفيان فلم يبرحا مجلسهما حتّى استبّا ، ثمّ خرجا إلى النّاس ، فقال أبو موسى : إنّي وجدت مَثَل عمرو مثل الّذين قال الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ... ﴿١٧٥﴾ ﴾ [الأعراف] فلمّا سكت أبو موسى تكلّم عمرو ، فقال: إنّي وجدتُ مَثَلَ أبي موسى كمثل الّذي قال الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ... ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة] وكتب كُلُّ واحدٍ

منها مثله الّذي ضربه لصاحبه إلى الأمصار ... "[1].

وهذه الرّواية لا تصحّ سنداً ؛ لأنّ الزّهري لم يُدْرِكْ هذه الحادثة ، والزّهري هو : محمّد ابن مسلم الزّهري ، أبو بكر ، الفقيه الحافظ متّفق على جلالته وإتقانه ، ولد في آخر خلافة معاوية ـ رضي الله عنه ـ وفي " سير أعلام النّبلاء "[2] فإنّ مولده فيما قاله دحيم وأحمد بن صالح : في سنة خمسين ، وفيما قاله خليفة بن خيّاط : سنة إحدى وخمسين .

وأحداث صفّين هذه كانت بدايتها سنة ست وثلاثين للهجرة ، فكيف يروي الزّهري أحداثاً وقعت قبل ولادته بأربعة عشر عاماً على الأقلّ ؟! فالرّواية مرسلة ، ومراسيل الزّهري ذهبت كأدراج الرّياح عند العلماء ، لا تقوم بها حُجَّةٌ ، ولذلك قال أحمد بن سنان الواسطي : " كان يحيى بن سعيد القطان لا يرى إرسال الزّهريّ وقتادة شيئاً ، ويقول : هو بمنزلة الرِّيح ، ثمّ يقول : هؤلاء قوم حفّاظ كانوا إذا سمعوا الشيء علقوه "[3].

ومن العلماء والفقهاء من يرى عدم صحّة الاحتجاج بالمرسل ، قال الإمام مسلم : "والمرسل من الرّوايات في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجّة "[4].

ويدلّك على ضعفها أنّ الزّهري أوّل الرّواية يحدّث عن صعصعة بن صوحان ، وهو من كبار التّابعين ، وتوفي في خلافة معاوية ، أي أن الزّهري لم يسمع منه .

---

(١) الطّبري : " تاريخ الأمم والملوك " (م٤/ ص٤١) وأخرج نحوها ابن سعد عن محمّد بن عمر، عن معمر ابن راشد ، عن الزّهري في " الطبقات الكبرى " (م٤/ ص٢٥٥) . ومحمّد بن عمر هو الواقدي، مَتْروك، والزُّهري لم يدرك الحادثة.

(٢) انظر أخبار الزّهري في " سير أعلام النّبلاء " (ج٥/ ص٣٢٦/ رقم١٦٠) و " كتاب التّاريخ الكبير " (م١/ ص٢٢٢/ رقم٦٩٣) و " كتاب الثّقات " (ج٥/ ص٣٤٩) و" تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام " (م٨/ ص٢٢٧) .

(٣) ابن أبي حاتم " كتاب المراسيل " (ص١٣).

(٤) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي" (م١/ ج١/ ص١٣٢) مقدّمة الشّارح . وهو قول الشّافعيّ أيضا وغيره من الفقهاء .

وقد قال الزّهري ذات يوم : " يا أهل العراق ، يخرج الحديث من عندنا شِبْراً ، ويصير عندكم ذِراعاً "(١) قلت : وقد أحسن من قال :

وقد نقلوا عنّي الّذي لم أفُه به　　　وما آفة الأخبار إلاّ رواتُها

وأخرج نحو هذه الرّواية ابن سعد في " الطّبقات الكبرى "(٢) وفي سندها ثلاثة مجروحين : ضعيف ، ومتروك ، ومرمي بالوضع ، وقد رأيت بيان حال هذه الرّوايات درءاً لتوهّم التّعصُّب ، ودَفْعاً لمظنّة الهوى ، فقد أخرجها ابن سعد من طريق محمّد بن عمر ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، عن عمرو بن الحكم .

أمّا محمّد بن عمر ، فهو الواقدي ، والواقدي ضعيف باتّفاق ومتروك مع سعة علمه ، وتقدّمت ترجمته ، أمّا ابن أبي سبرة ، فقال عنه الحافظ : " رموه بالوضع "(٣) أمّا ابن أبي فروة ، فقال عنه الحافظ : "متروك "(٤).

كذلك الرّواية لا تصحّ متناً ؛ لأنّ فيها اضطراب من وجوه :

أحدها : هذه الرّواية تصوّر أنّ هناك خلافاً بين عليّ ومعاوية على الخلافة ، وأنّ معاوية ينازع عليّاً عليها ، وهذا باطل فالخلاف بينهما ليس على الملك كما هو معلوم ، ولو كان معاوية ينازع عليّاً الخلافة لما تَخَلَّفَ صحابيٌّ واحدٌ عن النّكير عليه ، بل ومقاتلته من أوّل الأمر، ولَمَا كانت هناك شبهة في وجوب مقاتلته ، فقد قال النَّبيُّ ﷺ : "إذا بُويعَ لخليفتين ، فاقتلوا الآخر منهما "(٥) ، وقال النَّبيُّ ﷺ : " من أتاكم وأمركم جميعٌ على رجل واحد يُريد

---

(١) الذّهبي " تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام " (م٨/ ص٢٣٧) أحداث سنة ثلاثين ومائة .

(٢) ابن سعد " الطّبقات الكبرى " (م٤/ ص٢٥٦).

(٣) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص ٦٢٣/ رقم٧٩٧٣).

(٤) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص١٠٢/ رقم٣٦٨).

(٥) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٦/ ج١٢/ ص٢٤٢) .

أن يشقّ عَصَاكم أو يفرّق جماعتكم ، فاقتلوه "[1].

وهذا ممّا لا يخفى على الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، الّذين لم يكن هناك من هو أشدّ منهم تعظيماً لأمر الله ورسوله ، ولو كان ذلك كذلك لما كان معاوية ـ رضي الله عنه ـ معتقداً أنّه على الحقّ ولا الصّحابة الّذين معه ، ونِسْبَة ذلك إلى الصّحابة تخطئة لهم.

ثمّ إنّه لم يَرِدْ من طريق صحيح ولا ضعيف أنّ عليّاً كان يريد عزل معاوية ـ رضي الله عنه ـ عن إمرة الشّام .

الثّاني : هذه الرّواية كغيرها من الرّوايات الباطلة تصوِّر الصَّحابيَّ الجليل عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أنّه مخادع وغادر ، وأنّ أبا موسى الأشعريّ ـ رضي الله عنه ـ مغفّل جاهل لا يعرف بالقضاء ، أستغفر الله وأتوب إليه ؛ فإنّ هذه الكلمات لا يطاوعني قلمي على تسجيلها ، فكيف يستقيم هذا وأبو موسى كان واحداً من القضاة الفقهاء ، فقد رُوي عن مسروق قوله : " القضاةُ أربعة : عمر ، وعليّ ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنهم ـ "[2].

وقال الحافظ في ترجمته لأبي موسى : " .... واسمه : عبد الله بن قيس : استعمله النَّبيُّ ﷺ على بعض اليمن ، واستعمله عمر على البصرة بعد المغيرة ، افتتح الأهواز ثمّ أصبهان ، ثمّ استعمله عثمان على الكوفة "[3].

وقد فَقَّه أبو موسى الأشعريّ ـ رضي الله عنه ـ أهل البصرة ، وأقرأهم القرآن، حتّى قال الحسن : " ما قَدِمَ البصرة راكبٌ خير لأهلها من أبي موسى الأشعري "[4].

فهو الفقيه العالم بالقرآن والسُّنَّةِ ، حسن الصّوت بالقرآن ، روى مسلم عن عبد الله ابن بُرَيْدَة عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : " إنّ عبدَ الله بن قيس أو الأشعري أُعطي

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٦/ ج١٢/ ص٢٤٢).

(٢) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص٤٦٥) كتاب معرفة الصّحابة .

(٣) ابن حجر " الإصابة " (م٢/ ج٤/ ص١٢٠/ رقم٤٨٨٩).

(٤) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص٤٦٥) كتاب معرفة الصّحابة .

مِزْماراً من مزامير آل داودَ "[١] وكان النَّبيُّ ﷺ يُحِبُّ أن يستمع لقراءته ، فقد قال له ذات يوم: " لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة ، لقد أوتيتَ مِزْماراً من مزامير آل داودَ "[٢].

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ إذا رآه قال : " ذَكِّرْنا ربَّنا يا أبا موسى ، وفي رواية : شوّقنا إلى ربّنا ، فيقرأ عنده "[٣] فمن يتكلّم على صحابيّ أشبه بنملة وَهْنَانة تحاول أنْ تزحزح جبلاً شامخاً من مكانه ! أو أشبه بفم كريه يحاول أن يطفئ شمس الضّحى وهي ساطعة .

ولا تصحّ الأخبار الّتي فيها اتّهام لأبي موسى ـ رضي الله عنه ـ أنّه كان ينال بعد ذلك من عليّ ، فقد روى الحاكم عن ابن عبّاس ، قال : قال أبو موسى الأشعري : " إنّ عليّاً أوّل من أسلم مع رسول الله ﷺ "[٤] وقال الحاكم : " هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرّجاه ، والغرض من إخراجه براءة ساحة أبي موسى من نقص عليّ ، ثمّ رواية ابن عبّاس عنه "[٥].

فليس هناك مِنْ مَكْرٍ ولا خديعة ولا تبديل ـ كما يصوّرون ـ وإنّما كان واحدهم يعرف سابقة الآخر ويدين بفضله ، ولا يعرف أحدهم الغَدْرَ أبداً ، روى أحمد بإسناد صحيح عن الحسن، قال : " جاء رجلٌ إلى الزّبير بن العوّام ، فقال : أقتلُ لك عليّاً ؟! قال : لا ، وكيف تقتله ومعه الجنود ؟ قال : ألحق به فأفتك به ، قال : لا ؛ إنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ الإيمان قَيْدُ الفَتك ، لا يفتك مؤمن "[٦] والفتك هو أن يُؤْتى الإنسان من مأمن لا يرى أنّه أريد به بأس فيغدر فجأة ، فهذا ليس من أخلاق الصّحابة الّذين تربّوا في مدرسة النَّبيِّ ﷺ !

الثّالث : أنّ الّذين كتبوا هذه الرّوايات عمدوا إلى الآيات الّتي أُنْزِلَتْ في الكفّار وأهل

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٣/ ج٦/ ص٨٠) كتاب صلاة المسافرين، والبخاري نحوه "صحيح البخاري " (م٣/ ج٦/ ص١١٢) كتاب فضائل القرآن .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٣/ ج٦/ ص٨٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) ابن حجر " الإصابة " (م٢/ ج٤/ ص١٢٠/ رقم٤٨٨٩) .

(٤) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص٤٦٥) كتاب معرفة الصّحابة .

(٥) المرجع السّابق .

(٦) أحمد " المسند " (ج٢/ ص٢٠١/ رقم١٤٢٦) .

الكتاب ، فجعلوها على المؤمنين ـ وأصحاب النَّبيِّ الكريم ﷺ! ألا ترى كيف ضربوا مثلاً بالكلب والحمار لصحابيين جليلين ، هما أنقى من الضباب ، وأطهر من ماء السّحاب !!

فهل يليق بالصّحابيّ الجليل عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أن يكون مثله ، مثل من قال الله فيه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف] هل كذّب عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ بآيات الله تعالى حتّى يكون هذا مثله ! أم هل يليق أن يكون مثل أبي موسى الأشعريّ ـ رضي الله عنه ـ ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ... ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة] وأيّ فائدة ترجى من كتابة هذه الأمثال وإرسالها إلى الأمصار ! وهذا ليس غريباً من هؤلاء الّذين يلفقون الأخبار ولا يخافون الواحد القهّار !

وهذا يدلّك على أنّ الّذين كتبوا هذه الرّوايات هم من أتباع الّذين خرجوا على عليّ وممّن يتأشّب لهم ، وفي البخاري : " كان ابن عمر يراهم شرار الخلق ، وقال : إنّهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفّار فجعلوها على المؤمنين "(١).

الرّابع : هذه الرّواية تجعل أمر اختيار الحكمين من فعل أهل العراق وأهل الشّام ، وكأنّ عليّاً ومعاوية ليس لهما من الأمر شيء .

رواية التّحكيم من طريق آخر

وأخرج الطّبري قصّة التّحكيم من طريق آخر ، وفيها أنّ عبد الله بن عبّاس نَصَحَ لأبي موسى ألاّ يتكلّم أوّلاً وحذّره حتّى لا يغْدُرَ به عمرو بن العاص ، وساق قصّة التّحكيم ، وزاد في آخرها أنّ عليّاً كان إذا صلّى قَنَتَ ولَعَنَ معاوية ومن معه ، ومعاوية كان إذا قنت لعن

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٥١) كتاب استتابة المرتدّين .

عليّاً والحسن والحسين ، وهو محض كذب ، فقد أخرجها من طريق أبي مخنف ، قال : حدّثني أبو جناب الكلبي :

" فقال لـه ابن عبّاس : ... ثمّ تكلّم أنت بعـد ؛ فـإنّ عَمْـراً رجـل غـادر ... وكـان أبو موسى مغفّلاً ، فقال له : إنّا قد اتّفقنا ، فتقدّم أبو موسى ، فحمد الله ـ عزّ وجلّ ـ وأثنى عليه ثمّ قال : يا أيّها النّاس ، إنّا قد نظرنا في أمر هذه الأمّة ، فلم نرَ أصلح لأمرها ولا ألمّ لشعثها من أمر قد جمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليّاً ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمّة هذا الأمر فيولّوا منهم مَنْ أحبُّوا عليهم ، وإنّي قد خلعتُ عليّاً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً ، ثمّ تنحّى وأقبل عمرو بن العاص ، فقام مقامه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال إنّ هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ... فكان أبو موسى يقول : حذّرني ابن عبّاس غدْرَة الفاسق ، ولكنّي اطمأننت إليه وظننتُ أنّه لن يُؤْثِرَ شيئاً على نصيحة الأمّة ، ثمّ انصرف عمرو وأهل الشّأم إلى معاوية وسلّموا عليه بالخلافة ، ورجع ابن عبّاس وشريح بن هانئ إلى عليّ ، وكان إذا صلّى الغداة يَقنت ، فيقول : اللهمّ العن معاويـة وعَمْراً وأبا الأعور السّلمي وحبيبـاً وعبد الرّحمن بن خالد والضّحاك بن قيس والوليد ، فبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا قنت لَعَنَ عليّاً وابن عبّاس والأشتر وحسناً وحسيناً "[1].

وهذه الرّوايـة في سندها مجروحان أبو مخنف ، وهو أخباريّ تالف ، وتقدّمت ترجمتـه ، وأبو جناب الكلبي ، وهو يحيى بن أبي حيّة مُدَلِّس ، وستأتي ترجمته بعد أَسْطَار . أمّا مَتْنُها فكنت أحببت أن أُنزِّه كتابي منه ، ولكن لكثرة من يتعلّق بهذا الكلام الباطل ذكرته لأنبّه على بطلانه ؛ فكيف يُصَدَّقُ أنَّ الصّحابة يلعن بعضهم بعضاً ، والنَّبيُّ ﷺ يَقُولُ: "لَعْنُ المؤمن كقتله "[2].

وكيف يُصَدَّق أنّ ابن عبّاس وأبا موسى يتّهمان عمرو بن العاص بالغدر والفسق ، والصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ لا يَعْرِفون الغدر ولا يُوْصَفُون بالفسق ، وإنّما الفاسق من قال

(١) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٤/ ص٥١).

(٢) أحمد بسند صحيح عن ثابت بن الضَّحَّاك " المسند " (ج١٢/ ص٥٤٣/ رقم١٦٣٣٧) .

الله تعالى فيه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات] والصّحابة لا توصف بالفسق لأنّ الله تعالى حبّب إليهم الإيمان وكرّه لهم الكفر والفسوق والعصيان ، قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ... ﴿٧﴾ ﴾ [الحجرات] فهل يجهل ابن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ ذلك وهو ترجمان القرآن وحبر هذه الأمّة ؟! فهذه الرّواية تطعن في ابن عبّاس وأبي موسى وعمرو بن العاص معاً .

وقد تعرّض الهيثمي بالنّقد لهذا الخبر بعد أن ساقه من رواية الطّبراني عن عبد الله بن مسعود ، قال : " ... ولا قَنَتَ عليّ حتّى حارب أهل الشّام ، وكان يقنت في الصلوات كلّهنّ ، وكان معاوية يدعو عليه أيضاً يدعو كلّ واحد منهما على الآخر "[1] قال الهيثمي : " رواه الطّبراني في الأوسط ، وفيه شيء مُدْرَك عن غير ابن مسعود بيقين هو قنوت عليّ ومعاوية في حال حربهما ؛ فإنَّ ابن مسعود مات في زمن عثمان ، وفيه محمّد بن جابر اليمامي ، وهو صدوق ولكنّه كان أعمى واختلط عليه حديثه وكان يُلقَّن "[2].

وأمّا الرّد على من جوَّزَ وقوع التَّلاعن بينهما وأنّ هذا لا يستبعد وقوعه بدعوى أنّه دون القتل الّذي وقع بينهما ، وأنّ القتال أعظم منه .

فهذا كلام منقول عمّن صنعته إِحْدَاثُ الأَحْدَاث ، ومن ذهب إلى هذا يحتاج إلى دليل إِثْبَاتٍ عن أَثْبَاتٍ ليس فيه عِـلَّة ، وحتّى يأتينا هذا الدّليل يظلّ كلامه دعوى مجرّدة من البرهان ، أمّا قوله التّلاعن دون القتل ، فقد ساوى النّبيُّ ﷺ بين لعن المؤمن وقتله في غير حديث للدّلالة على شناعة هذا الجرم ، فقد صَحَّ عنه ﷺ أنّه قال : " ومن لعن مؤمناً فهو كقتله "[3].

وهذا ممّا لا يجهله الصّحابة ، فضلاً عن أن يجهلوا تحريم سبّ الصّحابة الّذي ثبت عن

---

(١) الهيثمي " مجمع الزّوائد " (ج٢/ ص١٣٦) .

(٢) المرجع السَّابق.

(٣) البخاري عن ثابت بن الضَّحَّاك " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص٨٤) كتاب الأدب .

النَّبيِّ ﷺ فيما رواه الشّيخان : " لا تسبّوا أصحابي ، لا تسبُّوا أصحابي ..."[1] وأيُّ سَبٍّ أكثر من لعنهم ! فإذا كان النّبيُّ ﷺ نهى عن سبِّهم فمن باب أولى النّهي عن لعنهم .

وقد صَحَّ عن أمّ سلمة أنّها سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من سبّ عليّاً فقد سبّني "[2].

ولا يخفى أنّ من الّذين يجوّزون وقوع التّلاعن بين الصّحابة من غايته إباحة ذلك وإيجاد عُذْر لمن يقع في أعراضهم من جهلة القوم ، فكأنّه يقول لهم : طالما حدث منهم ذلك فسنظلّ على آثارهم مقتفين ! ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النّور] فهؤلاء ليس عندهم دليل على جواز ذلك ، ولا أَثَارَة من علم ! بل إنّ الله تعالى نهى عن سَبِّ ما يعبده المشركون مخافة أن يحملهم الجهل على سَبِّ الله سبحانه، فقال: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام] فإذا كُنّا نُهينا عن سَبِّ الأصنام ، فهل يجوز سَبُّ الصّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ !

ونحن لا ننكر أنّه كان بين عليّ ومعاوية ما كان ممّا يكون بين البشر ، ولكن كان يكتنفه تقوى الله وخَشْيته ؛ فقد كان الخلفاء والأمراء والعلماء يتدثّرون بالدِّين الّذي كان يومها ظاهراً .

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : " سألت أبي عن رجل يشتم رجلاً من أصحاب رسول الله ؟ قال : ما أراه على الإسلام "[3].

وقال بعض السّلف : " لحوم العلماء مسمومة وعادة الله فيمن آذاهم أبداً معلومة "

---

(١) مسلم عن أبي هريرة " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٦/ ص٩٢) كتاب فضائل الصّحابة . والبخاري عن أبي سعيد الخدري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٩٥) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٢) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص١٢١) كتاب معرفة الصّحابة ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه ، ووافقه الذّهبي .

(٣) ابن الجوزي " مناقب الإمام أحمد " (ص١٦٥) .

قلت : فإذا كانت لحوم العلماء مسمومة ، فما ظنّك بلحوم الصّحابة ! وما بالك بمن شبعوا من لحومهم ! أليس عادة الله في هتك منتقصهم معلومة ؟! ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ... ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات] .

ترجمة أبي جناب الكلبي

ترجم له الذّهبيّ في " المغني في الضّعفاء " وقال : " يحيى بن أبي حيّة ، أبو جناب الكلبي . قال أبو زرعة : مدلّس . وقال النّسائيّ والدّارقطنيّ : ضعيف . وقال يحيى بن سعيد القطّان : لا أستحلّ أن أروي عنه "(١).

ورتبته عند ابن حجر ضعيف لكثرة تدليسه ، فقد ترجم له في " تقريب التّهذيب " وقال : " يحيى بن أبي حيّة ، أبو جَنَاب ، ضعّفوه لكثرة تدليسه "(٢).

انخداع غير كاتب وقارئ بالرّوايات الموضوعة

ولكن الغريب أن ينخدع بهذه الرّوايات كثير من الكتّاب ، فهذا أحدهم يقول : "ويلوح من جملة أخبار عمرو مع معاوية أنّهما كانا يُؤْثِران اللعبَ على المكشوف ، ولا يضيّعان الوقت في مِراءٍ يعرفانه ولا يجهلانه ، وقد كانت مساومة عمرو لمعاوية صريحة لا مداجاة فيها ، فقال له : أترى أنّنا خالفنا عليّاً لفضل منّا عليه ؟ لا والله ! إن هي إلاّ الدّنيا نتكالب عليها ، وايم الله لَتقطعَنَّ لي قطعة من دنياك أو لأنابذنّكَ ... "(٣).

وقال أيضاً : " وأخذ معاوية يذكر ممالأة عليّ على قتل عثمان "(٤) وخلص إلى أنّه أخذ

---

(١) الذّهبيّ " المغني في الضّعفاء " (م٢/ ص٥١٣/ رقم٦٩٥٥) .

(٢) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص٥٨٩/ رقم٧٥٣٧) وانظر ترجمته في " تذهيب تهذيب الكمال " للذّهبي (م٩/ ص٤٣١/ رقم٧٥٨٣) و" معجم أسامي الرُّواة " للألبانيّ (م٤/ ص٣٩٥) .

(٣) قول عباس محمود العقّاد في كتابه " عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ " (ص٦٣) .

(٤) العقّاد " عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ " (ص١٦٦) .

يستميل عمرو بن العاص حتّى قال له عمرو : " اجعل لي مصر طُعْمة ما دامت لك ولاية "[1] وظلّ يصوّر عمرو بن العاص أنّه كان يطمع في ولاية مصر جامعة موروثة في عقبه ...

ثمّ ذهب إلى أعجب من ذلك ، فقال : " وليقل النّاقدون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار ، وصحّة هذه الكلمات ، وما ثبت نقله وما لم يثبت منه سنده ولا نصّه ، فالّذي لا ريب فيه ، ولو اجتمعت التّواريخ قاطبة على نقضه ، إنّ الاتّفاق بين الرّجلين كان اتّفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية ... "[2].

قلت : ولا أدري كيف يأخذ أَعْجازاً ليس لها صُدُورٌ ، وأحاديث ليس لها خُطُم ولا أَزِمَّة ! أليس من الخطأ أن يتعصّب إنسانٌ إلى رأيه المجرَّد الّذي لا يستندُ إلى البراهين ، ثمّ يقول : إنّه لن يطيع أحداً من العالمين؟! إلاّ إذا كان يخشى أن يجادله أحد بالسنّة ، فيفلجه بالجواب المسكت .

فلتكن لنا قُدْوةٌ بما كان عليه الأئمة المجتهدون ، الّذين يُسَرُّ الواحدُ منهم إذا ظهر الحقّ ولو على يد غيره ، فقد أُثِرَ عن غير واحد منهم أنّه كان يقول : " رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصّواب " .

فإذا لم يكن هناك إجماع على مسألة فلا ينبغي لباحث التَّعصُّبُ لرأيه ، وعليه أن يحيط بجملة علوم ، منها : علم الجرح والتّعديل ، وقواعد أصول الفقه قبل أن يتعصّب للدليل الّذي معه إنْ كان معه دليل ، ومن هذه القواعد الّتي ينبغي الالتفات لها أنّ " الدّليل إذا تطرّق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال " .

ووالله الّذي لا إله غيره إنّ ما صحّ من الأحاديث والأخبار موجود عند أعلام أهل الحديث والآثار ؛ فهم الّذين مع الحقّ ، والحقّ معهم ؛ لأنّهم أخذوا دينهم وتاريخهم وعقائدهم خلفاً عن سلف ، وقرناً عن قرن ، وجيلاً عن جيل ، وتابعاً عن تابع ، وعدلاً عن

---

(١) العقاد " عمرو بن العاص –رضي الله عنه–" (ص ١٦٦).

(٢) المرجع السّابق .

عدل حتّى انتهوا إلى أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، الّذين نقلوا بدورهم عن الّذي لا ينطق عن الهوى، متحرّين الأمانة والصّدق .

فلا ريب أنّ الحقَّ مع أهل الحديث وأنّهم الفرقة النّاجية ، ويشهد لذلك ، ما رواه البخاري عن حُمَيْد ، قال : سمعتُ معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ يخطُبُ ، قال : سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول : " منْ يُرِدِ اللهُ به خيراً يفقّهْهُ في الدّين ، وإنّما أنا قاسم ويُعْطِي اللهُ ، ولن يزالَ أمرُ هذه الأمّةِ مُسْتَقيماً حتّى تَقُومَ السّاعةُ ، أو حتّى يأتي أمرُ الله"[1].

فقد أخرج هذا الحديث البخاري في (كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة) ، وعنون له تحت باب (قول النَّبيِّ ﷺ : لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ يقاتلون ، وهم أهل العلم) وأخرج الحاكم بسند صحيح عن أحمد بن حنبل قال : " إن لم تكن هذه الطّائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم "[2] ولذلك سيظلّ أهل العلم من هذه الأمّة ظاهرين على الحقّ إلى يوم القيامة ، لا يضرّهم من خالفهم .

ولو تَتَبَّعْتُ الّذين نقلوا هذه الأباطيل ، لاحتجت إلى مصنّفات ، وإنّما نقلت منها شيئاً يسيراً ؛ لأعارضها بصحيح السّيرة ، وليكون القارئ على بصيرة ، فمثل هذه الأخبار سَوَّدَ بها هؤلاء الكتب الطّوال ، وصفحات الأعمال ! وإنَّ الحليم مِنَّا ليقف حيرانَ من هَوْلِ ما يجد مسطوراً في كتبهم !

والّذين أجهدوا أنفسهم في تعقّب أخبار الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ من كتب التّاريخ الّتي فيها الغثّ والسّمين ، وأعدّوا المصنّفات دون تمييز الصّحيح من الدّخيل ، وظلّوا على آثار هؤلاء المؤرِّخين يهرعون ، كان الواجب عليهم أن يُعِدّوا عند الله عذرًا ! قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ... ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] الّتي تركوها وَرَاءَ ظهورهم، وقد أَصَابَ مَنْ قال:

---

(١) البخاري : " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص١٤٩) كتاب الاعتصام بالكتاب .

(٢) الحاكم " معرفة علوم الحديث " (ص٢) وانظر " الحجّة " (ج١/ ص٢٦٢) .

ومـــا مِـــنْ كاتـــبٍ إلاَّ ســـتبقى كتابتُـــــه وإن فَنِيَـــــت يَـــــدَاهُ
فـــلا تكتُـــب يمينُـــكَ غـــيرَ شيءٍ يَـــــسُرُّكَ في القيامـــــةِ أن تـــــراهُ

ولا أدري ما عذرهم ، وكتب الجرح والتّعديل لم تترك لمتعلّل منهم عذراً يتعلّل به ؟!

ولم ينشغل الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ بتأليف الكتب ونشرها ، وإنّما انشغلوا بتأليف القلوب ونشر الإسلام ، فشتّان بين مقاصد الدّنيا ومقاصد الدّين !

وقد جمعت أسماء بعض الكتّاب والمحقّقين الّذين ساهموا في نشر كثير من الرّوايات الّتي لا تصحّ سنداً ولا متناً ، وأحصيت كتبهم ، ثمّ رأيت أن أنزّه كتابي عنهم ؛ فذلك أزكى وأطهر من أن أذكر عُجَرَهم وبُجَرَهم .

وممّا يبعث الأسى أنّه يكاد لا يخلو بيت من بيوت المسلمين في هذه الأزمان من أشباه ونظائر هذه الكتب ! فالحذر الحذر ؛ فالتّاريخ الإسلاميّ إذا لم ينظر فيه مُحَدِّثٌ فعظَّمَ الله أجركَ فيه ! فمن أراد السّلامة فليأخذ التاريخ من كلام حافظ محدّث من أهل السّنّة والجماعة، يكون حجّة في علم الرّواية والدّراية ، وقد حكم على الأخبار صحيحها وضعيفها وموضوعها ، فمن فعل ذلك فقد استبرأ لدينه وعرضه وتقواه ، ولم يغلبه تعصّبه وجهله وهواه .

ولو أنّ هؤلاء الكتّاب تدبّروا كلام الله لانتهوا ، فالله تعالى يقول : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النّحل] ، فكم هم الّذين وقعوا في عرض الصّحابة وَهُمْ مَنْ هُمْ ، وأغروا العوامّ على ثَلْبِهم ! وكم هم الّذين انخدعوا وغُرِّروا بهذه الرّوايات ، فنقموا لأجل ذلك على الصّحابة الأجلاّء الّذين لم يُحْفَظ الدّين إلاّ بهم ! فهم الّذين نقلوا إلينا كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ بالرّواية ، وبيّنوا لنا من الأحكام والأركان ما لا يحيط بعلمه أحد لتفرّدهم بالبرهان ، وتميّزهم بمعاينة النّبيِّ ﷺ والحديث معه باللسان ، فهم الّذين عاصروا التّنزيل ، وأخذوا دينهم عن البشير النّذير الّذي أرسله الله رحمة للعالمين ، أفلا نطيعُ أمرَ الله فنقابل الإحسان بالإحسان كما

أمر الله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن].

ولكن ليعلم الكاتب والقارئ أنّه ما مِنْ أَحَدٍ أَحْدَثَ في التّاريخ شيئاً إلاّ سُئِلَ عنه يوم القيامة ! وما من شكّ أنّ من ينطق بأخبار الوضّاعين ، ويتابعهم ، ويتحدّث بلسانهم يعتبر امتداداً لهم ، وشريكاً لهم بالإثم !

تنبيه المؤرّخين إلى روايات الوضّاعين

وقد حذّر المؤرّخون القدماء من روايات الوضّاعين ، ونبّهوا إلى حدوث التّحريف والتّغيير في التّاريخ ؛ ليحترز النّاس فلا يقبلوا إلاّ ما صحّ من الأخبار والآثار سنداً ومتناً ، قال ابن الأثير :

" لم أذكر في موقعة الجمل إلاّ ما ذكره أبو جعفر (الطّبري) إذ كان أوثق مَنْ نَقَلَ التّاريخ ، فإنّ النّاس قد حشوا تواريخهم بمقتضى أهوائهم " [١].

وقال ابن العربي : " ولا تقبلوا رواية إلاّ عن أئمّة الحديث ، ولا تسمعوا لمؤرّخ كلاماً إلاّ للطَّبري ، وغير ذلك هو الموت الأحمر ، والدّاء الأكبر ، فإنّهم ينشئون أحاديث فيها استحقار الصّحابة والسّلف ، والاستخفاف بهم "[٢].

وابن العربي يعرفُ أنّ تاريخ الطّبري مشحون بالرّوايات الباطلة ، لكنّه أثنى عليه لأنّه أخرج الرّوايات مُعْنعنةً ، وأسندها إلى أصحابها ؛ ليكون القارئ على بيّنة ، فقد قال الطّبري في مقدّمة كتابه : " فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ممّا يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنّه لم يعرف له وجهاً في الصّحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنّه لم يُؤْتَ في ذلك من قِبلنا ، وإنّما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنّا إنّما أدّينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا "[٣].

---

(١) ابن الأثير " الكامل في التّاريخ " (م٢/ ص٣٥٠) .

(٢) ابن العربي " العواصم من القواصم " (ص٢٥١).

(٣) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج١/ ص٥) .

وقال ابن خلدون : " ... فكثيراً ما يوجد في كلام المؤرّخين أخبار فيها مطاعن وشُبَه في حقّهم أكثرها من أهل الأهواء فلا ينبغي أن تسوّد فيها الصّحف "(١).

الدّليل على أنّ الخلاف لم يكن على الملك كما زعموا

قال ابن خلدون : " كان طريقهم فيها الحقّ والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيويّ أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهّمه متوهّـمٌ وينزع إليه مُلحد ، وإنّما اختلف اجتهادُهم في الحقّ فاقتتلوا عليه "(٢).

وقال ابن حزم : " كانوا عدداً ضخماً جمّاً لا طاقة له عليهم ، فقد سقط عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ ما لا يستطيع عليه ، كما سقط عنه وعن كلّ مسلم ما عجز عنه من قيام بالصّلاة ، والصّوم ، والحجّ ، ولا فرق ، قال الله تعالى : ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] "(٣).

قلت : وممّا يشهد أنّ الخلاف لم يكن على الملك كما يُصَوِّرُ المبطلون ما أخرجه يحيى بن سليمان الجعفي بسند جيّد عن يعلى بن عُبيد ، عن أبيه ، قال : " جاء أبو مسلم الخولاني وأناسٌ إلى معاوية ، وقالوا : أنتَ تنازعُ عليّاً ، أم أنتَ مثلُه ؟ فقال : لا والله ، إنّي لأعلمُ أنّهُ أفضلُ منّي وأحقُّ بالأمر منّي ، ولكن ألستم تعلمونَ أنّ عثمان قُتِلَ مظلوماً ، وأنا ابن عمّه ، والطّالب بدمه ، فَأْتُوه ، فقولوا له ، فليدْفَعْ إليّ قَتلةَ عُثمان وَأُسلم له ، فَأتوا عليّاً ، فكلّموه ، فلمْ يدفعْهم إليه "(٤).

وكلّ الأخبار الّتي تصوّر عمراً ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ أنّهما كانا يريدان الدّنيا

---

(١) ابن خلدون " تاريخ ابن خلدون " (م٢/ ص١٨٨).

(٢) ابن خلدون " مقدّمة ابن خلدون " (ص٢٢٧).

(٣) ابن حزم " الفصل " (ج٣/ ص٨٧) .

(٤) الذّهبي " سير أعلام النّبلاء " (ج٣/ ص١٤٠) وقال المحقّق : رجاله ثقات .

والملك لا تصحّ ، ومن جملة هذه الأخبار ما أخرجه الطّبري معلولاً عن أحمد ، عن عليّ بن عبد الله وهشام بن سعد ، عن عبد الملك بن عمير ، قال : " أَغلظَ رجلٌ لمعاوية ، فأكثرَ ، فقيل له : أتحلمُ عن هذا ؟ فقال : إنّي لا أحول بين النّاس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا"[1].

فهذه الرّواية تزعم أنّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ لا يغضب إلاّ إذا نازعه أحد الملك ، وفيها اتّهام صريح لمعاوية أنّه كان يرى أنّ الخلافة ملك لبني أميّة لا ينبغي لأحد أن ينازعه عليها ! وهذا الكذب على معاوية ـ رضي الله عنه ـ لا يُسْتغرب فالشّياطين توحي لأوليائها ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ... ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام].

ويدلّك على بطلان متنها فساد سنـدها ، فإنّ عبد الله بن صالح بن محمّد[2] لم يدرك عبد الملك بن عمير[3]، فقد تُوفِّي عبد الملك بن عمير بن سويد اللّخمي سنة مائة وست وثلاثين للهجرة ، وعبد الله بن صالح لم يولد بعد ، وإنّما ولد سنة مئة وسبع وثلاثين للهجرة ، أي بعد وفاة عبد الله بن عمير بسنة ، كذلك الرّواية في سندها علّة أخرى ، وهي هشام بن سعد المدني المرميّ بالتّشيّع ، قال عنه ابن حجر : " صدوق له أوهام ورمي بالتّشيّع "[4].

وجملة القول أنّ عليّاً ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ كانا مُحِقَّين في غايتهما سليمين في نيتهما، ولو كانا يعرفان أنّ الأمر سيفضي بهما إلى الاقتتال لتوقّفا من أوّل الأمر ، وآية ذلك رغبتهما في التّحكيم وحرصهما عليه ، فقد أمكنهما وقف الاقتتال بعد ثلاثة أو أربعة أيّام من نشوبه ، وجنحا إلى السّلم والتّحكيم ، وانتهى الأمر ، فلم يكن في نيّة أحدهما هزيمة الآخر لتحقيق مطلبه .

---

(١) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٤/ ص٢٤٩) .

(٢) من الطّبقة العاشرة ، انظر ترجمته في " تقريب التّهذيب " لابن حجر (ص٣٠٨/ رقم ٣٣٨٨) .

(٣) من الطّبقة الرّابعة وقال الحافظ : " ثقة فصيح عالم تغيّر حفظه وربّما دلّس " " تقريب التّهذيب " (ص٣٦٤/ رقم ٤٢٠٠) .

(٤) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص ٥٧٢/ رقم ٧٢٩٤) .

معاوية يرسل بمصحف إلى عليّ ليحتكموا إليه

ثبت في الحديث الصّحيح أنّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ لمّا استحَرَّ القتل آوى بجيشه إلى تلّ يعصمه منَ القتال ، فأشارَ عليه عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أن يرسلَ بمصحف مع رجل إلى عليّ ليحتكموا إلى كتاب الله ، فإنّ عليّاً لن يأبى عليه !

قلتُ : وانظر حسنَ الظَّنِّ ، فهو لا يظنّ بعليّ إلاّ خيراً ، ثمّ انظر كيف كان القرآن في حياتهم شعاراً والسّنّة دثاراً .

فلمّا جاء الرّجل عليّا بالمصحف ، رأى عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ أنّه الأولى بطلب التّحكيم وبالمبادرة نزولاً عند قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ...﴿٥٩﴾ ﴾ [النّساء] وعملاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ...﴿١٠﴾ ﴾ [الشّورى] فقد كان ـ رضي الله عنه ـ وَقَّافاً عند حدود الله.

وبينما هو كذلك جاءه القُرَّاءُ الّذين سُمُّوا بعد ذلك بالخوارج يستأذنونه باستئناف قتال جيش معاوية المعتصم بالتّل ، فقام الصّحابيّ الجليل سهْل بن حنيف فيهم خطيباً يذكّرهم بصلح الحديبية ، وكيف أنّ بعض المسلمين كانوا كارهين للصلح ، لكن أعقبه خيرٌ عظيم .

أخرج أحمد بسند صحيح عن حبيب بن أبي ثابت ، قال : " أتيتُ أبا وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الّذين قتَلهم عليٌّ بالنَّهروان ، ففيما استجابوا له ، وفيما فارقوه ، وفيما استحلَّ قتالهم ، قال :

كنَّا بصفِّين ، فلمّا استحرَّ القتْل بأهل الشَّام اعتصموا بِتَلٍّ ، فقال عمرو بن العاص لمعاويةَ : أرسل إلى عليّ بمصحف وادْعُهُ إلى كتاب الله ؛ فإنّه لن يأبى عليك ، فجاء به رجلٌ ، فقال : بيننا وبينكم كتابُ الله ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [آل عمران].

فقال عليّ : نَعم أنا أولى بذلك ، بيننا وبينكم كتاب الله . قال : فجاءته الخوارج ـ ونحنُ ندعوهم يومئذ القُرَّاء ـ وسُيُوفُهم على عواتقهم ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، ما تنْتَظِرُ بهؤلاء القوم الّذين على التَّـلِّ ؟ ألا نمشي إليهم بسيوفنا حتّى يحكم اللهُ بيننا وبينهم ؟ فتكلَّمَ سهلُ بن حنيف ، فقال :

يا أيُّها النَّاسُ ، اتَّهموا أنْفسَكم ، فلقد رأيتنا يوم الحديبية ـ يعني الصّلح الّذي كان بين رسول الله وبين المشركين ـ ولو نرى قتالاً لقاتلنا ، فجاء عمر إلى رسول الله ، فقال : يا رسول الله ألسنا على الحقّ وهم على الباطل ؟ أليس قَتْلانا في الجنّة وقتلاهم في النّار ؟ قال : بلى ، قال: ففيم نُعطي الدّنيةَ في ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال : يا بن الخطّاب إنّي رسول الله ولن يضيعني أبداً ... "(١).

نعم ، هذا ما حدث ، لمّا رأى سَهْل بن حُنَيف كراهة أصحاب عليّ التّحكيم ، وليس كراهة عليّ للتحكيم كما يزعمون ، خطبهم ووعظهم بأن يتّقوا الرّأي في دينهم ، وأعلمهم بما جرى في صلح الحديبية من كراهة أكثر النّاس الصّلح ، ومع هذا أعقب هذا الصّلح خيرٌ عظيمٌ .

وروى مسلم عن أبي وائل ، قال : " قام سَهْلُ بنُ حُنَيْف يوم صفّين ، فقال : " أيّها النّاس ، اتّهموا أنْفُسَكُم ، لقد كُنّا مع رسول الله ﷺ يوم الحُديبيَة ، ولو نرى قتالاً لَقاتَلْنا ، وذلك في الصُّلح الّذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين ... "(٢).

فالحديث يُفهم منه أنَّ معاوية وعليّاً ـ رضي الله عنهما ـ كانا يرغبان في التّحكيم والصّلح لما سَيُفضي إليه الصّلح من خير ، لكنّ بعض أصحاب عليّ ـ رضي الله عنه ـ كرهوا ذلك ، وهم الخوارج .

---

(١) أحمد " المسند " (م١٢/ ص٣٩٩/ رقم١٥٩١٧) .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ" (م٦/ ج١٢/ ص١٤٠) كتاب الجهاد والسّير.

وأخرج البخاري عن الأعمش ، عن أبي وائلٍ قال : " قال سَهْلُ بنُ حُنيف : يا أيّها النّاس ، اتّهموا رأيَكُم[1] على دينكم ، لقد رَأيتُني يوم أبي جَنْدلٍ[2] ولو أستطيعُ أنّ أردّ أمرَ رسول الله ﷺ لرددْتُهُ ، وما وضعْنا سُيُوفَنا على عواتقنا إلى أمر يُفظعُنا إلاّ أسْهَلْنَ[3] بنا إلى أمرٍ نعرفُهُ غيرَ هذا الأمرِ "[4] أي أنّ السّيوف يفضين بهم إلى أمر سَهْل فيه الخير إلاّ هذا الأمر وهذه المقاتلة ، واستثنى صِفِّين ؛ لقوّة حجج الطّائفتين وعظم الشّبهة : إذ حُجَّة عليّ ومن معه قتال الطّائفة الباغية حتّى تعود إلى الحقّ ، وحُجَّة معاوية قتل الخليفة عثمان ظلماً وعدواناً ووجود قتلته بأعيانهم في الجانب العراقيّ .

وكيف لا يرغب عليّ ـ رضي الله عنه ـ في الصُّلح وقد رَغَّبه النَّبيُّ ﷺ فيه ؟! فقد أخرج أحمد بسند صحيح عن إياس بن عمرو الأسلميّ عن عليّ ، قال : قال رسول الله ﷺ : " إنّه سيكون بعدي اختلافٌ أو أمر ، فإن استطعتَ أن تكون السَّـلْم[5] فافعلْ "[6].

ولذلك كتب عليّ بينه وبين معاوية كتاب الصّلح أو ما يسمّى بوثيقة التّحكيم ، أو كتاب الحكومة كما جاء في غير مصدر ، ثمّ انفصل الفريقان على أن يجتمع الحكمان أبو موسى من جهة عليّ ، وعمرو بن العاص من جهة معاوية في العام القابل في دومة الجندل ، وقيل في أذرح والأوّل أظهر ، ورجع الفريقان : رجع معاوية إلى الشّام ، وعليّ إلى الكوفة.

---

(١) يظهر أنّ القرّاء اتّهموه بالتّقصير في القتال ، فأعلمهم أنّ الرأي لا يقال به مع وجود النّصّ .

(٢) أراد يوم الحديبية ، وأبو جندل هو ابن سهيل بن عمرو القرشي ، قال الحافظ : "وكان من السّابقين إلى الإسلام وممّن عُذّب بسبب إسلامه " ابن حجر " الإصابة " (م٤/ ج٧/ ص٣٣/ رقم٢٠٢) .

(٣) أنزلتنا في السّهل من الأرض ، كناية عن التّحوّل من الضّيق إلى الفرج .

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص١٤٨) كتاب الاعتصام .

(٥) أي المُسَالم .

(٦) أحمد " المسند " (ج١/ ص٤٦٩/ رقم٦٩٥) .

نص كتاب الصّلح (وثيقة التّحكيم) كما في " كتاب الثّقات "

بسم الله الرّحمن الرّحيم

هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان : قاضى عليٌّ على أهل العراق ومن كان معه من شيعته من المسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معه من شيعته من المسلمين ، أنَّا ننزل على حكم الله وكتابه ، فما وجد الحكمان في كتاب الله فهما يتبعانه ، وما لم يجدا في كتاب الله فالسُّنَّة العادلة تجمعهما . وهما آمنان على أموالهما وأنفسهما وأهاليهما، والأمَّةُ أنصار لهما على الذي يقضيان عليه ، وعلى المؤمنين والمسلمين .

والطائفتان كلتاهما عليهما عَهْدُ الله وميثاقه أن يَفِيَا بما في هذه الصحيفة على أن بين المسلمين الأمنُ ووضع السِّلاح وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ليحكما بين الناس بما في هذه الصحيفة على أن الفريقين جميعاً يرجعان سنةً ، فإذا انقضت السنة إن أحبّا أن يرُدَّا ذلك رَدّا ، وإن أَحَبَّا زادا فيهما ما شاء الله ، اللهمَّ إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة "(١).

عدد القتلى في صفّين وزمن القتال

اضطربت الرّوايات في كتب التّاريخ في عدد القتلى من الفريقين في صفّين ، بين مُكْثر ومُقِلّ ، وهذا الاضطراب وحده في عدد القتلى يضعف تلك الرّوايات ويجعلها غير مقبولة .

ومن جملة ذلك ما ذكر المسعودي عن أحمد الدّورقي ، عن يحيى بن معين " أن عدد من قتل بصفّين من الفريقين في مائة يوم وعشرة أيّام مائة ألف وعشرة آلاف من النّاس : من أهل الشّام تسعون ألفاً ، ومن أهل العراق عشرون ألفاً "(٢).

أي أنّه كان يُقْتَلُ بمعدّل ألف كلّ يوم ، ونسبة هذا الكلام ليحيى بن معين لا تصحّ؛

---

(١) محمّد بن حبّان " الثقات " (ج٢/ ص٢٩٣) .

(٢) المسعودي " مروج الذهب " (م٢/ ص٤١٢) .

لأنّ يحيى بن معين من كبار الآخذين عن تَبَعِ الأتباع ، وهو ثقة حافظ إمام الجرح والتّعديل ، روى له البخاري ، ومسلم وغيرهما . وقال محمّد بن هارون الفلاس : " إذا رأيت الرّجل يقع في يحيى بن معين فاعلم أنّه كذّاب يضع الحديث ، وإنّما يبغضه لما يبيّن من أمر الكذّابين "(١).

فلا يُصدّق أن هذا العالِم الّذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله ﷺ ويبيّن أمر الكذّابين يُحدِّث بمثل هذه الأخبار وهو لم يدركها ، فقد ولد سنة (١٥٨هـ) وصفّين كانت سنة (٣٧هـ) .

ثمّ كيف للمسعودي المتوفى سنة (٣٤٦هـ) أن يُحدِّث عن أحمد الدّورقي المتوفى سنة (٢٤٦هـ) فالخبر مُعضِل أو مُنْقَطِع لأنّه سقط من إسناده اثنان أو واحد ، ومثل هذا الإسناد غير المتّصل من طرفيه لا تقوم به حُجَّة ، والدّورقي ترجم له الحافظ في " تقريب التّهذيب "(٢) ورتبته ثقة ، فلا يصحّ نسبة هذه الأخبار له .

ثمّ ذهب المسعودي إلى أنّ العدد أكثر ممّا قيل ، أي أنّه يُجرِّح أحمد الدّورقي وشيخه يحيى بن معين ، والجرحُ به أَوْلى ، والمسعودي يُرَدّ عليه ولا يُؤْخذ منه فهو يذكر الأخبار دون الاهتمام بأسانيدها ، وقد انتقده ابن خلدون في مقدمته بعد الحديث عن أصناف المدركين للغيب من البشر ، فقال : " وقد تكلّم عليها المسعودي في مروج الذّهب . ويظهر من كلام الرّجل أنّه كان بعيداً عن الرّسوخ في المعارف ، فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله "(٣).

وقال المسعودي بعد ذلك : " وأمّا الهيثم بن عدي الطّائي وغيره مثل الشرقي بن القطامي وأبي مخنف فذكروا ما قدّمنا ، وهو أنّ جملة من قُتِل من الفريقين جميعاً سبعون ألفاً : من أهل الشّام خمسة وأربعون ألفاً ، فيهم خمسة وعشرون بدريّاً ... "(٤).

---

(١) الذّهبي " سير أعلام النبلاء " (ج١١/ ص٨٣) .

(٢) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص٧٧/ رقم٣) .

(٣) ابن خلدون " مقدمة ابن خلدون " (ص١١٩).

(٤) المسعودي " مروج الذّهب " (م٢/ ص٤١٢).

وهؤلاء الثّلاثة الّذين ذكرهم كلّهم تَداولتهم كتبُ الجرح والتّعديل بالتّضعيف أوّلهم عن آخرهم : فأمّا الهيثم بن عدي فقد ترجم له ابن الجوزي في " كتاب الضّعفاء والمتروكين " وقال : " الهيثم بن عدي : أصله كوفيّ يروي عن شعبة ، قال يحيى : كان يكذب ، ليس بثقة . وقال السعدي : ساقط ، قد كُشف قناعه . وقال أبو داود : كذّاب . وقال النّسائي ، والرّازي ، والأزدي : متروك الحديث . وقال ابن حبّان : لا يجوز الاحتجاج به ولا الرّواية عنه إلاّ على سبيل الاعتبار "(١) وترجم له الذّهبي في " المغني في الضّعفاء " وقال : " الهيثم بن عدي الطّائي أبو عبد الرّحمن ، تركوه . وقال أبو داود والسجستاني : كذّاب "(٢).

وأمّا شرقي بن قطامي فترجم له الرّازي في " الجرح والتّعديل " وقال : " شرقي بن قطامي الشاعر : ليس بقويّ الحديث ، ليس عنده كثير حديث . ويقال: اسم شرقي القطامي الوليد بن الحصين بن حبيب الكلبي "(٣).

وقد ذكر غير المسعودي غير هذه الأعداد ، ولو تَقَصَّيْتُ ما ذكروه بالبحث والدّراسة لاحتجتُ أن أفرد كتاباً . وكم هم الّذين شَانُوا كتبهم بما نقلوه من أباطيل ممّا تَلَقَّفُوه من كلام الإخباريين وغيرهم !

ومّا يدلّك على قلة عدد القتلى أنّ القتال الحقيقيّ لم يدم أكثر من ثلاثة أو أربعة أيّام وكان يتوقّف ليلاً ، قال صاحب كتاب : " الثّقات " : " فلمّا كان الغد اقتتلوا قتالاً شديداً ، فحجز بينهم الليل حتّى قاتلوا ثلاثة أيّام "(٤).

وزد على ذلك أنّ هناك روايات تتحدّث عن مئات القتلى من الصّحابة ، وهذا كذب لأنّ الصّحابة جُلُّهم اعتزل القتال، ويدلّك على فساد هذه الدّعوى قول الحافظ ابن كثير :

---

(١) ابن الجوزي " كتاب الضّعفاء والمتروكين " (ج٣/ ص١٧٩/ رقم٣٦٢٢).

(٢) الذّهبي " المغني في الضّعفاء " (م٢/ ص٤٨٨/ رقم٦٨٠٨) .

(٣) الرّازي " الجرح والتّعديل " (ج٤/ ص٣٤٢/ رقم٦٧٦٢/ ١٦٤٣) .

(٤) محمّد بن حبّان " الثّقات " (ج٢/ ص٢٩) .

"ومن كان من الصّحابة مع معاوية ؟ يقال : لم يكن في الفريقين مائة من الصّحابة، والله أعلم، وجميعهم صحابة ، فهم عدول كُلُّهُم "[1].

وقد خَسِرَ المسلمون يوم صفّين أعلاماً من الصّحابة منهم عبيد الله بن عمر بن الخطّاب وكان مع معاوية ، قال الحافظ : " ولا خلاف في أنّه قُتِلَ بصفّين مع معاوية "[2] ، وقتل في أصحاب عليّ عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي[3] وقتل أيضاً هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص ، المعروف بالمرقال ابن أخي سعد بن أبي وقّاص[4] كما قُتِلَ الصَّحابيُّ الجليل عمّار ابن ياسر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .

براءة معاوية وعمرو من دم عمّار بن ياسر

قول النَّبيِّ ﷺ : " وَيْحَ عمَّار تقتُله الفئة الباغية "[5].

لا يفهم منه أنّ فئة معاوية تتحمل دمه ؛ فما جاء مطلقاً في هذا الحديث الشّريف ، جاء مُقَيَّداً في حديث آخر ، فقد أخرج أحمد بإسناد حسن عن أبي غادية ، قال : " قُتل عمّار بن ياسر ، فأُخْبِرَ عمرو بن العاص ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : إنَّ قاتله وسالبه في النَّار . فقيل لعمرو : فإنَّكَ تقاتله ؟ قال : إنّما قال : قاتله وسالبه "[6]. فالّذي يتحمّل وزره قاتله وسالبه .

ولم يكن في نيّة أحد من الصّحابة أن يقتل عمّار بن ياسر ، وهو يعلم أنّ قاتله في النّار ! وليس أَدلَّ على ذلك من رواية أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن الحارث ، قال : " إنّي

---

(١) ابن كثير " الباعث الحثيث " (ص١٦٧) .

(٢) ابن حجر " الإصابة " (م٣/ ج٥/ ص٧٦/ رقم٦٢٣٥) .

(٣) ابن حجر " الإصابة " (م٢/ ج٤/ ص٣٩/ رقم٤٥٥٠) .

(٤) ابن حجر " الإصابة " (م٣/ ج٦/ ص٢٧٥/ رقم٨٩١٣) .

(٥) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص٢٠٧) كتاب السّير .

(٦) أحمد " المسند " (ج١٣/ ص٤٩١/ رقم١٧٧٠٤) .

لأُسَايرُ عبد الله بن العاص ومعاوية ، فقال عبد الله بن عمرو لعمرو : سمعتُ رسول الله يقول : تقتله الفئة الباغية ـ يعني عمّاراً ـ ، فقال عمرو لمعاوية : اسْمعْ ما يقولُ هذا ، فحدّثه ، فقال : أنحنُ قتلناه ؟! "[1] فمن قوله : " أنحنُ قتلناه ؟! " يفهم أنّه لا نيّةَ لقتله[2] .

عدد من شهد الفتنة من الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ

وهذه الفتنة لم يشهدها من الصّحابة إلاّ نفر قليل ، خلافاً لما تُصوِّرُهُ كثير من الرّوايات الموضوعة الّتي توغر صدور القرّاء ، فهذه الرّوايات فيها أنّ الّذين شاركوا في الجمل وصفّين من الصّحابة أكثر عدداً من الّذين توقّفوا ، وما صحّ ما أخرجه عبد الرّزّاق في " المصنّف " بسند صحيح[3] عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين ، قال : " ثارت الفتنة ، وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف ، لم يخفَّ منهم أربعون رجلاً "[4] أي أن عدد الصّحابة الّذين شاركوا في الجمل وصفّين أقلّ من أربعين صحابيّاً .

وأخرج نحوه أبو بكر الخلاّل بسند صحيح عن محمّد بن سيرين ، قال : " هاجت

---

(١) أحمد " المسند " (ج٦/ ص٣٨٩/ رقم٦٩٢٦) .

(٢) المشهور أنَّ قاتل عمّار أبو الغادية يسار بن سبع، ترجم له الحافظ في الكُنى، وقال: لهُ صُحْبة "الإصابة" (م٤/ ج٧/ ص١٤٧).

قلتُ: ومن الغريب أن يكون قاتله وهو يعلم أنَّ قاتله في النّار، ومِن العجيب أن يقتله، وقد روي أنّه سمع النَّبِيَّ ﷺ يقول: "إنَّ دماءَكم وأموالكم حرام...".

(٣) قلت : وإسناده صحيح ، معمر هو شيخ عبد الرّزّاق أبو عروة البصري ، قال عنه ابن حجر : معمر بن راشد الأزدي ، ثقة ثبت فاضل إلاّ أنّ في روايته عن ثابت والأعمش وهشام بن عروة شيئاً وكذا فيما حدّث به بالبصرة " تقريب التّهذيب " (ص٥٤١/ رقم٦٨٠٩) وأيوب بن أبي تميمة : كيسان السّختياني، أبو بكر البصري ، ثقة ثبت حجّة من كبار الفقهاء العبّاد " تقريب التّهذيب " (ص١١٧/ رقم ٦٠٥) وابن سيرين ، هو أبو بكر ابن أبي عمرة البصري ، محمّد بن سيرين الأنصاري ، ثقة ثبْت عابد كبير القدر كان لا يرى الرّواية بالمعنى "تقريب التّهذيب " (ص٤٨٣/ رقم ٥٩٤٧).

(٤) عبد الرّزاق " المصنّف " (ج١١/ ص ٣٥٧/ رقم ٢٠٧٣٥) كتاب الجامع .

الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف فما حضر فيها مائة بل لم يبلغوا ثلاثين "[١].

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشّعبي، قال: " لم يشهد الجمل من أصحاب النّبيّ ﷺ من المهاجرين والأنصار إلاّ عليّ، وعمّار، وطلحة، والزّبير، فإن جاؤوا بخامس فأنا كذّاب "[٢].

وأخرج أحمد ـ رحمه الله ـ عن أميّة بن خالد[٣]، قال: قلتُ لشعبة: إنّ أبا شيبة[٤] حدّثنا عن الحكم عن عبد الرّحمن بن أبي ليلى أنّه قال: " شهد صفّين من أهل بدر سبعون رجلاً، قال: كذب والله؛ لقد ذاكرت الحكم ذاك وذكرناه في بيته، فما وجدنا شهد صفّين أحد من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت "[٥].

ولا يُفْهَمُ من هذه الرّوايات تعيين العدد، فقد ذكر كُلٌّ منهم مَبْلَغَ علمه، وإنّما يستفاد منها قِلَّة عدد الصّحابة في حادثتي الجمل وصفّين، ذلك لأنّ الجمل شهدها زيادة على ما ذكر الشّعبي عبد الله بن الزّبير ذكر ذلك الحافظ في " الإصابة "[٦] وأُصِيب يومها بجراح، وشهدها الحسن بن عليّ. كذلك شهد صفّين من أهل بدر أبو فضالة الأنصاري وقُتل فيها مع عليّ، ذكر ذلك البخاري في " التّاريخ الأوسط "[٧] وابن حجر في " الإصابة ".

---

(١) أبو بكر الخلاّل " السّنّة " (ج٢/ ص٤١٦/ رقم٧٢٨).

(٢) ابن أبي شيبة " المصنّف " (ج١٥/ ص٢٤٦/ رقم ١٩٦٢٨) وأورده أحمد بن حنبل في "كتاب العلل " (م٣/ ص٤٥) وخليفة في " تاريخ خليفة بن خيّاط " (ص١٨٦) وأبو بكر الخلاّل في " السّنّة " (ج٢/ ص٤٦٦/ رقم٧٢٩) وقال المحقّق: إسناده صحيح.

(٣) أميّة بن خالد بن الأسود القيسي، صدوق " تقريب التّهذيب " (ص١١٤/ رقم ٥٥٣).

(٤) أبو شيبة هو عبد الرّحمن بن إسحاق الواسطي، ضعيف " تقريب التّهذيب " (ص٣٣٦/ رقم٣٧٩٩).

(٥) أحمد " كتاب العلل " (م١/ ص٢٨٧) وأبو بكر الخلاّل " السّنّة " (ج٢/ ص٤٦٥/ رقم ٧٦٢) وقال المحقّق: إسناده حسن.

(٦) ابن حجر " الإصابة " (م٢/ ج٤/ ص٧١).

(٧) البخاري " التّاريخ الأوسط " (ص٤٣) وابن حجر " الإصابة " (م٤/ ج٧/ ص١٥٢/ رقم٨٩٥).

مَن اعتزل الفتنة من الصّحابة

ممَّن اعتزل الفتنة أهبان بن صيفي ـ رضي الله عنه ـ ، فقد روى البخاري عن عديسة بنت أهبان بن صيفي ، قالت : " حين قدم عليّ بن أبي طالب البصرة جاء إلى أبي ، فقال أبي : إنّ خليلي وابن عمّك أمرني إذا كان قتال بين فئتين من المسلمين أن أَتَّخِذَ سيفاً من خشب ، فانصرف "(1).

وممّن اعتزل المغيرة بن شعبة ، كان معتزلاً بالطّائف وأرضها حتّى حكم الحكمان ، قال الحافظ عنه : " ... فلمّا قُتلَ عثمان اعتزل القتال إلى أن حضر مع الحكمين ، ثمّ بايع معاوية بعد أن اجتمع النّاس عليه ، ثمّ ولاّه بعد ذلك الكوفة فاستمرّ على إمرتها حتّى مات "(2).

وممّن اعتزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، قال الذّهبي : " والظّاهر أنّه اعتزل الفتنة وانزوى إلى الرّملة "(3).

وممّن اعتزل محمّد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ ، أخرج أحمد بإسناد حسن عن سهل ابن أبي الصلت ، قال : سمعتُ الحسن يقول : " أنَّ علياً بَعَثَ إلى مُحمَّد بن مسلمة فجيء به ، فقال : ما خَلَّفَكَ عن هذا الأمر ، قال : دفع إليَّ ابن عمِّك يَعْني النَّبيَّ ﷺ سَيْفاً ، فقال : قاتِلْ به ما قُوتِلَ العدوُّ ، فإذا رأيت النَّاس يَقْتُلُ بعضُهم بعضاً فاعْمَدْ به إلى صخرة فاضْرِبْهُ بها ، ثمَّ الزمْ بيتك حتّى تأتيك منيّةٌ قاضية أو يدٌ خاطئة ، قال : خَلُّوا عنه "(4) .

وممّن اعتزل أسامة بن زيد الحِبُّ بن الحبّ ، قال ابن حجر : " واعتزل أسامة الفتن

---

(1) البخاري " التّاريخ الأوسط " (ص٤٧/ رقم٣٤٥)

(2) ابن حجر " الإصابة " (م٣/ ج٦/ ص١٣٢/ رقم٨١٧٥)

(3) الذّهبي " سير أعلام النبلاء " (ج٣/ ص٣٣) .

(4) أحمد " المسند " (ج١٤/ ص٢٥/ رقم١٧٩٠٢) وأورده الهيثمي في " مجمع الزّوائد " (ج٧/ ص٣٠١) وقال : رواه الطّبراني ورجاله ثقات .

بعد قتل عثمان إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية "(١).

وأخرج البخاري عن حرملة ، قال : " أرسلني أسامةُ إلى عليّ ، وقال : إنّه سيسْـألكَ الآنَ ، فيقول : ما خلَّفَ صاحبك ؟ فقل له : يقول لك : لو كنْتَ في شِدْق الأسد لأحبْبتُ أن أكون مَعَكَ فيه ، ولكن هذا أمرٌ لم أره "(٢) أيْ أنّ عليّاً سيسأله عن سبب تخلّف أسامة بن زيد عن حادثتي الجمل وصفّين، ويطلب منه أن يعتذر له أنّه يحبّ أن يكون معه على السّرّاء والضّراء ، لكنّه لا يرى القتال بين المسلمين .

وأسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ ومن آل البيت ، أمّه أمّ أيمن حاضنة النَّبيِّ ﷺ ، كان النَّبيُّ ﷺ يُجلسه على فخذه ويُجلسُ الحسن على فخذه الآخر ويدعو لهما ، روى البخاري عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ عن النَّبيِّ ﷺ : " أنّه كان يأْخُذُهُ والحسنَ ، ويقول : اللهمّ إنّي أحبُّهما فَأحبَّهما "(٣).

ومنهم سعد بن أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ ، فقد أخرج أحمد بسند صحيح عن عمر ابن سعْد عن أبيه أنّه قال : " جاءه ابنه عامر ، فقال : " أيْ بُنيَّ ، أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأساً ؟! لا والله حتّى أُعْطَى سيفاً إن ضَرَبْتُ به مُؤمناً نَبَا عنه ، وإن ضَرَبْتُ به كافراً قتَله !! سمعْتُ رسول الله ﷺ يقول : إنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ يُحبُّ الغَنيَّ الخَفيَّ التَّقيَّ "(٤).

وأخرج الحاكم بإسناد صحيح عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين ، قال : " قيل لسعد ابن أبي وقاص : ألا تقاتل ؟ فإنّك من أهل الشّورى ، وأنت أحقّ بهذا الأمر من غيرك ، قال : لا أقاتل حتّى تأتوني بسيف له عينان ، ولسان وشفتان ، يعرف الكافر من المؤمن ، قد جاهدتُ وأنا أعرفُ الجهادَ ، ولا أبخع بنفسي إن كانَ رجلاً خير منّي "(٥).

---

(١) ابن حجر " الإصابة " (م١/ ج١/ ص٢٩/ رقم٨٩) .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٩٩) كتاب الفتن .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص٢١٦) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٤) أحمد " المسند " (ج٢/ ص٢٤٦/ رقم١٥٢٩).

(٥) الحاكم " المستدرك " (ج٤/ ص٤٤٣) كتاب الفتن والملاحم ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط=

وروى مسلم عن عامر بن سعد ، قال : " كان سعد بن أبي وقّاص في إبله ، فجاءه ابنه عُمَرُ فلمّا رآه سَعْدٌ ، قال : أعوذ بالله من شرّ هذا الرّاكب ، فنزل ، فقال له : أَنَزَلْتَ في إبلك وغنمك وتركتَ النّاس يتنازعون الملك بينهم ، فضرب سَعْدٌ في صَدْره ، فقال : اسْكتْ سمعْتُ رسول الله يقول : " إنَّ الله يُحبُّ العبْدَ التَّقيَّ الغنيَّ الخَفيَّ "[1].

ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقد أخرج أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : " إنّ أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ ، فقال لي رسول الله ﷺ : أطع أباك ما دام حيّاً ولا تَعْصِه ، فأنا معكم ولست أقاتل "[2].

وممّن اعتزل عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، أخرج البخاري عن سعيد بن جُبَيْر ، قال : " خرج علينا عبد الله بن عمر فرجونا أن يُحَدِّثنا حديثاً حسناً ، قال : فبادَرَنَا إليه رجلٌ ، فقال : يا أبا عبد الرّحمن ، حدِّثْنا عن القتال في الفتنة ، والله يقول : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال] فقال : هلْ تدْري ما الفتنةُ ـ ثَكلتْكَ أمُّكَ ـ إنّما كان محمّد يُقاتلُ المشركين وكان الدُّخول في دينهم فتنة وليس كقتالكم على الملك "[3].

ولرُبَّ محتجّ يحتجُّ علينا يقول : ها هي الأحاديث صريحة في أنّهم كانوا يُقاتلون على الملك ؟!

قلنا : هذا الحديث لا يراد به القتال الّذي وقع في الجمل وصفّين ، فابن عمر لا يعني

= الشيخين ولم يخرّجاه . وأخرجه عبد الرّزاق " المصنّف " (ج١١/ ص ٣٥٧/ رقم٢٠٧٣٦) كتاب الجامع .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٩/ ج١٨/ ص١٠٠) كتاب الزّهد.

(٢) أحمد " (ج٦/ ص١٠٧/ رقم٦٥٣٨) ، وأورده الهيثمي في " مجمع الزّوائد " (ج٧/ ص٢٤٤) وقال : رواه أحمد ورجاله ثقات ، وابن حجر في " المطالب العالية " (م١٨/ ص١٧٠/ رقم٤٤١٧) وقال المحقّق : صحيح بهذا الإسناد . وقد وقفت على روايات ضعيفة تشير إلى أنّه قاتل ورواية أحمد تردّها ، والله أعلم.

(٣) البخاريّ " صحيح البخاريّ " (م٤/ ج٨/ ص٩٤) كتاب الفتن .

عليّاً ولا معاوية ولا حتّى يزيد ، وإنّما المراد فتنة ابن الزّبير عام نزول الحجّاج به في أواخر سنة ثلاث وسبعين من الهجرة ، وصفّين حدثت في السّابع والثّلاثين من الهجرة ، وابن عمر خطابه مُوجّهٌ لِغَير الصَّحابة .

ومن تتبّع طرائق الحديث عرف مناسبته ومعناه والمراد منه ، فقد أخرج البخاري عن نافع ، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : " أتاه رجلان في فتنة ابن الزُّبير ، فقالا : إنَّ النَّاس صنعوا ، وأنت ابن عمر وصاحب النَّبيِّ ﷺ ، فما يمنعُكَ أن تخْرُجَ ؟ فقال : يمْنَعُني أنَّ الله حرَّم دمَ أخي ، فقالا : ألم يَقُل اللهُ : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال] فقال : قاتلنا حتّى لم تكن فتنة وكان الدّين لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتّى تكون فتنة ويكون الدّين لغير الله "(١).

ومنهم أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، فهو أحد رواة أحاديث القعود في الفتن كما تقدّم. وممّن روى أحاديث القعود في الفتن واعتزل أبو موسى الأشعري ، فقد أخرج أحمد بإسناد صحيح عن أبي موسى عن النَّبيِّ ﷺ قال : " كسِّروا قِسِيَّكم ، وقطِّعوا أوتاركم ـ يعني في الفتنة ـ ، والزموا أجوافَ البيوت ، وكونوا فيها كالخيِّر من ابني آدم "(٢).

وممّن اعتزل أبو مسعود ، وهو عقبة بن عمرو الأنصاريّ ، فقد روى البخاري عن عمرو أنّه سمع أبا وائل يقول : " دخل أبو موسى وأبو مسعود على عمّار حيث بعثه عليّ إلى أهل الكوفة يستنفرهم ، فقالا : ما رأيناك أتيتَ أمراً أكره عندنا من إسراعك في هذا الأمر منذ أَسْلَمتَ ، فقال عمّار : ما رأيتُ منكما منذ أسلمتما أمراً أكره عندي من إبطائكما عن هذا الأمر ، وكساهما حلّة حلّة ثمّ راحوا إلى المسجد "(٣).

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٥/ ص١٥٧) كتاب تفسير القرآن .

(٢) أحمد " المسند " (ج١٤/ ص٥٤١/ رقم١٩٥٥١) ورواه التّرمذي وحسّنه في " الجامع الكبير " (م٤/ ص٦٧/ رقم٢٢٠٤) وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٩٨) كتاب الفتن .

وانظر كيف جعل كلّ منهما الإبطاء والإسراع عيباً لما يعتقد من أنّ الحقّ معه، فأبو موسى الأشعري ، وأبو مسعود الأنصاريّ ـ رضي الله عنهما ـ اعتزلا تمسكاً بالأحاديث الواردة في القعود في الفتن ، وما فيها من وعيد لمن حمل السّلاح على المسلم ، أمّا عمّار ـ رضي الله عنه ـ فكان يرى في الإبطاء مخالفة للخليفة عليّ ـ رضي الله عنه ـ في قتال النّاكثين والباغين على عثمان ـ رضي الله عنه ـ وترك امتثال قول الله تعالى : ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] فكلا الفريقين مُتأوِّلٌ مجتهد مأجور ، ولم يخرجهم ذلك عن العدالة .

فالانتباهَ الانتباهَ من الوقوع في الفتن وملابستها ، واللهَ اللهَ في الدّماء ؛ فما أعظم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله !

سبب ملابسة الفتنة واعتزالها

وقد يقول قائل : ألا يترتّب على اعتزال الصّحابة للفتنة خذلان أهل الحقّ ؟!

والجواب أنّ الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ تنازعوا هذه المسألة ، فقد كانت الأمور مشتبهة اشتباهاً شديداً ، فاختلف اجتهادهم ، ولم تختلف قلوبهم ولم تتباغض ، فمن تبيّن له الحقّ باجتهاده مع طائفة كان معها ينصرها ، لثبوت أمر الله تعالى بقتال الطّائفة الباغية ، فالله تعالى يقول : ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] ومَنْ لم يتبيّن له الحقّ وغُمَّ عليه وتحيّر ولم يظهر له ترجيح إحدى الطّائفتين اعتزلهما ، عملاً بالآيات والأحاديث الّتي تنهى عن الوقوع في الفتن وتحذّر منها ، وكلّ واحد يعتقد أنّه المحقّ . والحقّ الصِرفُ حَمْلُ اجتهاد كلّ واحد من الصّحابة على الصّواب ، سواء من لابس الفتن أو اعتزل ؛ لأنّهم مجتهدون متأوّلون.

ومن الأحاديث الّتي كانت سبباً في اعتزال غير صحابيّ ما أخرجه البخاريّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، قال : قال رسول الله ﷺ : " ستكون فتنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي ، والماشي فيها خيرٌ من السّاعي ، منْ تَشَرَّف لها تَسْتَشْرِفْهُ

فَمَنْ وَجَدَ فيها ملجأ أو معاذاً فليَعُذ به "[1].

وما أخرجه أحمد بإسناد صحيح عن خرشة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ستكونُ من بعدي فتنةٌ النّائمُ فيها خيرٌ من اليقظان ، والقاعدُ فيها خيرٌ من القائم ، والقائمُ فيها خيرٌ من السّاعي ، فمن أَتَتْ عليه فليمشِ بسيفه إلى صفاةٍ فليضْرِبْه بها حتّى ينكسر ، ثمّ ليَضْجَع حتّى تنجلي عمّا انجلتْ "[2].

وما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن زياد بن مُسْلِم، عن أبي الأشعث الصّنعاني قال : بعثنا يزيد بن معاوية إلى ابن الزُّبير فلمّا قَدمتُ المدينة دخَلْتُ على فُلان سمّى زياد اسمه ، فقال: " إنَّ النّاس قد صنعوا ما صنعوا فما ترى ؟ فقال : أوصاني خليلي أبو القاسم ﷺ إن أدركتَ شيئاً من هذه الفتن فاعْمَدْ إلى أُحُدٍ فاكسر به حدَّ سَيْفكَ ، ثمَّ اقْعُدْ في بيتك ، قال : فإنْ دخَلَ عليكَ أحَدٌ إلى البيت فقم إلى المَخْدع ، فإن دخل عليك المخدع فاجْثُ على ركبتيك، وقل : بُؤْ بإثمي وإثمِكَ فتكونَ من أصحاب النَّار ، وذلك جزاء الظّالمين ، فقد كسرتُ سيفي وقعدتُ في بيتي "[3].

أحاديث الوعيد على من حمل السّلاح على أخيه المسلم

وأهل السّنّة مجمعون على تحريم الطّعن على أحد من أصحاب النّبيِّ ﷺ بسبب ما جرى بينهم ، حتّى لو عُرِف المحقّ منهم ؛ لأنّهم لم يقاتلوا على الدّنيا ، ولا قاتلوا عن جهل ، أو اتّباع هوى ، وإنّما هم مُتأوّلون مجتهدون فمن أصاب منهم فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر واحد وهو أجر الاجتهاد ؛ ذلك أنّ المجتهد المتأوّل من آحاد النّاس له أجر وإن أخطأ ، فما ظنّك بالصّحابة الّذين هم أكمل اجتهاداً وأحسن تأويلاً ! ولذلك فإنّ مخطئهم كمصيبهم في أصل الأجر والثّواب وتحرّي الحقّ والصّواب .

---

(١) البخاريّ " صحيح البخاريّ " (م٤/ ج٨/ ص٩٢) كتاب الفتن .

(٢) أحمد " المسند " (ج١٣/ ص٢٣٣/ رقم١٦٩٤٧) .

(٣) أحمد " المسند" (ج١٤/ ص٢٦/ رقم١٧٩٠٥).

أمّا مَنْ يردُّ هذا الكلام بما أخرجه الشّيخان عن الأحنف بن قيس ، قال : " ذهبْتُ لأنصُرَ هذا الرّجل (يعني عليّاً) ، فلقيني أبو بَكْرة ، فقال : أينَ تُريدُ ؟ قلتُ : أنْصُرُ هذا الرّجلَ ، قال : ارجعْ فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتلُ والمَقْتُولُ في النّار ، قُلْتُ : يا رسولَ الله ، هذا القاتلُ فما بالُ المقتولِ؟ قال : إنّه كان حريصاً على قَتْلِ صاحبه "[1].

فإنّ الردّ على هذا الّذي أخلد إلى الأرض أنّ هذا الحديث الشّريف الّذي فيه أنّ القاتل والمقتول في النّار محمول على من قاتل بغير تأويل سائغ ، ويكون قتالهما عن جهل ، أو هوى ، أو على دنيا ، أو مُلْكٍ ، أو نحو ذلك .

ولعلّ ما يؤيّد ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : " والّذي نفسي بيده ، لا تذهَبُ الدّنيا حتّى يأتي على النّاس يومٌ لا يدري القاتلُ ولا المقتول فيمَ قُتِلَ ! فقيل : كيف يكون ذلك ؟! قال : الهَرْجُ ، القاتلُ والمقتولُ في النّار "[2] فبيّن هذا الحديث علّة ذلك الحديث ، وهو إذا كان القتال عن جهل وعصبيّة فهو المراد بقوله : "فالقاتلُ والمَقْتُولُ في النّار ".

فإن احتجّوا عليهم لما جرى بينهم بقول النَّبيِّ ﷺ : " لا ترجعوا بعدي كُفَّاراً يضربُ بعضُكُم رقاب بعض "[3].

فإنّنا نقول لهم : هل وصلكم هذا الحديث الشّريف ، ولم يصل إليهم ؟! أم أنتم أعلم بالحديث الشّريف من عائشة وعلي ومعاوية وسائر الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ الّذين رووا الحديث عن رسول الله ﷺ ونقلوه إلينا ؟! ثمّ كيف تحتجّون عليهم بأحاديث بلغتهم قبل أن

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٣٧) كتاب الدّيات ، وأخرجه في (كتاب الإيمان)، كذلك أخرج نحوه مسلم في كتاب الفتن وأشراط السّاعة " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٩/ ج١٨/ ص١٠) .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ "(م٩/ ج١٨/ ص٣٥) كتاب الفتن .

(٣) البخاري " صحيح البخاري "(م٣/ ج٥/ ص١٢٦) كتاب المغازي .

تبلغكم ، ولا تعظّمون حرمتهم ، ولا تعرفون سابقتهم ، وتستطيلون عليهم وأنتم دونهم ؟! وهذا الحديث لا ينطبق على الصّحابة .

وكلّ الأحاديث الّتي بهذا المعنى لها تأويل مبسوط في كتب شروح الحديث ، ومنها ، قول النّبيِّ ﷺ : " سِبَابُ المُسْـلم فسوقٌ وقتالهُ كُفْرٌ "(١).

والمراد بالكفر كُفْرُ الإحسان وأخوّة الإسلام ، لا كفْر الجحود والنكران المُخْرج من الملَّةِ بالتَّمام ، فكفرٌ دون كفر ، وفسوق دون فسوق ، ويكفي لتأكيد ذلك أن تتدبّر قوله تعالى : ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ... ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة] فإنّ هذا النّوع من الفسوق يختلف عن الفسوق في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [البقرة] فالفسوق درجات كما الكفر درجات .

وفي تأويل هذا الحديث أقوال أُخَر ، منها : أنّه في المستحلّ ، ومنها أنّه على سبيل التّشبيه لأنّ هذا الفعل يشبه فعل الكفّار ، وقيل: إنّ أحاديث النّهي مخصوصة بآخر الزّمان ، حيث تتحقق المقاتلة في طلب الملك ، فقد وقع في حديث أبي موسى الأشعري أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : " إنّ بين يدي السّاعة أيّاماً يُرفَعُ فيها العلم ، وينزل فيها الجهل ، ويكثر فيها الهرج ، والهرجُ القتل "(٢).

وهناك أقوال أُخَر يضيق المقام عن ذكرها ، ولعلّ أقوى هذه الأقوال أنّ إطلاق الكفرعلى قتال المؤمن للمبالغة في تّحذير السّامع ؛ لينزجر ويرتدع عن الإقدام على القتال ، ولذلك فقد توقَّفَ غير عالم عن تأويل أحاديث الوعيد لتكون أكثرَ زجراً ، وأشدَّ ردعاً .

والحقّ الّذي عليه السّلف والخلف أنّنا يجب أن نمسك عمّا جرى بينهم ، ولا نذكرهم إلاّ بما ذكرهم الله في كتابه ، والنّبيُّ ﷺ في سنّته .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م١/ ج٢/ ص٥٤) كتاب الإيمان .
(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٨٩) كتاب الفتن .

اجتماع الحكمين

ما حقيقة ما جرى في التّحكيم ؟ وما الأمر الّذي اجتمع لأجله الحكمان ؟ وعلام اتّفقا ؟ وما نتائج التّحكيم ؟

تَقَدَّمَ أنّ حاصل الخلاف بين عليّ ومعاوية أنّ معاوية كان يعتقد بوجود قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ في الجانب العراقي ، فاعتلّ بأنّ عثمان قُتِلَ مظلوماً ، وهو وليّ دمه ، وتجب المبادرة إلى الأخذ على يد قَتلتِه ، وأنّ له شوكة على ذلك ، فالتمس من عليّ ـ رضي الله عنه ـ أن يأخذ له حقّه في حينه وفي وقته ، أو يسلّمه إيّاهم ويمكّنه منهم ؛ ليأخذهم بعثمان ـ رضي الله عنه ـ ثمّ يسلّم له ، أمّا عليّ ـ رضي الله عنه ـ فكان يرى تأخير ذلك حتّى يتوطَّدَ الأمرُ له ويُخْضِعَ البلاد ، وأنّه هو الخليفة الواجب طاعته ، وليس على معاوية إلاّ السّمع والطّاعة ، وأنّ الله تعالى أَذِنَ بقتال الفئة الباغية حتّى ترجع إلى الحقّ .

ولذلك فإنّ اجتماع الحكمين كان للنظر في قضية مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، والنّظر في الخلاف الّذي نشأ عن ذلك بين معاوية وعليّ ـ رضي الله عنهما ـ : معاوية الّذي يرى أنّ له الحقّ في الطلب بدم عثمان ـ رضي الله عنه ـ ومحاسبة قتلته ، وعليّ ـ رضي الله عنه ـ الّذي يرى الاجتماع على الطّاعة ووحدة الجماعة ، ليقوى على وضع الحقّ مواضعه ، ثمّ يطلب منه أولياء الدّم بعد ذلك القصاص ممّن يثبت عليه قتل عثمان أو الممالأة على دمه .

فاجتمَعَ الحكمان للنظر في رأي من يستحقّ أن يُقَدّم على الآخر ، وكيف السّبيل إلى الخروج من هذه الشّدّة ، ولم يجتمعا للنّظر في عزلِ أحدٍ ، وما كان لأبي موسى وعمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن يخلعا خليفة انعقدت له البيعة من أهل الحلّ والعقد ! وليس في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ما يُوجِبُ خلعَ عليّ ـ رضي الله عنه ـ فلم يظهر منه ما يوجب خلعه .

قال محمّد بن حبّان : " فلما دخلت السنة الثامنة والثلاثون اجتمعوا لميعادهم مع الحكمين ولم يخرج عليّ بنفسه ووافى معاوية في أهل الشام وكان بينه وبين أبي موسى الأشعري

ما كان وافترق النّاس ورجعوا إلى أوطانهم "[1].

وأَصَحُّ ما روي في هذا الشّأن ما ذكره ابن عساكر عن حضين بن المنذر ، وهو أحد قادة جيش عليّ ، ومن كبار التّابعين الثّقات ، فقد أرسل إليه يومها معاوية ، وكان قد بلغه ما يكره من أمر الحكمين ، وهذا يدلّك على أنّ تلفيق الأخبار وإثارة الشّائعات حول حقيقة قرار الحكمين قد بدأ مبكّراً وأنّه دُبـِّر بليل .

قال معاوية : " إنَّه بلغني عن عمرو بعض ما أكره ، فَائْتِه فاسأله عن الأمر الّذي اجتمع هو وأبو موسى فيه ، كيف صنعا ؟ قال : فأتيته ، فقلت : أخبرني عن الأمر الّذي اجتمعتما فيه أنتَ وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟ قال : قد قال النّاس ، والله ما كان ما قالوا ، ولكن لّما اجتمعْتُ أنا وأبو موسى قلتُ له : ما ترى في هذا الأمر ؟ قال : أرى أنّه في النَّفر الّذي توفِّيَ رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ ، قال : فقلتُ : أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية ؟ وقال : إنْ يُسْتعن بكما ففيكما معونة ، وإن يُسْتَغْنى عنكما فطالما استغنى أمرُ الله عنكما "[2].

هذا هو قرار الحكمين : رَدُّ الخلاف الّذي بين عليّ ومعاوية إلى أهل الشّورى الّذين توفِّي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، فهم أجدر ببحثه ، ورأيهم أدعى للقبول .

وأهل الشّورى الّذين نَصَّ عليهم عمر لّما حضرته الوفاة ستة نفر ، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ : " ما أجد أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النّفر أو الرّهط الّذين توفِّيَ رسول الله وهو عنهم راض ، فسمّى : عليّا ، وعثمان ، والزّبير ، وطلحة ، وسعداً ، وعبد الرّحمن ، وقال : يشهدُكم عبد الله بن عمر[3]، وليس له من الأمر شيء "[4].

---

(١) ابن حبان " الثقات " (ج٢/ ص٢٩٧)

(٢) ابن عساكر " تاريخ مدينة دمشق " (ج٤٦/ ص١٧٥) وذكره ابن العربي في " العواصم من القواصم " (ص١٨١) وعزاه إلى الدّارقطني .

(٣) وعبد الله بن عمر لم يعدّه من أهل الشّورى ولكن جبر خاطره بأن جعله من أهل المشاورة في ذلك .

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٢/ ص٢٠٦) كتاب بدء الخلق .

ولم يكن يوم التّحكيم من هؤلاء غير عليّ ، وسعد بن أبي وقّاص ، وعبد الله بن عمر، فأمّا عبد الرّحمن بن عوف فمات في خلافة عثمان ، وأمّا عثمان وطلحة والزّبير فقُتِلوا ظلماً وعدواناً .

ويظهر أنّ الحكمين قد اجتهدا في الأمر وأدركا بثاقب فكرهما ، وصائب رأيهما ألّا يعجلا في الأمر ، وأن يشاركهما الرّأي كِبَارُ الصّحابة وأعيانهم من أمثال سعد بن أبي وقّاص ، وعبد الله بن عمر شقيق حفصة أمّ المؤمنين ، وهما عظيما القدر ؛ عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... (٣٨) ﴾ [الشّورى] فضلاً عن خشية الحكمين أن يستغلّ مرضى القلوب قرار التّحكيم إن لم يكن مرضياً لأحد الفريقين في تجديد الخلاف وإيقاع الفتنة ، خاصة وأنّ كلا الفريقين ظل يظنّ أنّه على الحقّ وأنّ الحقّ معه .

فهذا معاوية ـ رضي الله عنه ـ ظلّ معتقداً أنّه على الحقّ حتى بعد التحكيم ، ويعذر بهذا ؛ لأنّه لو كان يرى أنَّ الحقَّ مع عليٍّ فلا معنى لمخالفته له ، أخرج البخاري عن ابن عمر ، قال :

" دخَلتُ على حفصة ، ونوساتُها تنْطفُ[1] ، قلتُ : قد كان من أمر النّاس ما ترين ، فَلم يُجْعَلْ لي من الأمر شيءٌ ، فقالتْ : الحَقْ ، فَإنّهم ينتظرونكَ وأخشى أنْ يكون في احتباسك عنهم فُرْقَة ، فلم تَدَعْه حتّى ذهب ، فلمّا تفرّق النّاسُ خطب مُعاوية ، قال : مَنْ كانَ يُريدُ أن يَتكلّمَ في هذا الأمر فَلْيُطلعْ لنا قَرْنَه ، فلنَحْنُ أحقُّ به منه ومن أبيه ، قال حبيب بن مَسْلمة : فَهلاّ أجبْتَهُ ، قال : عبد الله : فَحَللتُ حُبْوتي وهممتُ أن أقول : أحقُّ بهذا الأمر منك مَنْ قاتلك وأباك على الإسلام ، فخشيتُ أن أقول كلمةً تُفَرّقُ بين الجمع وتسفكُ الدّمَ ويُحملُ عنّي غيرُ ذلك ، فذكرتُ ما أعدَّ اللهُ في الجِنان ، قال حبيبٌ : حُفِظتَ وَعُصِمتَ "[2].

وتقدير الكلام أنّ عبد الله بن عمر دخل على أخته حفصه (أمّ المؤمنين) وكانت

---

(١) أي ضَفَائِرَ شعرها تَقْطُر.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٥/ ص٤٨) كتاب المغازي .

نوساتها تقطر بللاً ـ كأنّها كانت اغتسلت ـ فشاورها فيما كان بين معاوية وعليّ واجتماع النّاس على التّحكيم للنظر فيما اختلفا فيه ، وكانوا قد تواعدوا على الاجتماع في دومة الجندل ، وسألها إن كان الخير في أن يقعد أو يلحق بهم ، فأشارت عليه أنّه لا يَجملُ به أن يتخلّف عن صلح بين أُمّة محمّد ﷺ ، وهو صهر رسول الله ﷺ وابن عمر بن الخطّاب ، وألحّت عليه حتّى ذهب ووافاهم هناك .

فلمّا تفرّق النّاس ، قال معاوية ـ رضي الله عنه ـ كلمةً تُعبّر عن قناعته أنّه على الحقّ ، قال: " من كان يُريدُ أن يَتكلّمَ في هذا الأمر فَلْيُطلعْ لنا قَرْنَه ، فلَنَحْنُ أحقُّ به منه ومن أبيه " وقد فسّر الحافظ في الفتح قوله " هذا الأمر " وقال : " أي بالخلافة "(١). قلتُ: وفيه بُعْدٌ ؛ لأنّ الخلاف بينهما لم يكن على الخلافة كما تقدّم ، والمراد من الأمر الطّلب بدم عثمان ـ رضي الله عنه ـ والله أعلم .

وهناك من حَمَلَ هذا الحديث على أنّه كان في زمن معاوية لّما أراد أن يَعْهَدَ ليزيد ، وأنّ ابن عمر كان يرى أنّه أحقُّ بالخلافة ويطمع فيها ، وأنّ معاوية كان لا يرى أحداً أحقّ بالخلافة من يزيد ، وهذا لا يصحّ ، وقد وجّه ابن حجر هذا الحديث بما يفيد أن هذه القصّة كانت في التَّحكيم بعد صفِّين ، فقد ذكر طريقاً آخر للحديث من رواية عبد الرّزاق عن معمر ، قال : "فلم تدعه حتّى يذهب ، فلمّا تفرّق الحكمان ، خطب معاوية ... "(٢) وقال ابن حجر : وهو يفسّر المراد ويعيّن أنّ القصّة كانت بصفّين "(٣) وقيل غير ما تقدّم ، وأيّاً كان سبب ومناسبة هذا الحديث فالظّن بمعاوية لا يكونُ إلّا خيراً .

فإن قال قائل : فقد شهد التّحكيم من شهد من كِبَار الصَّحابة من أمثال عبد الله بن عمر، وعبد الرّحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن الزّبير ، والمغيرة بن شعبة ، وسعد بن أبي وقّاص على خلافٍ فيه ، فأيّ فائدة من هذا القرار الّذي خرجا به ؟!

---

(١) ابن حجر " فتح الباري " (ج٧/ ص٣٢٤) .
(٢) الصّنعاني " مصنّف عبد الرّزاق " (ج٥/ ص٤٨٣/ رقم٩٧٧٩) .
(٣) ابن حجر " فتح الباري " (ج٧/ ص٣٢٣) .

فالجواب أنّ من شهد لم يكن له من الأمر شيء ، وإنّما الأمرُ أمرُ الحكَمين ، وأي قرار عنهما يتحمّلان تبعته وحدهما ، وقرار خلع عليّ وإثبات معاوية يستحيل أن يصدر عنهما ، وهما أتقى لله من أن يفعلا ذلك ؛ لما في ذلك من مخالفة للكتاب والسُّنَّة ، ولما ينشأ عن هذا القرار من فساد وفرقة ، وهذا خلاف الّذي اجتمعا لأجله ، ثمّ إنّ سعد بن أبي وقّاص هناك خلاف على حضوره .

وتأجيل الحكومة من قبل الحكمين لم يخرج عمّا جاء في كتاب الصُّلح ، فلهما أنْ يؤجّلا الأمر إذا اقتضت المصلحة ذلك كما يفهم من كتاب الصُّلح . وأيًّا كان الأمر فلا بدَّ أنّ للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فيما شَجَرَ بينهم أعذاراً تخفى علينا .

وهذا التّحكيم كان من نتائجه ظهور المحقّ من المبطل ، فقد ظهر أنّ عليّاً ومعاوية كانا مُحِقَّين في غايتهما لكنّ عليّاً كان الأدنى إلى الحقّ ، وظهر أنّ المبطل هم الخوارج الّذين خرجوا على عليّ ـ رضي الله عنه ـ يوم علموا أنّ الحرب الّتي أشعلوها قد وضعت أوزارها ، فلم يَرْضَ هؤلاء بالاحتكام إلى كتاب الله لحقن دماء المسلمين ، ولا رضوا بقرار التّحكيم ، فقاتلهم عليّ بعد ذلك لما ظهر منهم ، وكان له أجرٌ على قتاله لهم ، ويشهد لذلك ما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : " تكون في أمّتي فرقتان ، فتخرجُ من بينهما مارقة يلي قَتْلهم أولاهُم بالحقّ "(١).

ذِكْرُنا لما شَجَر بين الصّحابة لا ينافي أمر النّبيِّ ﷺ بالإمساك عن ذكرهم

هذا مجمل تلك الأحداث ولها بسط في كتب التّاريخ لا يسرُّ النّاظرين ، على أن الإيجاز في هذا المقام هو الأولى واللائق ، والاقتصار على الصّحيح هو الحقّ والواجب ، فقد قال ﷺ: " إذا ذكر أصحابي فأمسكوا "(٢) فكثرة المقالة في هذا الموضوع قد تكون عثرة غير مُقالة ، كما

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٤/ ج٧/ ص١٦٨) كتاب الزّكاة .

(٢) رواه الطّبراني في " المعجم الكبير " (ج٢/ ص٩٣/ رقم ١٤٢٧) وقال الهيثميّ : رجال سنده رجال الصّحيح إلاّ واحداً اختلف فيه ، وقد وثّقه ابن حبّان وغيره "تطهير الجنان واللسان " (ص٥٠) والألباني "سلسلة الأحاديث الصّحيحة " (م١/ ص٤٢/ رقم٣٤) .

أنّ الواجب إذا صحّ شيء عن الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن نحمله على أحسن تأويل إذ هم أهل لذلك بصريح القرآن والسُّنَّة .

وَذِكْرُنا لما جرى بين أصحاب النَّبيِّ ﷺ لا ينافي أمر النَّبيِّ ﷺ بالإمساك عن الحديث عن أصحابه ؛ لأنّ ما ذكرناه هو الحقّ الّذي لا بدّ من بيانه من عدالة الصّحابة خلافاً لما يذكره المبطلون من أخبار كاذبة يتّخذونها مدخلاً للطّعن على أصحاب النَّبيِّ ﷺ ليوقعوا العامّة في بُغْضِهم .

فالإمساك الّذي أمر ﷺ به هو الإمساك عن الكلام عنهم إذا كان فيه تنقيص لهم ، أو وضع منهم ، أو إزراء بهم ، أمّا ذكرهم للذّبِّ عنهم وبيان فضائلهم والاقتداء بهم فلا يُفهم ذلك من الحديث ، فلو أمسكنا عن الحديث كيف سيفهم الجاهل الحقَّ من الباطل ، ومتى سيعرف المؤمنُ الصّحيحَ من السَّقيم ؟! ومن الأقوال السّائرة عند العرب : " اعْقِل لسانَك إلاّ في أربعة : حقٍّ توضِّحه ، وباطلٍ تدحضه ، ونعمةٍ تشكرها ، وحكمة تظهرها "(١).

وقد بلغ من جهل الجهلاء أن وصفوا من يُحقِّق فيما جرى بين أصحاب النَّبيِّ ﷺ بمن يعبث بأكفان الموتى ، أو بمن شَغَلَ نفسه بنبش قبور الموتى ، وهذا أعجب ما سمعت ؛ إذ أباحوا لأنفسهم كتابة الأباطيل ، وعابوا على غيرهم بيان زيفها ! فهم لا يريدون أن نعرف من تاريخنا الإسلامي إلاّ ما أرادوه لنا !

ولا عجب أن يسخر أقوام ممّن غايته بيان عُذْر أصحاب رسول الله ﷺ وتنزيه الصّحابة وإظهار قدرهم ؛ فأعجب من ذلك أنّهم ما قدروا الصّحابة أنفسهم، وهذا يذكّر بقول الله تعالى خطاباً لنبيّه ﷺ : ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصّافات].

وهذا البلاء ليس باستطاعة معاوية ـ رضي الله عنه ـ دفعه ، فالله تعالى إذا أراد شيئاً أصابه ، فقد قال له النَّبيُّ ﷺ ذات يوم : " يا معاوية ، إن وُلِّيتَ أمراً فاتق الله ـ عزّ وجلّ ـ

(١) المنجد في اللغة والأعلام : (ص٣٣) فرائد الأدب .

واعدِلْ . قال : فما زلتُ أظنّ أنّي مبتلى بعمل لقول النّبيِّ ﷺ حتّى ابْتُليت"[1].

فمن أراد النّجاة فليُعرض عن هواة التّرّهات وعشّاق الجدل الّذين يخاصمون في الصّحابة بالباطل ، فقد ذمّ الله تعالى الجدل لغير إحقاقِ حقٍّ وإبطال باطل ، فقال : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزّخرف] فأنا أعلم أنّ من النّاس ناساً مهما جئتهم بآية وبيّنة لا يؤمنون بها اقتداء بكفّار قريش الّذين لم تنفع فيهم معجزة ولا آية ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر] وفي الحديث الشّريف عن أبي أمامة قال رسول الله ﷺ : " ما ضلّ قومٌ بعد هُدىً كانوا عليه إلاّ أُوتوا الجدل ثمّ تلا هذه الآية ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف] "[2].

مناظرة ابن عبّاس الخوارج فيما نقموه على عليّ

من هم القُـرّاء ؟ ولماذا خرجوا على عليّ ؟ ولماذا سمّوا بالحروريّة ؟ وماذا قال لهـم ابن عبّاس في مناظرته لهم فيما أنكروه على عليّ حتّى يرجع منهم ألفان ؟

أمّا مَنْ أنكر على عليّ ـ رضي الله عنه ـ التّحكيم في صفّين ، وادّعى أنّ عليّاً حكّم الرّجال في دين الله تعالى ، وذلك حرام بدليل قوله تعالى ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ... ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى].

فإنّ الّذين أنكروا عليه ذلك هم الخوارج ، وكانوا يُسمَّون قبل ذلك بالقُـرّاء لكثرة اجتهادهم في تلاوة القرآن الكريم ، إلاّ أنّهم كانوا يتأوّلون بعض آياته على غير مراد الله منه ويتَعنَّتون برأيهم . وسُمُّوا بالخوارج بعد حادثة التّحكيم لأنّ طائفة منهم ابتدعت وخرجت

(١) أخرجه أحمد في " المسند " بإسناد صحيح (ج١٣/ ص٢٠٤/ رقم١٦٨٧٢) وهو في " سير أعلام النّبلاء " (ج٣/ ص١٣١) وقال المحققُ : رجاله ثقات .

(٢) أحمد " المسند " (ج١٦/ ص٢٢٣/ رقم ٢٢٠٦٤) وإسناده صحيح .

على الدّين وعلى عليّ أمير المؤمنين ، وسمّوا بعد ذلك بالحروريّة لأنّهم فارقوا عليّاً واعتزلوه ونزلوا في مكان قرب الكوفة يسمّى حروراء ، واتّفقوا هناك على قتال أهل العدل ، فأرسل إليهم عليّ ابن عبّاس فناظرهم فحجّهم فرجع منهم ألفان .

وما كان عليّ ـ رضي الله عنه ـ ليقاتل هؤلاء إلاّ بعد أن ظهر منهم ما يوجب قتالهم ، وما قاتلهم إلاّ بعد أن أقام الحجّة عليهم عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ... ﴿١١٥﴾ ﴾ [التّوبة].

فقد أرسل لهم عليّ ابن عبّاس وهو حبر هذه الأمّة وترجمان القرآن ، فدخل عليهم في دارٍ نصف النّهار ، وسألهم عمّا نقموه على عليّ ، فذكروا أموراً ثلاثة :

إحداهنّ : أنّه حَكَّم الرِّجال في أمر الله ، والله يقول : ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ ... ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنعام] والثّانية : أنّه قاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم ، والثّالثة : أنّه محا نفسه من أمير المؤمنين .

فاشترط عليهم ابن عبّاس أن يرجعوا إذا قرأ عليهم من كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ ما يردّ قولهم ، فوافقوا .

فقرأ عليهم ردّاً على مطعنهم الأول قول الله تعالى : ﴿ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ... ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة] فقد صيَّر الله حكمه إلى الرّجال في قتل صيد الأرنب ونحوه في حالة الإحرام بحج أو عمرة ، ومقتضى كلام ابن عبّاس أنّ الله تعالى لو شاءَ لحَكمَ ، ولكن أَجَازَ للرّجال أن تحكم ، فكأنّه يقول لهم : فأيّهما أولى وأفضل حكم الرّجال في أرنب أم في إصلاح ذات البين بين معاوية وعليّ وحقن دماء المسلمين بين الطّائفتين المؤمنتين ؟

ثمّ قرأ عليهم آية أخرى تجيز حكم الرّجال في إصلاح ذات البين وذلك بين الزّوجين، وأنّ دَمَ أمّة محمّد ﷺ أعظمُ حرمةً من امرأة ورجل مختلفين، فقرأ عليهم قول الله تعالى في امرأة ورجل : ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ

﴿ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النساء] فكان جوابه مُسكتاً .

هذا ولا يخفى أنّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ ما حكّم الرّجال في دين الله تعالى ، وإنما حكّم كلام الله ، قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ : " والله ما حكّمت مخلوقاً ، إنّما حكّمتُ القرآن "(١).

نعم ، حكّـم كتـاب الله لأنّ الله يقــول : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ... ﴿٥٩﴾ ﴾ [النّساء] فكيف يردُّ عليّ ـ رضي الله عنه ـ هذا النِّزاع بين الطائفتين المؤمنتين إلى الله والرّسول ؟ هل يترك الجميع يتكلّم بحجَّته فيكثر اللغط ، ويضيع الحقّ ؟! أم ينتدبُ رجلين عَدْلين مَرْضِيين من كلا الطائفتين من أهل الرأي والحِجا يحكمان لمن أوجب الله في كتابه الحكم له ؟ هذا ما فعله ـ رضي الله عنه ـ لا سيّما وأنّه واثق بأن الحقّ معه !

وكيف يمتنع التحكيم ، وهو عمل بقوله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات] بل اللجوء إلى التّحكيم وقبوله من حسنات علي ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ . وهو مِصْداق لقوله تعالى في وَصْفِ أصحاب النَّبيِّ ﷺ : ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ...﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]، وقوله تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ...﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة].

أمّا الأمر الثّاني الّذي احتجّوا به ، وهو أنّه قاتل في الجمل وصفّين ولم يسب ولم يغنم ، فبيّن لهم أنّ ذلك لا يحلّ شرعاً ؛ فكيف يَسْبُون أمَّهم عائشة ويستحلّون منها ما يستحلّون من غيرها ، إذ السّبايا يجوز الزّواج بهنّ ، وعائشة أمّهم ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا

---

(١) ابن الجوزي " فنون الأفنان " (ص٥٥) وانظر " مجموع فتاوى ابن تيمية " (ج١٢/ ص٤١٨) كذلك (ص٥٠٥).

﴿(٥٣)﴾ [الأحزاب] فإن استحلّوا ذلك فقد كفروا ، وإن قالوا : ليست بأمّنا فقد كفروا لأنّ الله يقول : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ... (٦) ﴾ [الأحزاب] فألجمهم الحجّة .

وأمّا الأمر الثّالث : فهو أنّه محا نفسه من أمير المؤمنين ، وذلك أنّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ لّما كتب وثيقة التّحكيم كتب : " هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية " ولم يكتب : هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين عليّ ، وظنّوا أنّ مَحْوَهُ لفظَ أمير المؤمنين مَحَاهُ من الخلافة .

فبيّن لهم ابن عبّاس أنّ النّبيَّ ﷺ في صلح الحديبية طلب من عليّ أن يكتب : " هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد الله ... " ولم يكن مَحْوه نفسه ذلك محاهُ من النُّبوَّة ! فلا يعني عدم كتابة عبارة (رسول الله) التّنازل عن النُّبوَّة ، وطالما أنّه مسبوق بذلك بمن هو خيرٌ منه فلا معنى لإنكارهم ! فرجع منهم ألفان ، وقاتل من بقي منهم بعد ذلك المهاجرون والأنصار على ضلالتهم .

وهذا نَصُّ المناظرة الّتي جرت بين ابن عبّاس والحروريّة ، وفيها من الفوائد الشّيء الكثير لمن تدبّرها :

أخرج الحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، قال : " لّما خرجت الحرورية اجتمعوا في دار ، وهم ستة آلاف ، أتيتُ علياً ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أَبْرِدْ بالظهر لعلّي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم . قال : إني أخاف عليك . قلت : كَلَّا . قال ابن عباس : فخرجتُ إليهم ولبست أحسن ما يكون من حُلَلِ اليمن ، قال أبو زميل : كان ابن عباس جميلاً جهيراً .

قال ابن عباس : فأتيتهم ، وهم مجتمعون في دارهم ، قائلون ، فسلّمتُ عليهم فقالوا : مرحباً بك يا بن عباس فما هذه الحُلَّة ؟ قال : قلت : ما تَعيبونَ عَليَّ ؟! لقد رأيتُ على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحُلَل ، ونزلت : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ...(٣٢) ﴾ [الأعراف] قالوا : فما جاء بك ؟ قلت : أتيتكم من عند

صحابة النَّبيِّ ﷺ من المهاجرين والأنصار ، لأُبلِّغكم ما يقولون ... فعليهم نزلَ القرآن ، وهم أعلم بالوحي منكم ، وفيهم أنزل : وليس فيكم منهم أحد . فقال بعضهم : لا تخاصموا قريشاً ، فإنَّ الله يقول : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزّخرف] قال ابن عباس : وأتيت قوما لم أرَ قوما قطّ أشدّ اجتهاداً منهم مسهمة وجوههم من السَّهر ، كأن أيديهم وركبهم تثنى عليهم ، فمضى من حضر ، فقال بعضهم : لنكلمنَّه ولننظرنَّ ما يقول .

قلت : أخبروني ماذا نقمتم على ابن عمّ رسول الله ﷺ ، وصهره والمهاجرين والأنصار ؟ قالوا : ثلاثاً . قلت : ما هنَّ ؟

قالوا : أمَّا إحداهنّ فإنه حَكَّم الرجال في أمر الله ، وقال الله تعالى ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ... ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنعام] وما للرجال وما للحكم ؟ فقلت : هذه واحدة .

قالوا : وأمَّا الأخرى فإنه قاتل ، ولم يسب[1] ولم يغنم ، فلئن كان الذي قَاتَلَ كفّاراً لقد حَلَّ سبيهم وغنيمتهم ، ولئن كانوا مؤمنين ما حلَّ قتالهم . قلت : هذه اثنتان ، فما الثّالثة ؟

قال : إنَّه محا[2] نفسه من أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين . قلت : أعندكم سوى هذا ؟ قالوا : حسبنا هذا .

فقلت لهم : أرأيتم إن قرأتُ عليكم من كتاب الله ومن سُنَّة نبيِّه ﷺ ما يَردُّ به قولكم أترضون ؟ قالوا : نعم .

فقلت : أما قولكم : حكّم الرّجال في أمر الله فأنا أقرأ عليكم ما قد ردَّ حكمه إلى الرّجال في ثمن ربع درهم في أرنب ونحوها من الصَّيد ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ...﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة] فنشدتكم الله أحكم الرجال في أرنب ونحوها من الصَّيد أفضل ، أم

(١) السَّبْيُ والسِّباء : الأسر وأخذ النِّساء والذُّرية غنيمة في الحرب .

(٢) المحو : الإزالة ، والمسح وذهاب الأثر والتنحية .

حكمهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم ؟ وأن تعلموا أنّ الله لو شاء لحكم ولم يصير ذلك إلى الرّجال ، وفي المرأة وزوجها قال الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ... (٣٥) ﴾ [النّساء] فجعل الله حُكْمَ الرّجال سنَّة مأمونة ، أخرجت عن هذه ؟ قالوا: نعم .

قال : وأمّا قولكم : قاتل ولم يسب ولم يغنم ، أتسبون أمّـكم عائشة ثم يستحلّون منها ما يستحلّ من غيرها ؟ فلئن فعلتم لقد كفرتم وهي أمُّكم ، ولئن قلتم : ليست أمّنا لقد كفرتم فإنّ الله يقول : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ...(٦) ﴾ [الأحزاب] فأنتم تدورون بين ضلالتين أيُّهما صرتم إليها صرتم إلى ضلالة ، فنظر بعضهم إلى بعض ، قلت : أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم .

قال : وأما قولكم محا اسمه من أمير المؤمنين ، فأنا آتيكم بمَنْ ترضون وأُريكم ، قد سمعتم أَنَّ النَّبيَّ ﷺ يوم الحديبية كاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين : اكتب يا علي : هذا ما اصطلح عليه محمّد رسول الله ، فقال المشركون : لا والله ما نعلم إنّك رسول الله لو نعلم إنك رسول الله ما قاتلناك ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنّك تعلم أنّي رسول الله ، اكتب يا علي : هذا ما اصطلح عليه محمّد بن عبد الله. فوالله لرسولُ الله خير من عليّ ، وما أخرجه من النُّبوَّة حين محا نفسه ، قال عبد الله بن عباس : فرجع من القوم ألفان ، وقُتل سائرهم على ضلالة "[١].

وممّا يستفاد من المناظرة أنّ على الدّاعية أن يكون عالماً بالكتاب والسّنّة فقيهاً في الدِّين عالماً بالتّأويل ...

---

(١) الحاكم " المستدرك " (ج٢/ ص١٥٠) كتاب قتال أهل البغي . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه . وأخرجه النّسائي في " خصائص أمير المؤمنين عليّ " (ص١٥٠)، وقال المحقّق : إسناده صحيح .

إخبار النَّبيِّ ﷺ عن الحروريّة وأنّ عليّاً سيقاتلهم على التّأويل

ماذا أخبر النَّبيُّ ﷺ عن الحروريّة (الخوارج) ؟ وبماذا نعتهم ؟ وهل في هؤلاء القوم علامة ؟ وماذا صنعوا حتّى يقاتلهم عليّ ـ رضي الله عنه ـ في النّهروان ويستبيح دماءَهم ؟

الله تبارك وتعالى عَرَضَ على نبيّه ﷺ ما هو كائن في أمّته حتّى تقوم السّاعة ، لحديث أحمد وغيره عن أمّ حبيبة عن النّبيِّ ﷺ ، قال : " رَأَيْتُ مَا تَلْقَى أُمَّتِي بَعْدِي وَسَفْكَ بَعْضِهِمْ دِمَاءَ بَعْضٍ وَسَبَقَ ذَلِكَ مِن الله تَعَالَى كَمَا سَبَقَ فِي الأمم فسألتُه أَنْ يُوَلِّيَنِي شَفَاعَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيهم ، ففعل "(١).

وقد أخبر ﷺ بأمر الخوارج وذكر أوصافهم ، وجاء نَعْتُه لهم كفلق الصّبح في عهد الخليفة الرّاشد عليّ ـ رضي الله عنه ـ ، وذلك من دلائل وعلامات النُّبوَّة الّتي لا تعرف إلاّ بالوحي ، فقد أخبر ﷺ أنّهم سيخرجون في آخر زمان خلافة النُّبوَّة ، وذمّهم ﷺ في غير حديث ، وحرّض على قتلهم ، وأخبر أنّ في قتلهم أجراً ، أخرج البخاريّ عن عليّ أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول:

" سيخرج قومٌ في آخر الزّمان حُدّاثُ الأسنان سفهاءُ الأحلام ، يقولون من خير قول البريّة ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدّين كما يمرق السَّهمُ من الرَّميّة ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنّ في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة "(٢).

وأخبر ﷺ أنّهم شَرُّ الخلق ، أخرج مسلم عن أبي ذرّ ، قال : قال رسول الله ﷺ : " سيكون بعدي من أمّتي قومٌ يقرؤون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم ، يخرجون من الدّين كما

---

(١) أحمد " المسند " (ج١٨/ ص٥٣٨/ رقم٢٧٢٨٣) وإسناده صحيح ، وأخرجه الحاكم في " المستدرك " (ج١/ ص٦٨) كتاب الإيمان ، وقال الحاكم : حديث صحيح الإسناد على شرط الشّيخين ولم يخرّجاه ، ووافقه الّذهبي .

(٢) البخاريّ " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٥٢) كتاب استتابة المرتدّين . ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٤/ ج٧/ ص١٦٤) كتاب الزّكاة .

يخرجُ السّهمُ من الرَّمِيَّة ، ثمّ لا يعودون فيه ، هم شَرُّ الخَلق والخليقة "[1].

ومن العلامات الّتي نَعَتَهُم بها ﷺ أنّهم مَهَرَةٌ في قراءة القرآن ، لكنّهم يتأوّلونه خطأً ، وأنّ فيهم المُخْدَج وهو ناقص اليد ، ويده مثل ثدي المرأة ، أخرج مسلم عن زيد بن وهْب الجُهَنيُّ أنّه كان في الجيش الّذين كانوا مع عليّ ـ رضي الله عنه ـ الّذين سَارُوا إلى الخوارج ، فقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ :

" أيُّها النّاس ، إنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : يَخْرُجُ قومٌ من أمّتي يقرؤون القرآن ليس قراءتُكم إلى قراءتهم بشيء ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء ، يقرؤون القرآن يحسبون أنّه لهم وهو عليهم ، لا تُجاوزُ صلاتُهم تراقيَهُم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السَّهْمُ من الرَّمِيَّة ، لو يعلم الجيشُ الّذين يُصيبونهم ما قُضي لهم على لسان نبيِّهم ﷺ لاتّكَلُوا عن العمل ، وآيةُ ذلك أنَّ فيهم رجلاً له عَضُدٌ وليس له ذراع ، على رأس عَضده مِثْلُ حَلمَة الثَّدي عليه شَعَرَاتٌ بِيضٌ . فَتذْهبونَ إلى معاوية وأهل الشَّام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريِّكم وأموالكم؟! والله إنّي لأَرْجُو أن يكونوا هؤلاء القوم ؛ فإنّهم قد سفكوا الدَّم الحرام ، وأغاروا في سَرْح النّاس، فسيروا على اسم الله .

قال سلمة بن كُهَيْل : فَنَزَّلني زيد بن وهْب منزلاً حتَّى قال : مررنا على قَنْطرة فلمّا التقينا وَعَلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الرَّاسبي ، فقال لهم : ألقُوا الرِّماح وسُلّوا سيوفكم من جُفُونها فإني أخافُ أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حَرُوراء ، فرجعوا فَوَحَّشُوا برماحهم وسَلُّوا السيوفَ وشَجَرَهُم النَّاس برماحهم ، قال : وقُتِل بعضُهم على بَعْضٍ وما أصيب من النَّاس يومئذ إلا رجلان ، فقال علي ـ رضي الله عنه ـ : التمِسُوا فيهم المُخْدج ، فالتمسوه فلم يجدوه ، فقام علي ـ رضي الله عنه ـ بنفسه حتى أتى ناساً قد قُتِل بعضُهم على بعض ، قال : أخّرُوهم فوجدوه ممّا يلي الأرض ، فكبّر ثمّ قال : صدق الله وبلّغ رسُولُه ، قال : فقام إليه عبيدة السَّلمانيُّ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، اللهَ الذي لا إله إلا هو لسَمِعْتَ هذا الحديث من رسول الله ﷺ فقال : إي والله الذي لا إله إلا هو حتّى استحلفه ثلاثاً وهو

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٤/ ج٧/ ص١٧٤) كتاب الزّكاة .

يحلف له "[1].

ومن دلالات الحديث أنّ علياً ـ رضي الله عنه ـ كان عنده عِلْمٌ من النَّبيِّ ﷺ فيما يتعلّق بقتال الخوارج وعلاماتهم ، وكان عنده علم بأنّه مقتول وأنّ قاتله أشقى القوم .

وفي الحديث الكَفُّ عن قتال من يعتقد الخروج على الإمام ما لم يناصبه القتال ، وما لم يسفك الدّم الحرام ، لقول عليّ : " فإنّهم قد سفكوا الدَّم الحرام " وفيه كراهة عليّ لقتال أهل الشّام ورغبته في قتال الحروريّة لأنّهم وراء كُلِّ شَرٍّ ، فلا يستبعد أن يكون لهم يد في قتل عثمان، وإيقاع الفتنة في الجمل وصفّين ، وآية ذلك رفضهم التّحكيم في صفّين الّذي فيه حقن لدماء المسلمين ، وإصرارهم على مواصلة قتال أهل الشّام خشية أن يصطلح الفريقان على دمائهم ، بعد أن فُضِحَ أمرُهم وظهر من أفعالهم وأقوالهم ما أخبر به النَّبيُّ ﷺ .

وورد في علاماتهم الّتي يُعْرفون بها أنّهم قوم يحلقون رؤوسَهم ويتيهون عن الصَّواب ولا يهتدون الطّريق الحقّ ، أخرج مسلم عن سهل بن حُنَيْف عن النَّبيِّ ﷺ ، قال : " يتيهُ قومٌ قِبَلَ المشرق مُحَلَّقَةٌ رؤوسُهم "[2].

وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ في حياته أنّ علياً سيقاتلهم ، أخرج أحمد بسند صحيح عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ ، قال : قال رسول الله ﷺ : " إنّ منكم مَنْ يُقاتل على تأويله كما قاتلتُ على تنزيله ، قال : فقام أبو بكر وعمر ، فقال : لا ، ولكن خاصفُ النَّعل ، وعليّ يخصف نعله "[3].

ووردت لهم علامات أُخَر ، والكتاب ليس موضوعاً لاستقصائها ، أمّا الّذي أحدثه هؤلاء حتّى قاتلهم عليّ ، فزيادة على ما تقدّم ذكره ذهبوا إلى إكْفَارِ الصحابة وإكفارِ من لا يعتقد معتقدهم وأنّه مباح الدّم والمال ، وأنّه خالد مخلّد في النّار ، وانتقلوا من القول إلى الفعل فقتلوا الصَّحابيَّ الجليلَ عبد الله بن خبّاب بن الأرتّ ، وكان والياً للخليفة عليّ على بعض

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٤/ ج٧/ ص١٧١) كتاب الزّكاة .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٤/ ج٧/ ص١٧٥) كتاب الزّكاة .

(٣) أحمد " المسند " (ج١٠/ ص١٠٨/ رقم١١٢٢٨) .

تلك البلاد ، وقتلوا معه سريّته (امرأته) وهي حُبْلى بعد أن بقروا بطنها عن ولد لها ، فقد أخرج أحمد عن حُمَيْدِ بْن هلال عَنْ رَجُـل مِنْ عَبْدِ القيس كَانَ مَعَ الْخَوَارِجِ ثُـمَّ فَارَقَهُمْ قَالَ :

"دَخَلوا قَرْيَةً فَخَرَجَ عَبْدُ الله بْنُ خَبَّاب ذَعِـرًا يَجُرُّ رِدَاءَهُ ، فَقَالوا : لَمْ تُرَعْ ؟ قَالَ : وَالله لَقَدْ رُعْتُمُونِي ، قالوا : أَنْتَ عَبْدُ الله بْنُ خَبَّابٍ صَاحِبُ رَسُولِ الله ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَلْ سَمِعْتَ مِنْ أَبِيكَ حَدِيثاً يُحَدِّثهُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ تُحَدِّثنَاهُ ؟ قَالَ : نَعَم سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ فتنة الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ القائم ، وَالقائم فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الماشي ، والماشي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي ، قَالَ : فَإِنْ أَدْرَكتَ ذاك فَكُنْ عَبْدَ الله المَقْتُولَ ، قَالَ أَيُّوبُ : ولا أعلمه إلا قَالَ : ولا تَكُنْ عَبْدَ الله الْقَاتِلَ ، قالوا : أأنتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ أَبِيكَ يُحَدِّثه عَنْ رَسُول الله ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَقَدَّمُوهُ عَلَى ضَفَّةِ النَّهر؛ فَضَرَبُوا عُنقه فَسَالَ دَمُهُ كَأَنَّهُ شِرَاكُ نَعْل مَا ابْذَقَرَّ[1] ، وَبَقَرُوا أُمَّ ولده عَمّا فِي بَطْنِهَا "[2].

وهذا أوّل أمرهم ، فطلب منهم عليّ أن يسلّموه قتلة عبد الله بن خبّاب فأبوا ، وقالوا : كلّنا قتله ، فأرسل إليهم يناشدهم فلم تزل رُسُلُه تختلف إليهم حتّى قتلوا رسوله ، فقاتلهم عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ فقتلهم ، ثمّ اختفوا في خلافته وأضمروا أن يقتلوه سرّاً ، فأرسلوا إليه رجلاً من شرّ ما أظلّته السّماء وأقلّته الغبراء ، وهو عبد الرّحمن بن ملجم أشقى النّاس ، فكان أن قتله وهو يصلّي الفجر.

فلمّا آلت الخلافة إلى الحسن وصالح بعد ذلك معاوية ثارت منهم جماعة فأوقع بهم معاوية ـ رضي الله عنه ـ بجيشه في النّجيلة ، فظلّوا مختفين في زمان معاوية وابنه يزيد ، ثمّ توسَّعُوا بعد ذلك في معتقدهم الفاسد ، فحكموا بكفر من يعتقد معتقدهم إذا لم يخرج لمقاتلة المسلمين وسبيهم ونهبهم ، وأبطلوا رجم المحصن ، وقالوا بقطع يد السّارق من الإبط ، وأوجبوا الصّلاة على الحائض في حال حيضها ...

---

(١) مَا ابْذَقَرَّ : ما انقطع وما تفرّق.

(٢) أحمد " المسند "(ج١٥/ ص٣٩٢/ رقم٢٠٩٦٢) وإسناده ضعيف لجهالة الرّاوي الأعلى ، وأخرج نحوه ابن أبي شيبة بسند صحيح في " مصنّف ابن أبي شيبة " (م١٥/ ص٣١٠/ رقم١٩٧٤٢) كتاب الجمل .

قَاتِلُ عليّ ـ رضي الله عنه ـ الأشقى !

مرض أمير المؤمنين عليّ ـ رضي الله عنه ـ ذات يوم ، فجاءه أبو سنان الدّؤلي يعوده وقد تخوّف عليه ، لكنّ الخليفة لم يتخوّف على نفسه ؛ لأنّ النَّبيَّ ﷺ أخبره بأنّه سيقتل مظلوماً، وأنّ قاتله أشقى النّاس ، فقد أخرج الحاكم عن زيد بن أسلم ، أنّ أبا سنان الدّؤلي حدّثه ، أنّه عاد عليّاً ـ رضي الله عنه ـ في شكوى له أشكاها ، قال :

" فقلتُ له : لقد تخوّفنا عليك يا أمير المؤمنين في شكواك هذه ، فقال : لكنّي والله ما تخوّفتُ على نفسي منه ، لأنّي سمعتُ رسول الله ﷺ الصّادق المصدوق ، يقول : إنّك ستُضْربُ ضربة ها هنا ، وضربة ها هنا ـ وأشار إلى صدغيه[1] ـ فيسيل دمها حتّى تختضب لحيتُك ، ويكون صاحبها أشقاها ، كما كان عاقر النّاقة أشقى ثمود "[2].

وأخرج أحمد بسند صحيح عن زيد بن وهب ، قال : " قدم عليٌّ على قوم من أهل البصرة من الخوارج ، فيهم رجلٌ يُقالُ له الجَعْد بن بَعْجَة ، فقال له : اتّق الله يا عليّ ، فإنّكَ ميّت ، فقال عليٌّ : بل مقْتُولٌ ، ضربةٌ على هذا تَخْضِبُ هذه[3] عَهدٌ معهود ، وقضاء مَقْضيّ ، وقد خاب من افترى ، وعاتبه في لباسه ، فقال : ما لكم وللّباس ؟ هو أبعدُ من الكِبْر ، وأجْدر أن يَقْتدي بي المسلم "[4].

ولمّا ضرب ابن ملجم عليّاً الضّربة بالكوفة سنة أربعين ، قال عليّ : " افعلوا به كما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل برجل أراد قتله ، فقال : اقتلوه ثمّ حَرِّقُوه "[5].

---

(١) الصّدغ : ما بين العين إلى شحمة الأذن.

(٢) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص١١٣) كتاب معرفة الصّحابة . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرّجاه . وسكت عنه الذّهبي . وأخرج نحوه ابن سعد في " الطّبقات الكبرى " (م٣/ ص٣٥) بإسناد مرسل ضعيف عن عبيد الله ، لكنّ الحديث صحيح.

(٣) يعني لحيته من رأسه .

(٤) أحمد " المسند " (ج١/ ص٤٧٢/ رقم ٧٠٣) .

(٥) أخرجه أحمد بسند صحيح عن أبي تَحْيى " المسند " (ج١/ ص٤٧٨/ رقم٧١٣) .

وعبد الرحمن بن ملجم المرادي ، قاتل عليّ ، كان مع عليّ في صفّين ، ثمّ كان منه ما كان ، وفعل ما فعل ، فعليه من الله ما يستحقّ !

عليّ ـ رضي الله عنه ـ شذرات من مناقبه

عليّ بن أبي طالب القُرشيّ الهاشميّ ، أبو الحسن ، جَمُّ المناقب ، وُلِد قبل البعثة بعشر سنين ، وتربّى في حجر النَّبيِّ ﷺ ولم يفارقه ، وشهد معه المشاهد كلّها إلاّ غزوة تبوك فقد استخلفه[1] ﷺ في المدينة ، وقد ثبت في الصّحيحين أنّ النَّبيَّ ﷺ قال له بسبب ذلك : " أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى "[2].

وقد استدلّ أقوام بهذا الحديث على إثبات الخلافة لعليّ واستحقاقه لها بعد النَّبيِّ ﷺ دون غيره من سائر الصّحابة ، ولا حجّة لهم في هذا الحديث في إثبات شيء من هذا ، لأنّ هارون المشبّه به كان خليفة لموسى ـ عليه السّلام ـ في حياته لا بعد مماته ، فقد مات هارون قبل موسى بسنين مدداً باتّفاق ، وإنّما قال له ﷺ ذلك بعد أن كره عليّ أنْ يخلف النَّبيَّ في النّساء والصّبيان ، وقال ـ رضي الله عنه ـ للنَّبيِّ ﷺ : " تخلّفني في النّساء والصّبيان ؟! فقال ﷺ : أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبيّ بعدي "[3].

والحديث ليس فيه إلاّ مَنقبةٌ لعليّ ـ رضي الله عنه ـ فقد جعله بمنزلة هارون من موسى في الخلافة في حياته . وقد وَلَّد المولّدون لعليّ ـ رضي الله عنه ـ من المناقب ما هو في غنى عنها ، وأوّلوا ما صحّ من مناقبه تأويلاً غير سائغ خالفوا فيه الكتاب والسّنّة وإجماع الأمّة .

وقد صحَّ إيماء النَّبيِّ ﷺ إلى خلافة أبي بكر في غير حديث ، منها ما رواه الحاكم عن

---

(١) استخلفه : أي خلَّفه على المدينة ليدير شؤون النّاس .

(٢) البخاري " صحيح البخاريّ " (م٢/ ج٤/ ص٢٠٨) كتاب أحاديث الأنبياء ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٥/ ص١٧٥) كتاب فضائل الصّحابة .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٥/ ص١٧٥) كتاب فضائل الصّحابة .

عبد الرّحمن بن أبي بكر ، قال : قال رسول الله ﷺ : " ... يأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر "[1].

وأوضح من ذلك قول النَّبيِّ ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ : " بل أنا وارأساه ! لقد هَمَمْتُ أو أردت أن أُرْسِلَ إلى أبي بكر وابنه فأعْهَدَ أن يقول القائلون أو يَتَمنَّى المتمنّون ، ثمّ قلتُ يأبى الله ويدْفَعُ المؤمنون أو يدْفعُ الله ويأبى المؤمنون "[2].

وبهذا الحديث الشّريف يُعْرف فضل الصِّدِّيق والصِّدِّيقة ، فقد أراد النَّبيُّ ﷺ أن يستميل قلبها ببيان عزمه على أن يعهد بالخلافة لأبيها خشية تمني المتمنين، والحديث من دلائل النُّبوَّة ؛ فقد وقع ما أخبر به ﷺ من أنّ الله يأبى إلاّ خلافة أبي بكر ، ويدفع المؤمنون خلافة غيره .

ومثله ما أخرج مسلم عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ في مرضه : " ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتّى أكتب كتاباً فإنّي أخاف أن يتمنّى مُتمنٍ ، ويقول قائل : أنا أَوْلى ويأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر "[3].

ومن صحيح مناقب عليّ ـ رضي الله عنه ـ قوله ﷺ يوم خيبر : "لأعطينّ هذه الرّاية رجلا يحبُّ الله ورسوله "[4] فأعطاه إيّاها ، فثبتت بذلك محبَّةُ الله تعالى له ومحبَّةُ رسوله ﷺ .

وقد أفرد النّسائي ـ رحمه الله ـ كتاباً في مناقب عليّ ـ رضي الله عنه ـ سمّاه " خصائص أمير المؤمنين عليّ " وقد حقّق هذا الكتاب العلاّمة أبو إسحاق الحويني وغيره ، وحكم على صحيحه وضعيفه .

ويكفي علياً ـ رضي الله عنه ـ أنّ النَّبيَّ ﷺ توفّي وهو راض عنه ، وهو زوج ابنته فاطمة

---

(١) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص٤٧٧) كتاب معرفة الصّحابة ، وقال الّذهبي في تلخيص المستدرك: إسناده صحيح .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص ١٢٦) كتاب الأحكام .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٨/ ج١٥/ ص١٥٥) كتاب فضائل الصّحابة .

(٤) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٥/ ص١٧٧) كتاب فضائل الصّحابة .

ـ رضي الله عنها ـ ، وأحد كتّاب الوحي ، وأحد العشرة المبشرين بالجنّة، وأحد السِّتّة أصحاب الشّورى ، ورابع الخلفاء الرّاشدين ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .

معاوية ـ رضي الله عنه ـ نُبَذ من مآثره وغُرَر من فضائله

معاوية بن أبي سفيان: صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس ، أسلم قبل الفتح، وأسلـم أبوه بعـده ، وولي أمرة دمشق عن عُمَرَ بعد موت أخيـه يزيد بن أبي سفيان سنـة تسع عشرة ، واستمرّ عليها بعد ذلك ، فقد أقرّه عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، وحسبك بمن يؤمّره عمر ويقرّه عثمان ! وظلّ عليها زمان خلافة عَليٍّ ـ رضي الله عنه ـ ، ثمّ اجتمع عليه النّاس في سنة إحدى وأربعين إلى أن مات سنة ستين ، وكان مُلْكُه على الحرمين ومصر والشّام ، والعراق ، وخراسان ، وفارس ، والجزيرة ، واليمن ، والمغرب ... فَحَكَمَ العربَ والعجم ، ودام حكمه بين إمارة وخلافة أكثر من أربعين سنة متّصلة ، وعاش قرابة نصف قرن في خدمة الإسلام وأهله .

وهـو أقرب النّاس إلى رسول الله ﷺ نسبـاً بعد بنـي هاشم ، فهو يلتقي مع رسول الله ﷺ في عبد مناف .

ويكفي معاوية ـ رضي الله عنه ـ أنّه فاز بشرف صحبة النَّبيِّ ﷺ ، وروى عنه الحديث الشّريف ، وكتب له الوحي فكان أميناً على خبر السّماء ، أخرج مسلم عن أبي زُمَيل ، وهو سماك بن الوليد ، عن ابن عبّاس ، قال :

" كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ، ولا يُقاعدونه ، فقال للنَّبيِّ ﷺ ثلاثٌ أَعْطِنِيهِنَّ ، قال : نعم ، قال : عندي أحسنُ العرب وأجملُهُ أمُّ حبيبةَ بنتُ أبي سفيان أُزَوّجُكها ، قال : نعم ، قال : ومعاويةُ تجْعَلُهُ كاتباً بين يديك ، قال نعم ، قال : وتُؤَمِّرُني حتّى أُقاتِلَ الكفّارَ كما كنتُ أُقاتلُ المسلمين ، قال : نعم . قال أبو زميل : ولولا أنّه طلب ذلك من النَّبيِّ ﷺ ما أعطاه ذلك لأنّه لم يكن يُسْأَلُ شيئاً إلاّ قال نعم "(١).

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٦/ ص٦٢) كتـاب فضـائل الصّحابـة ـ رضي الله عنهم ـ.

أي أنّ أبا سفيان ـ رضي الله عنه ـ طلب من النّبيّ ﷺ أن يجعل معاوية كاتباً له ، فوافق ﷺ ، ولذلك فإنّ قلم معاوية الّذي سطر به القرآن للنّبيّ ﷺ من أشرف الأقلام ، فأبو سفيان ومعاوية يعلمان شرف الكتابة ، فهما يقرآن قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ [العلق] وقوله تعالى : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾ [القلم] فانظروا ماذا سطر معاوية ، وماذا سطر هؤلاء الّذين يجهلون على معاوية ! ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المجادلة].طُوبَى لِيَد مُعاوية الّتي كَتبَتْ الوحيَ لرسولِ الله ﷺ، وطوبى لِعَيْنَيهِ اللّتين رأَتا رسولَ الله ﷺ مُسْلمتين!

ويكفي معاوية ـ رضي الله عنه ـ شرفاً أنّه قاتل مع النّبيّ ﷺ في غزوة حنين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴿٢٦﴾ ﴾ [التّوبة] ومعاوية ـ رضي الله عنه ـ من المؤمنين الّذين أنزل الله سكينته عليهم مع النّبيّ الأمين ﷺ .

ويكفيه أنّه ممّن أنفق من قبل الفتح في حنين والطّائف وقاتل فيهما ، فاستحقّ وعد الله الجنّة ، قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد].

ويكفيه فخراً أنّه قاتل في عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ المرتدّين ،وأنّه وَلي إمرة دمشق عن عمر بعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان ، وأنّه أوّل من غزا في البحر، ففتح قبرس سنة ثمان وعشرين في خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ وكان يومئذ أميراً له على الشّام ، أخرج البخاري عن أنس بن مالك عن خالته أمّ حرام بنت مِلْحانَ ، قالت :

" نام النّبيُّ ﷺ يوماً قريباً منّي ، ثمّ استيقظ يتبسّم ، فقلتُ : ما أَضْحَكَكَ ؟ قال : أُناسٌ من أُمّتي عُرِضُوا عليّ يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأسرّة ، قالت : فادعُ الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها ، ثمّ نامَ الثّانية ، فَفَعَلَ مِثْلها ، فقالت مِثْلَ قوْلها ، فأَجابَها مثلها ، فقالت : ادْعُ الله أن يَجْعَلني منهم ، فقالَ : أنتِ من الأوّلين ، فخرجت مع زوجها عُبادة بن الصّامت غازياً أوّلَ ما رَكِبَ المسلمون البحْرَ مَعَ مُعاويَةَ ، فلمّا انصرفوا من غزْوهِم قافلينَ ،

فنزلوا الشّأمَ ، فَقُرِّبتْ إليها دابّةٌ لتركبها ، فَصَرَعَتْها ؛ فماتتْ "[1].

ويكفي معاوية ـ رضي الله عنه ـ أنّ سيرته في الجهاد في عهد ابن عمّه عثمان ـ رضي الله عنه ـ وعهد من قبله ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ذائعة مشهورة ، فقد غزا الرّوم غير مرّة ، وهذا يبين كذب من زعم أنّ عثمان ـ رضي الله عنه ـ كان يحابي قرابته ، أو أنّه كان يولّي قرابته ؛ فالّذي استعمل معاوية ـ رضي الله عنه ـ على دمشق هو الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ ، فلمّا آل الأمر إليه أقرّه عثمان ـ رضي الله عنه ـ لعلمه بفضله .

أمّا الحديث الّذي يتعلّقون به على عثمان ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال : " لو أنّ بيدي مفاتيح الجنّة لأعطيتها بني أميّة حتّى يدخلوا من عند آخرهم "[2] فهذا الحديث إسناده ضعيف لانقطاعه.

ومن أبرز أعمال معاوية ـ رضي الله عنه ـ إنشاء ديوان الخاتم ، واستحداث البريد، وتنظيم الصّوائف والشّواتي[3] ، وإنشاء مراكز لصناعة السّفن البحريّة ، والتّصدّي لثورات الخوارج ، ونشر العدل والاستقرار في الولايات الإسلاميّة ...

وكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ محبوباً في إمارته ، لعلم رعيّته بفضله وعلمه وحلمه وجهاده وعدله...ولما كانوا ينعمون به من الرَّخاء في عهده ، فهذا كلّه جعل منه أميراً محبوباً للنّاس ومحبّاً لهم ، وقد قال النّبيُّ ﷺ : " خيار أئمّتكم الّذين تحبّونهم ويُحِبُّونكم ، وتصلُّونَ عليهم وَيُصَلُّونَ عليكم ، وشرار أئمّتكم الّذين تُبْغِضونهم ويبغضونَكم وتَلْعَنُونَهُم ويلْعَنُونكم "[4].

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص٢٠٣) كتاب الجهاد والسّير ، وأخرجه البخاري في كتاب الاستئذان ، وأخرجه مسلم في " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٧/ ج١٣/ ص٥٧) كتاب الإمارة .

(٢) أحمد " المسند " (ج١/ ص٣٥٢/ رقم٤٣٩) .

(٣) أي تنظيم الجيوش الّتي كانت تغزو الدّولة البيزنطيّة صيفاً وشتاءً .

(٤) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٦/ ج١٢/ ص٢٤٥) كتاب الإمارة .

ومما يشهد بحسن سياسته مع رعيّته مقولته المشهورة : " لا أضعُ سيفي حيث يَكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أنّ بيني وبين النّاس شعرة ما انقطعت . قيل : وكيف ذاك ؟ قال : كنْتُ إذا مَدُّوها خلَّيْتُها ، وإذا خلُّوها مددتُها "(١).

وممّا يشهد بعدله وإنصافه أنّ قوماً كانوا عند الأعمش فذكروا عمر بن عبد العزيز وعدله ، فقال الأعمش : " فكيف لو أدركتم معاوية ؟ قالوا : يا أبا محمّد ، يعني في حلمه ؟ قال : لا والله ، ألا بَلْ في عدله "(٢).

وقد ثبت عن الزّهري أنّه قال : " عمل معاوية بسيرة عمر بن الخطّاب سنين لا يَخْرم منها شيئاً "(٣) فيا ليت لنا رجالاً ملء الأرض من أمثال معاوية ـ رضي الله عنه ـ ولكن :

هيهات لا يأتي الزمان بمثله ... إنَّ الزمان بمثله لبخيل !

وممَّا يشهد بعلمه وفقهه ، ما أخرج البخاري عن ابن أبي مُلَيْكة ، قال : " أوتَرَ مُعاوية بعد العِشاء بركعة وعنده مولى لابن عبّاس ، فأتى ابنَ عبّاس ، فقال : دعْه فإنّه قد صحبَ رسولَ الله ﷺ "(٤).

وما أخرجه البخاري عن ابن أبي مُلَيْكة ، قيل لابن عبّاس : " هل لكَ في أمير المؤمنين مُعاوية ، فإنّه ما أوتر إلاّ بواحدة ، قال : إنّه فقيه "(٥) وحَسْبُ مُعاوية شهادة ابن عبّاس له بالصّحبة والفقه ، ولله درّ القائل :

عاب التّفقّه قومٌ لا عقولَ لهم ... وما عليه إذا عابوه من ضَرَرِ

ما ضرّ شمس الضّحى والشّمس طالعة ... أن لا يَرى ضوءها مَنْ كان ذا بصرِ

(١) ابن قتيبة " عيون الأخبار " (م١/ ص٦٢) .

(٢) أبو بكر الخلال " السّنّة " (ج٢/ ص٤٣٧/ رقم٦٦٧).

(٣) أبو بكر الخلاّل " السّنّة " (ج٢/ ص٤٤٤/ رقم٦٨٣) وقال المحقق : إسناده صحيح .

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص٢١٩) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٥) المرجع السَّابق .

وانظر إلى هذه الفوائد في الحديثين السّابقين ، ففيهما وصف لمعاوية بالفقه والصّحبة ، وفيهما زجر للمُنْكِرِ على معاوية في اجتهاده ، فلا مسوّغ للإنكار عليه إذ لا يفعل شيئاً إلا بمستند وبرهان فهو أهل للاجتهاد . وبهذا يُعرف عذر معاوية في صفّين إذ أنّه من أهل الفقه والاجتهاد ، وقد وافقه جمع من الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وتابعوه في اجتهاده ووقفوا معه ، فهو أعلم بحُكْمِ الله تعالى فيما جرى ، وينتج عن ذلك عذرُه كما تقرّر .

أمّا الفائدة الّتي عَزَّ على كثير التنبّه إليها وقَلَّ مَنْ يلحظها ، فهي أنّ هذه الشّهادة جاءت من حبر هذه الأمّة وترجمان القرآن عبد الله بن عبّاس ، الّذي لا يُتَّهم بمحاباة معاوية ، فهو من أهل البيت والتّابعين للخليفة عليّ ـ رضي الله عنه ـ فهو ابن عمّه ، والقائم على نصرته في حياته وبعد استشهاده ، لكنّ ذلك كلّه لم يمنعه من قول الحقّ الّذي تَربَّى عليه في مدرسة النّبيِّ محمّد ﷺ .

وتأمّل هذا الدّعاء من النَّبيِّ ﷺ لمعاوية ـ رضي الله عنه ـ ، فقد أخرج أحمد بسند صحيح عن عبد الرّحمن بن أبي عميرة الأزدي ، عن النَّبيِّ ﷺ أنّه ذَكَرَ معاوية ، وقال " اللهمّ اجعله هادياً مهديّاً ، واهْدِ به "[1].

وروي عن أبي الدّرداء ـ رضي الله عنه ـ ، قال : " ما رأيتُ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا ، يعني معاوية "[2].

ويكفي الّذين يلمزونه إثماً أنّهم يردّون كلام الله ؛ لأنّ الله تعالى أثنى عليه فيمن أثنى عليهم ، فقال : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ...﴿٢٩﴾ ﴾[الفتح] فالصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ هم المُثنى عليهم في التّوراة والإنجيل والقرآن ، ومعاوية ـ رضي

---

(١) أحمد المسند " (ج١٣/ ص٥٣٩/ رقم١٧٨٢١) وإسناده صحيح ، وأخرجه التّرمذي في " الجامع الكبير " (م٦/ ص١٥٧/ رقم٣٨٤٢) أبواب المناقب . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وهو في "صحيح سنن التّرمذي " للألباني (ج٣/ ص٢٣٦/ رقم٣٠١٨) .

(٢) الذّهبي " سير أعلام النبلاء " (ج٣/ ص١٣٥) وقال المحقّق : رجاله ثقات ، وذكره المحدّث ابن حجر الهيثمي في " تطهير الجنان " (ص٢٤) وقال : رجاله رجال الصّحيح إلاّ واحدا منهم فثقة .

الله عنه ـ واحد منهم ، فمن حقّه علينا ـ رضي الله عنه ـ أن نذكره كما ذكره الله في كتابه ، وأن نثني عليه كما أثنى الله على أصحاب نبيّه محمّد ﷺ ، والآيات في الثّناء عليه وعلى سائر الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ كثيرة ، وليس هذا موضع إحصائها ولا مكان استقصائها .

ومعاوية ـ رضي الله عنه ـ خال المؤمنين ، فأخته أمّ المؤمنين رملة بنت أبي سفيان (أمّ حبيبة) فهو أخو أمّ حبيبة زوج النّبيِّ ﷺ ، والّذي لا يعرف فضل معاوية ـ رضي الله عنه ـ وقدره ، فذلك عيبٌ فيه لا في معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، ولعمري قد أحسن من قال :

والنّجمُ تستصْغرُ الأبْصَارُ رُؤيَتَهُ والذّنبُ للطرفِ لا للنّجمِ في الصِّغَرِ

إحياء معاوية للسُّنن

كان معاوية ـ رضي الله عنه ـ حريصاً على إقامة سُنَن الإسلام وشرائعه وشعائره ، فمن ذلك أنَّه قدم المدينة المنوَّرة ، ويظهر أنّه سمع اختلافاً على صوم يوم عاشوراء ، فخطب في جمعهم ، وأعلمهم بسنَّة النّبيِّ ﷺ وأنَّ صيامه ليس واجباً ولا محرَّماً ، ولا مكروهاً ، ولم يُنْكر عليه أحد :

أخرج البخاري عن حُمَيْد بن عبد الرَّحمن أنَّه سمع معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ يوم عاشُوراء عام حجَّ(1) على المنبر يقول : " يا أهل المدينة أين علماؤُكم ؟! سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : هذا يومُ عاشُوراءَ ولم يُكتَبْ عليكم صيامُه وأنا صائم فمن شاء فَليصُمْ، ومن شَاءَ فليُفْطِرْ "(2).

إنكار معاوية للمنكر ومحاربته للبدع

كان معاوية كغيره من ولاة الأمر من قبله في عنايته بإنكار المنكر والحضّ على إزالته ، دخل ـ رضي الله عنه ـ المدينة في آخر حجّة حجَّها سنة إحدى وخمسين ، فأنكر على علمائهم

---

(1) يظهر أنّ المراد آخر حجّة حجّها .

(2) البخاري " صحيح البخاري " (م1/ ج2/ ص250) كتاب الصّوم ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م4/ ج7/ ص8) كتاب الصيام .

غفلتهم عن تحريم فِعْلِ الواصِلَةِ والمستوصلة ، ووقف على المنبر خطيباً وأخذ من غلام له كبَّة من شعر ، وأعلمهم بأنَّه يحرم على نسائهم تقليد نساء اليهود في وصل الشَّعر :

أخرج الشّيخان عن حُمَيْد بن عبد الرَّحمن أنَّه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حجَّ ، وهو على المنبر ، وتناول قُصَّة من شَعْر كانت بيد حَرَسيّ يقول : " يا أهل المدينة ، أيْن علماؤكم سمعْتُ رسول الله ينهى عن مثل هذه ، ويقول : إنّما هلكت بنو إسرائيلَ حيْن اتَّخذ هذا نساؤُهُم "[1].

وأخرج مسلم عن سعيد بن المُسَيَّب ، قال : " قَدِمَ معاوية المدينة فخطبنا وأخرج كُبَّةً من شَعَر ، فقال : ما كنْتُ أرى أنَّ أحداً يفْعَله إلاّ اليهود ، إنَّ رسول الله ﷺ بلغَه فسَمَّاه الزُّورَ "[2].

معاوية يُجرِّئ النَّاس على التَّواصي بالحقِّ

كان معاوية ـ رضي الله عنه ـ يتمثّل أخلاق الخلفاء الرّاشدين من قبله ، ومن ذلك تشجيعه الرَّعيَّة على قَوْلِ الحقِّ وقبوله ، وتقويم الاعوجاج ، ولو كان في مواجهة الخليفة عينه، فقد خَطَبَ معاوية يوم جمعة فتكلّم بشيء ممَّا ينكره النَّاس فردَّ عليه أحدهم فسرَّه ذلك ، ويشهد لذلك ما روي عن أبي قبيل ، عن معاوية بن أبي سفيان أنّه صعد المنبر يوم القيامة ، فقال عند خطبته : " إنَّما المالُ مالنا ، والفيءُ فيئنا ، فمن شِئْنا أعطيناه ، ومن شِئْنا منعناه ! فلم يُجِبْه أحد ! فلمَّا كانَ في الجمعة الثَّانية ، قال مثل ذلك فلم يُجِبْه أحد ! فلمّا كان في الجمعة الثَّالثة قال مثل مقالته ، فقام إليه رجلٌ ممَّن حَضَرَ المسجد ، فقال : كلاّ ، إنَّما المالُ مالنا ، والفيء فيئنا، فمن حَالَ بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا ! فنزلَ معاوية ، فأرسل إلى الرَّجل ، فأدخله ، فقال القومُ : هلك الرَّجل ! ثمَّ دخل النَّاس ، فوجدوا الرَّجلَ معه على السَّرير ! فقال معاوية

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النَّووي " (م٧/ ج١٤/ ص١٠٨) كتاب اللباس . والبخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص٦٢) كتاب اللباس .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النَّووي " (م٧/ ج١٤/ ص١٠٩) كتاب اللباس والزِّينة.

للنَّاس : إنَّ هذا أحياني أحياه اللهُ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : سيكون بعدي أمراء ، يقولون ولا يُرَدُّ عليهم يتقاحمون في النَّار .. . الحديث[1] .

وإنِّي تكلَّمتُ أوَّل جمعة ، فلم يَرُدَّ عليَّ أحدٌ ، فخشيتُ أن أكون منهم ، ثمَّ تكلَّمتُ في الجمعة الثَّانية ، فلم يردَّ عليَّ أحد ، فقلتُ في نفسي إنِّي من القوم ! ثمَّ تكلَّمتُ في الجمعة الثَّالثة، فقام هذا الرَّجلُ ، فردَّ عليَّ ، فأحياني ، أحياه اللهُ "[2].

وهذا يذكِّر بقول النَّبيِّ ﷺ لمّا جاءه رجل يتقاضاه فأغلظ له فهمَّ به أصحابه ، فقال النَّبيُّ ﷺ : " دعُوهُ ؛ فإنَّ لصاحب الحقِّ مقالاً "[3].

ويذكِّر بقول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ : " وإن زغتُ فقوِّموني " ويذكِّر بقول عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ : " لا خيرَ فيكم إنْ لم تقولوها ، ولا خير فينا إنْ لم نسْمَعْها " وقوله: " رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي ".

ماذا قال معاوية عند موته ؟!

لمّا حضرت معاوية الوفاة سنة ستّين، قال ـ رضي الله عنه ـ : " ليتني كنتُ رجلاً من

(١) الحديث رواه أبو يعلى بسند حسن بلفظ : " يكون بعدي أمراء فلا يُردُّ عليهم ، يتهافتون في النَّار ، يتبع بعضُهم بعضاً "، انظر " مسند أبي يعلى " (ج١٣/ ص٣٦٧/ رقم٧٣٧٧) وأورده أبو يعلى مطولاً كما في " مجمع الزَّوائد " (ج١٣/ ص٣٧٣/ رقم٧٣٨٢) وذكره الألباني في "سلسلة الأحاديث الصّحيحة " (م٤/ ص٣٩٨/ رقم١٧٩٠) المكتبة الإسلاميّة ، ط٣. وقال الألباني : ذكره أبو يعلى في مسنده من طريق هشام عن ابن عقبة ، عن معاوية ، وهذا إسناد حسن لولا أنّ ابن عقبة لم أعرفه، لكنّه قد توبع . وذكر الحديث الحافظ ابن حجر في " المطالب العالية " (م١٧/ ص٥٨٤/ رقم٤٣٤٨) وعزاه إلى أبي يعلى ، وأخرجه الطّبراني في " المعجم الكبير " (ج١٩/ ص٣٤١/ رقم٧٩٠) .

(٢) الهيثمي " مجمع الزوائد " (م٥/ ص٢٣٦) ، وقال الهيثمي : رواه الطّبراني في الكبير والأوسط، وأبو يعلى، ورجاله ثقات .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص٦٢) كتاب الوكالة . ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٦/ ج١١/ ص٣٨) كتاب المساقاة .

قريش بذي طوى[1] ولم آلُ من هذا الأمر شيئاً ، وكان عنده قميص رسول الله ﷺ وإزاره ورداؤه ، وشيء من شعره ، فقال : كَفِّنوني في قميصه ، وأدرجوني في ردائه ، وأزّروني بإزاره ، واحشوا منخري وشدقي بشعره ، وخلُّوا بيني وبين أرحم الرّاحمين"[2].

عذر أبي سفيان وزوجه هند ـ رضي الله عنهما ـ

وهناك من يتحامل على أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ ويغري العوامّ بلمزه كونه قَاتَلَ النَّبيَّ ﷺ في بدر وأحد، فما انفكّ أقوام يقولون : رَأَسَ أبو سفيان في قريش بعد بدر ، وسار بهم في أُحد ، فألحق بالنَّبيِّ ﷺ ما ألحق من الأذى من جرح وجهه الشَّريف وكسر رَباعيَته وتهشيم البيضة على رأسه ، ثمّ ساق الأحزاب يوم الخندق ... وقد أجاب عن ذلك علماؤنا ما حاصله : أنّ ذلك كان قبل إسلامه ، وإسلامه جَبَّ ما قبله ، قال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال] فهذه الآية نزلت في أبي سفيان وأصحابه ، وهو فيمن أنزل الله فيه : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الممتحنة].

أمّا الأذى الّذي لحق بالنَّبيِّ ﷺ في أُحد فلم يَتَولَّ ذلك أبو سفيان بنفسه ، ولم يقل أحد من الثّقات أنّ أبا سفيان باشر ذلك ، وإنّما قال ابن الجوزي : " وكان الّذي تولَّى أذاه ﷺ عمرو بن قَمِئة ، وعتبة بن أبي وقّاص ، وقيل : إنّ عبد الله بن شهاب الزّهريّ ، عمّ محمّد بن مسلم بن شهاب الزّهريّ ، هو الّذي شَجَّهُ "[3].

وما أصابه ﷺ من الأذى لا يُعارض قول الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] إذ أنّ العصمة الّتي وُعِدَ بها النَّبيُّ ﷺ عصمةُ النّفس من القتل لا

---

(١) ذو طوى : هو ما بين الثّنيّة الّتي يهبط منها إلى مقبرة مكّة المسمّاة بالمعلاّة ، والثّنيّة الأخرى الّتي إلى جهة الزّاهر ، وتسمّى عند أهل مكّة بين الحجونين .

(٢) ابن الجوزي " تلقيح فهوم أهل الأثر " (ص١١٢) .

(٣) ابن الجوزي " زاد المعاد " (ج٣/ ص١٧٦)

عصمته من الأذى بالكليّة ، فقد ثبت في الصّحيحين أنّه ﷺ أوذي وأُصيب بجراحات ليعظم له الأجر ، وليتأسّى به أتباعه في الصّبر على الأذى والشِّدَّة ، وكانت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ يومها تغسل جرحه وعليّ ـ رضي الله عنه ـ يسكب الماء ، ثمّ أخذت فاطمة قطعة من حصير فأحرقته حتّى صار رماداً وكمّدته به حتّى لصق بالجرح فاستمسك الدم ، فعن سهْل بن سعْد ـ رضي الله عنه ـ أنّه سُئل عن جُرح النّبيّ ﷺ يوْم أحد فقال :

" جُرِحَ وجْه النّبيّ وكسِرتْ رَباعِيَتُه وهُشِمَتْ البيْضَة على رأسه فكانت فاطمة ـ عليها السّلام ـ تغْسِل الدّم وعليّ ـ رضي الله عنه ـ يُمْسكُ ، فلمّا رأتْ أنّ الدَّم لا يزيد إلاّ كثرة أخذتْ حصيراً فأحرقته حتّى صار رماداً ثمّ ألزقتْه فاستمسك الدَّمُ "[1].

وقد شهد أبو سفيان (صخر بن حرب بن أميّة) مع النَّبيِّ ﷺ غزوة الطّائف ، ورُمِي يومئذ وفُقِئتْ عينُه في سبيل الله تعالى بسهم ، وشهد يوم خيبر ، وشهد اليرموك فذهبت عينُه الأخرى يومها في قتال الرُّوم [2].

قال الشّاعر أحمد محرّم :

حملْتَ أبـا سفيانَ عينَكَ فـي يـد ... بها الخيرُ في كلّ المواطنِ مَقرونُ
وجئـتَ رسـولَ الله لا الوجـهُ شـاحبٌ ... ولا العِطـفُ مُـزْوَرٌّ ولا القلـبُ مَحزونُ
تقـول لـه ... عينـي الّتـي أنـتَ نـاظـرٌ ... مَـضَتْ في سبيل الله والحافـزُ الدِّيـنُ
فقـال إذا أحببـتَ فالـردُّ مُمـكنٌ ... بِقُـدرة ربّ أمـرُهُ الكـافُ والنُّـونُ
وإلاّ فأخـرى عنـده إن لقيتَـهُ ... وذلـك وَعْـدٌ عنْـدَ ربّـكَ مَـضمـونُ

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص٢٢٩) كتاب الجهاد والسّير ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٦/ ج١٢/ ص١٤٨) كتاب الجهاد والسّير .

(٢) " نور اليقين " (ص١٦٤) و" الحجّة على تارك المحجّة " (ج٢/ص٥٧٠) و" الإصابة " (م٢/ ج٣/ ص٢٣٧/ رقم٤٠٤١) و" تلقيح فهوم الأثر " (ص١١١).

فآثرتَ هَذِي ثُمَّ ألقيْتَ بالّتي حَمَلْتَ وما في الحقّ أن يُؤثَرَ الدُّونُ
سَتَتْبَعُها في وقعة الرُّوم أختُها إذا حانَ منها بعد ذلكمُ الحينُ
فخيرٌ على خيرٍ ونُعمى تزيدها من الله نُعمى سِرُّها عنك مَكنونُ
هنيئاً أبا سفيانَ لا الرُّمحُ آسفٌ ولا السّيفُ مكروبٌ ولا العزمُ موهونُ
عطاؤكَ في الهيجاءِ لم يُعْطَ مثلَهُ من النّاسِ إلا صادقُ البأسِ مأمونُ[1]

وقد روى ابن سعد بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيّب عن أبيه ، قال " خَمَدَت الأصواتُ يوم اليرموك والمسلمون يقاتلون الرّوم ، إلاّ صوت رجل يقول : يا نَصَرَ الله اقترب، يا نصر الله اقترب ، فرفعتُ رأسي أنظر فإذا هو أبو سفيان بن حرب تحت راية ابنه يزيد بن أبي سفيان"[2].

وقد عاش أبو سفيان بعد ذلك صابراً محتسباً بعد أن ابتلاه الله بحبيبتيه ، قال الحافظ : "روى البغوي بإسناد صحيح عن أنس أنّ أبا سفيان دخل على عثمان بعدما عمي وغلامه يقوده "[3].

ولا يخفى أنّ الله تعالى إذا ابتلى عبده بحبيبتيه فصبر فليس له جزاء إلاّ الجنّة ، فقد قال النّبيُّ ﷺ : " إنّ الله تعالى قال : إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر عوّضتُهُ الجنّة ، يُريد عينيه "[4].

ومات أبو سفيان ـ رضي الله عنه ـ في خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، وقيل: مات في أواخرها ، وقيل غير ذلك .

وأمّا زوجه هند ـ رضي الله عنها ـ آكلةُ الأكباد بوصفهم ، فما زال أقوام يثلبونها بما كان

(١) أحمد محرَّم " ديوان مجد الإسلام " (ص٤٠٥)
(٢) ابن حجر " الإصابة " (م٢/ ج٣/ ص٢٣٨/ رقم٤٠٤١) وقال الحافظ : إسنادها صحيح .
(٣) ابن حجر " الإصابة " (م٢/ ج٣/ ص٢٣٨/ رقم٤٠٤١)
(٤) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص٤) كتاب المرضى .

منها قبل إسلامها ، كونها شهدت أحداً وحرّضت على قتل حمزةَ عمِّ النَّبيِّ ﷺ بعد أن شَقَّ عليها قَتلُ أخيها الوليد في وقعة بدر ، وبعد أن أفجعها حمزة ـ رضي الله عنه ـ بقتل عمّها شيبة، فضلاً عن مشاركته في قتل أبيها عتبة .

فأمّا هند ـ رضي الله عنها ـ فأسلمت ليلة الفتح ، وبايعت النَّبيَّ ﷺ واستغفر لها فلم يَضُرَّها ما سَلَفَ ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة] فيوم الفتح بايعت هند النَّبيَّ ﷺ على ما تقدّم في الآية الكريمة ، وهي القائلة للنَّبيِّ ﷺ لَمّا شَرَطَ على النّساء المبايعة وقال : " ولا يسرقن ولا يزنين ، قالت هند : وهل تزني الحرّة ؟! "[١].

وكانت هند ـ رضي الله عنها ـ من عقلاء النّساء ، وحديثها مع النَّبيِّ ﷺ يُفهم منه ذلك، ومن مناقبها ما أخرجه البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، قالت : " جاءتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبةَ ، قالت : يا رسولَ الله ، ما كان على ظهر الأرض من أهل خِبَاءٍ أَحَبَّ إليَّ أن يذلّوا من أهل خِبائكَ ، ثمّ ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهلُ خباءٍ أحبَّ إليّ أنْ يَعِزُّوا من أهل خِبائك . قالتْ : وأيضاً والّذي نفسي بيده قالت : يا رسولَ الله ، إنّ أبا سُفيانَ رجُلٌ مِسّيكٌ[٢]؛ فهل عليّ حرج أن أُطْعِمَ من الّذي له عِيالَنا ؟ قال : لا أراه إلاّ بالمعروف "[٣].

قال ابن حجر : " وقد كانت هند في منزلة أمّهات نساء النَّبيِّ ﷺ لأَنَّ أمّ حبيبة إحدى زوجاته بنت زوجها أبي سفيان "[٤].

---

(١) أخرجه ابن سعد بسند صحيح مرسل عن الشّعبي وعن ميمون بن مهران : " الطّبقات الكبرى لابن سعد " (م٨/ ص٩) .

(٢) مِسِّيكٌ : شحيح .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص٢٣٢) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٤) ابن حجر " فتح الباري " (ج٧/ ص١١٢) وماتت هنْد في خلافة عمر .

قلتُ : والّذين ينالون من الصّحابة ليسوا من ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾ [الحشر] ولا من الّذين ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ ... ٩﴾ [الحشر] ولا من ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ ... ٢٨﴾ [الكهف] ولا حتّى من الّذين ﴿جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ١٠﴾ [الحشر] ولا من الّذين ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ... ١٠٢﴾ [التّوبة] ، وإنّما هم بين غُلاةٍ وقُلاة في كلِّ عصر ، وجدوا أنفسهم عاجزين عن إصلاح حاضرهم فضلاً عن مستقبلهم ، فلم يجدوا سبيلاً إلى تبرير قصورهم إلاّ ازدراء ماضيهم ، وتحميله تبعة تخلّفهم عن مواكبة الأمم .

قال أحمد محرّم في إسلام هند بنت عتبة زوج أبي سفيان :

يـا هنـدُ حسبكِ مغنمـاً وكفـاكِ ... أنّ الّـذي يهـدي النُّفـوسَ هـداكِ
أقبلـت تُـرخينَ القنـاعَ حَييّـةً ... تُخفـينَ نفسَك والنّبـيُّ يـراكِ
أولـستِ هنـداً ؟ قلـتِ في خجـلٍ : بلى ... لا تخجـلي فـالله قـد عـافـاكِ
بايعـتِ أهـدى العـالمين طريقـةً ... ورضـيتِ منـه مُهَـذّباً يـرضـاكِ
مهما تَنَلْـهُ الُمحفِـظَاتُ مـن الألُـى ... جَهِلـوا فلـيس بعـاتبٍ أو شـاكِ
أعَجِبْت إذ ذَكـرَ الفـواحشَ هاديـاً ... فَنَهـى اللواتـي جِئنَـهُ ونَـهاكِ
إن تَعْجَبـي لِلْعِـرضِ يُبْـذَلُ هَيّـناً ... وهـو الحيـاةُ بأسرهـا فكـذاكِ
يـا هنـْدُ إنَّ الله أمـضى حُكمَـهُ ... فكفـاكِ سُـوءَ عذابـهِ وَوَقـاكِ

أُوتيتَ زَادَكِ مـن تُقىً وهدايـةٍ فَتَـزوّدِي سُـبحان مـن نَجّـاكِ [1]

عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ نُتَف من مآثره وطرف من مناقبه

أسْلَم ـ رضي الله عنه ـ قبل الفتح سنة ثمان ، روى عن رسول الله ﷺ ، فنال شرف الصُّحبة والرِّواية ، ولاّه رسول الله ﷺ على جيش ذات السّلاسل وأمـدَّه بأبي بكر وعمر وأبي عبيدة ـ رضي الله عنهم ـ ، ثمّ استعمله على عمان فمات ﷺ وهو أميرها . وكان عمرو ـ رضي الله عنه ـ شديدَ الحياءِ من رسُول الله ﷺ كما سيأتي بعد سطور ، فلم يكن يطيق أن يرفع طرفه إليه ﷺ حياءً منه .

وهو الّذي قاتل المرتدّين ، فقد وجَّهه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى قبيلة قضاعة فأخْضَعها ، وهو الّذي افتتح قنسرين ، وافتتح مصْر زمن الخليفة أبي بكر الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ وفتح بَلْبيس وحصنَ بابليون ، والإسكندريّة سنة عشرين للهجرة ، وبنى مدينة الفُسطاط وجعلها مركزاً لقوّاته .

وقد ولي إمرة مصر زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ وصَدْراً من خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، ثمّ وليها زمناً من جهة معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وشهد عمرو اليرموك مع خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ ، وقادَ معركةَ أجنادين المشهورة، وافتتح طرابلس الغرب ...[2].

وهذا الّذي يؤمِّره رسول الله ﷺ ، ويستعمله الخلفاء ، ويفتح كلّ هذه البلاد ، لم يسلم من الّذين لم يفتحوا إلاّ أفواههم بثلب الصَّحابة ، بعد أن نبذوا قولَ النَّبيِّ ﷺ وراء ظهورهم ، فقد قال ﷺ : " لا تسبُّوا أصحابي ، لا تسبُّوا أصحابي فوالّذي نفسي بيده لو أنَّ أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيْفَهُ "[3].

---

(١) أحمد محرَّم " ديوان مجد الإسلام " (ص٣٧٤) .

(٢) وانظر ترجمته في " الإصابة " (م٣/ ج٥/ ص٢/ رقم٥٨٧٧) و " سير أعلام النّبلاء " (ج٣/ ص٥٤).

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٦/ ص٩٢) كتاب فضائل الصّحابة ، والبخاري عن أبي سعيد الخدري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٩٥) كتاب أحاديث الأنبياء .

ولكن أين يذهب هؤلاء من قول النّبيّ ﷺ : " ثَكِلتكَ أمُّكَ ؛ وهل يَكُبُّ النّاسَ على مناخرهم في جهنَّم إلاّ حصائدُ ألسنتهم "(١).

ومن ذا الّذي يستطيع أن يقْدحَ في عمرو بن العاص بعد أن أثنى عليه رسول الله ﷺ ، فقال : " أسلم النّاسُ وآمن عمرو بن العاص "(٢) وقال ﷺ : " نِعْمَ أهل البيت أبو عبد الله ، وأمّ عبد الله ، وعبد الله "(٣).

وفي " المسند " عن عمرو بن العاص ، قال : كان فَزَعٌ بالمدينة ، فأتيْتُ على سالم مولى أبي حذيفة وهو مُحْتَبٍ بحمائل سيْفه ، فأخذْتُ سيْفاً فاحتبيْتُ بحمائله ، فقال رسول الله ﷺ : " يا أيُّها النّاسُ ، ألا كانَ مفْزَعُكم إلى الله وإلى رسوله ، ثمّ قال : ألا فعَلتُم كما فعل هذان الرّجلان المؤمنان "(٤) فعبّر النَّبيُّ ﷺ الّذي لا ينطق عن الهوى عن رضاه على عمرو بن العاص ، وشهد له بالإيمان ! فكيف نطعن فيمن يثني عليه رسول الله ﷺ ويشهد له بالإيمان ؟!

ولمّا حضرت عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ الوفاة دخل عليه ابنه عبد الله مع نفر من الصّحابة وهو في النّزع الأخير ، فلمّا رآهم حوّل وجهه إلى الجدار وأخذ بالبكاء ، أخرج مسلم عن ابن شُمَاسَة المَهريّ ، قال :

---

(١) أحمد بسند صحيح عن معاذ " المسند " (ج١٦/ ص١٨٣/ رقم٢١٩٦٢) وهو في " المسند " (ج١٦/ ص١٦٧/ رقم ٢١٩١٥) فما وقع بين الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ اللسان فيه أشدّ من السّيف !

(٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن عن عقبة بن عامر " المسند " (ج١٣/ ص٣٦٥/ رقم١٧٣٤٤) وهو عند التّرمذي في " الجامع الكبير " (م٦/ ص١٥٨/ رقم٣٨٤٤) وقال : ليس إسناده بالقويّ . ولكن حسّنه الألباني في " صحيح سنن التّرمذيّ " (ج٣/ ص٢٣٦/ رقم٣٠٢٠) .

(٣) أحمد بإسناد حسن عن عقبة بن عامر " المسند " (ج١٣/ ص٣٥١/ رقم١٧٢٩٣).

(٤) أحمد " المسند " (ج١٣/ ص٥٠٦/ رقم١٧٧٣٧) وهو في مجمع الزّوائد " (ج٩/ ص٣٠٠) وقال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال الصّحيح .

" حضَرْنا عمرو بن العاص وهو في سِيَاقَة الموت ، فبكى طويلاً وَحَوَّل وَجْهَه إلى الجدار فجعَل ابنُهُ يَقُولُ : يا أبتاهُ ، أَمَا بَشَّرَكَ رسولُ الله ﷺ بكذا ، أما بَشّركَ رَسُولُ الله بكذا ، قال : فَأَقْبَلَ بوجْهِهِ ، فقال : إنّ أَفْضَلَ ما نُعِدُّ شهادة أنْ لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدا رسول الله، إنّي قد كُنْتُ على أطْباقٍ ثلاث : لقد رأيْتُني وما أحدٌ أشدَّ بُغْضاً لرسول الله منّي ولا أَحَبَّ إليَّ أنْ أكونَ قد اسْتَمْكنْتُ منْهُ فَقَتَلتُهُ ، فلو مُتُّ على تلك الحال لكنْتُ من أهلِ النَّار ، فلمّا جَعَلَ اللهُ الإسلامَ في قلبي أَتَيْتُ النّبيّ ﷺ فَقُلتُ : ابْسُط يَمِينكَ فَلأُبَايِعْكَ ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ ، قال : فَقَبَضْتُ يَدي ، قال : مَالكَ يا عمرو ؟ قال : قلْتُ أَرَدْتُ أن أشْتَرِط ، قال : تَشْتَرِطُ بماذا ؟ قُلْتُ : أنْ يُغْفَرَ لي ، قال : أما عَلمْتَ أنّ الإسلامَ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ ، وأنّ الهجرةَ تَهْدِمُ ما كان قبْلها ، وأنّ الحَجَّ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ . وما كان أَحَدٌ أَحَبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ، ولا أجلَّ في عيني مِنْهُ ، وما كنْتُ أُطِيقُ أنْ أمْلأ عَيْنَيَّ مِنْهُ إجلالاً لهُ ، ولو سُئلْتُ أن أصِفَهُ ما أطقْتُ ؛ لأنّي لم أكنْ أملأ عَيْنَيَّ مِنْهُ ، ولو مُتُّ على تلكَ الحَال لرجوْتُ أن أكونَ من أهل الجَنّة ، ثمَّ وَلينَا أشياءَ ما أدري ما حَالي فيها ، فإذا أنا مُتُّ فلا تَصْحَبْني نائحةٌ ولا نَارٌ، فإذا دَفَنْتُموني ، فَشُنُّوا عليَّ التُّرابَ شَنّاً ، ثمَّ أقيموا حَولَ قَبْري قَدْرَ ما تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لحْمُها ؛ حتّى أَسْتَأْنِسَ بكم ، وأَنْظُرَ ماذا أراجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي "(١).

ما جرى بين الصَّحابة لا يؤثِّر في عدالتهم

ورغم ما جرى بين الصّحابة ، فإنّ ذلك لا يؤثّر في عدالتهم ، ولا يحتاج أحدهم بعد تعديل الله ورسوله لهم إلى تعديلِ أَحَدٍ من الخلق ، فقد نَصَّ النَّبيُّ ﷺ على عدالتهم ، فقال : " خير أمّتي قرني ، ثمّ الّذين يلونهم ، ثمّ الّذين يلونهم ... ثم إنّ بعْدَكم قوْماً يَشْهَدون ولا

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م١/ ج٢/ ص١٣٨) كتاب الإيمان ، وذكر نحوه الذّهبي وفي آخره أنّه قال : " ... ولكن لا إله إلاّ أنت ، وما زال يقولها حتّى مات " الذّهبي " سير أعلام النّبلاء " (ج٣ / ص ٧٧) وقال المحقّق : إسناده قويّ .

يُسْتَشْهَدون ، ويخُونُون ولا يؤتمنُون ، ويَنْذرُونَ ولا يَفُونَ ، ويظْهَرُ فيهم السِّمَنُ[1]"[2].

فشهد النَّبيُّ ﷺ بالخيْريّة لأصحابه ، ثمّ للتّابعين لهم ، ثمّ لتابعيهم، ولذلك فالطّبقة الأولى المشهود لها بالخيْريّة هي الصّحابة .

قلت : فانظر إلى من يطعن في الصّحابة من أيّ الطّبقات هو ؟! لا هو من الصّحابة ، ولا من التّابعين لهم بإحسان ، ولا من تابعيهم .

فإن قال قائل : بل هو من التّابعين ، فالطّعنُ بَدَأَ من عهدهم . قلنا : بل هو خلف سوء، وليس من التّابعين لهم بإحسان ، لأنّ التّابعين بإحسان شهد لهم النّبيُّ ﷺ بالخيْريّة كما تقدّم ، فهم في الطّبقة الثّانية ، وقد نطق القرآن بفضلهم وقرنه بفضل الصّحابة ، قال تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التّوبة].

وانظر كيف اشترط الله تعالى على التّابعين ليرضى عنهم ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ... ﴿١٠٠﴾﴾ [التّوبة] فأخرج بذلك من لم يتّبعهم بإحسان ، وانظر إلى إعجاز القرآن الكريم ، فلم يشترط الله تعالى على الصّحابة ما اشترطه على التّابعين ، فلم يستثنِ من الصّحابة أحداً ؛ لأنّ الصّحابة كلَّهم أجمعين عدول دون استثناء ، فتدبّر !

وقد أكّد النّبيُّ ﷺ في غير حديث على فضل الصّحابة ، والتّابعين ، وتابعيهم ، فقال ﷺ : " يأتي على النّاس زَمَانٌ فيَغْزُو فِئَامٌ من النّاس ، فيقولون : فِيْكُمْ مَنْ صاحبَ رسول الله

---

(١) كثرة اللّحم ، ووجه كونه مذموماً أنّه ليس خِلْقةً ، وإنّما يحصل عن التّوسع والإسراف في المأكل والمشرب فذلك مدعاة السِّمَن ، والمراد جمعهم الأموال ، وادّعاء ما ليس عندهم من الشَّرف ، وقيل غير ذلك .

(٢) " البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٨٩) كتاب أحاديث الأنبياء ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٦/ ص٨٧) كتاب فضائل الصّحابة .

ﷺ ؟ فيقولونَ لهم : نَعَمْ ؛ فَيُفْتَحُ لهُم ، ثمَّ يأتي على النّاس زمانٌ فيَغْزُو فِئامٌ من النَّاس ، فيُقالُ: هل فِيْكُم مَنْ صاحب أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فَيقُولونَ : نَعَمْ ؛ فَيُفْتَحُ لهم ، ثمَّ يأتي على النّاس زمانٌ فيَغْزُوا فِئَامٌ من النَّاس فَيُقَالُ : هلْ فيكم مَنْ صَاحَبَ مَنْ صَاحَبَ أصحابَ رسولِ الله ﷺ ؟ فيقولونَ : نَعم ؛ فيفْتَحُ لهم "(١).

والحديث فيه معجزة للنَّبيِّ ﷺ ، فقد فُتِحَ للصّحابة ، ثمّ للتابعين ، ثمَّ لتابعيهم ؛ لفضلهم . ولذلك فإنّنا لا نقبل أن يُشَكَّكَ في عدالة الصّحابة وفضلهم ، وفضل التّابعين لهم بإحسان وتابعيهم ، وكلّ من يحاول أن ينال منهم ، فهو مَفْضُولٌ يتطاول على فَاضِل ، أو مجروح يتطاول على عدْل ، أو شقيّ يتطاول على من : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ...(١٠٠)﴾ [التّوبة].

ويؤيّد الحديث المتقدّم قوله ﷺ : " خير النّاس قرني ، ثمّ الّذين يلونهم ، ثمّ الّذين يلونهم "(٢).

فلا يتقدَّم أحدٌ أيّا كان على أصحاب رسول الله ﷺ ولو بَلَغَ من الفضل الغاية ؛ ذلك أنّ شرف الصّحبة لا يعدله شرف آخر ، وقد سُئل المعافى بن عمران : " أيُّهما أفضل ، معاوية أو عمر بن عبد العزيز ؟ فغضب وقال للسّائل : أتجعلُ رجلاً من الصَّحابة مثل رجل من التّابعين ؟! معاوية صاحبه ، وصهره ، وكاتبه ، وأمينه على وحي الله "(٣).

وقال عبد الله بن المبارك : " تراب في أنف معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز "(٤).

ذلك أنّ معاوية جمع بين شرف الصُّحبة ، وشرف النَّسب ، وشرف مصاهرته للنَّبيِّ

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٨٨) كتاب أحاديث الأنبياء ، ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٨/ ج١٦/ ص٨٣) كتاب فضائل الصّحابة.

(٢) البخاريّ " صحيح البخاريّ " (م٢/ ج٤/ ص١٨٩) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٣) ابن كثير " البداية والنّهاية " (ج٨/ ص١٣٩) .

(٤) المرجع السّابق .

ﷺ ، وشرف كتابة الوحي ، وشرف الفقه بشهادة الصّحابة ، وواحدة من هذه تجعله مفضّلاً على عمر بن عبد العزيز ، فكيف إذا اجتمعت كلُّها ؟!

وقيل لأبي عبد الله : " هل يُقاسُ بأصحاب رسول الله أحد ؟ قال : معاذ الله ! قيل : فمعاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز ؟ قال : أي لعمري ؛ قال النَّبيُّ ﷺ : خير النّاس قرني"(1).

كما نصّ القرآن الكريم على عدالة الصّحابة وطهارتهم واختيار الله لهم ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا (2) لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] ، وقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ... ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح]، وقوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التّوبة] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الواقعة] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنفال]، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ... ﴿٥٩﴾ ﴾ [النّمل]، وقوله تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة] ، وقوله تعالى : ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال] ، وقوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾

---

(1) أبو بكر الخلاّل " السّنّة " (م٢/ ص٤٣٥/ رقم٦٢٢) وقال المحقّق : إسناده صحيح .

(2) ﴿وَسَطًا﴾ خياراً عدولاً. ووسط كُلّ شيءٍ خياره، ووسط العقد: أَنْفَسُه، والوسط: العَدْل والخيار، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [القلم] أي أَعْدلهم وخيرهم. وقيلَ في صِفَةِ النَّبيِّ ﷺ: إنَّه كان مِنْ أوسطِ قومه: أي خِيارِهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] .

الدّليل على أنّ الفئة الباغية لا تخرج بالبغي عن تسمية الإسلام

فإن اعتلَّ أحدهم بما جرى بصفّين ، وقال : إنّ معاوية بَغَى على عليّ ، بدليل قول النَّبيِّ ﷺ لعمّار : " وَيْحَ عمَّار تقتُله الفئة الباغية ، عمّارٌ يدعوهم إلى الله ويدعونه إلى النّار "(١) وقَاتِلُ عمار من فئة معاوية فلزم أنّهم الفئة الباغية ، كما لزم خروجهم عن العدالة.

قلنا : فإنَّ هذا أقلّ من أن نردَّ عليه ؛ ذلك أنَّ الله تعالى ، قال ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ... ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] فسمّاهم مؤمنين مع الاقتتال ، وهذا صريح على بقائهم أجمعين على الإيمان .

وقال النَّبيُّ ﷺ : " إنّ ابني هذا سيّد ، ولعلّ الله أن يُصلحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين "(٢) فَسَمَّى ﷺ الجميع مسلمين مع الاختلاف ، وهذا صريح على بقائهم كلّهم أجمعين على كمال الإسلام ؛ لأنّهم مجتهدون متأوّلون ، فهم معذورون فيما شجر بينهم .

وقال ﷺ : " لا تقوم السّاعة حتّى تقتتل فئتان دعواهما واحدة "(٣) والفئتان هما جماعة عليّ وجماعة معاوية ، والمراد بالدّعوة كما قال ابن حجر : " الإسلام على الرّاجح ، وقيل المراد اعتقاد كلّ منهما أنّه على الحقّ "(٤).

قلنا : فإن كان المراد الإسلام فقد أثبت ﷺ الإسلام لهما مع الاقتتال ، وإن كان المراد

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص٢٠٧) كتاب السّير .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص١٦٩) كتاب الصّلح .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٥٣) كتاب استتابة المرتدين .

(٤) ابن حجر " فتح الباري " (ج١٣/ ص٢٥٥) .

اعتقاد كلّ منهما أنّه على الحقّ ، فإنّ هذا يَنْشَأُ عنه عذرهما ، فكلّ منهما معذور بتأويله لأنّه متأوّل تأويلاً سائغاً عن وجه في العلم معتقداً أنّه على الحقّ ، فلا أحد منهما آثم ، بل كلاهما مأجور ؛ فلم يقع بينهما ما وقع إلاّ عن اجتهاد ، ولذلك أخبر ﷺ أنّ دعواهما واحدة ليظهرَ عذْرُهما ، فلم يكن أحدهما يقاتل الآخر وهو يظنُّ أنَّ الحقَّ ليس بيده ، ولو كان ذلك كذلك ما شهد لهما ﷺ أنّ دعواهما واحدة، وهذا ينتجُ عنه عذرهما ووجوب حسن الظّن بهما .

ويؤيّد هذا ما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدريّ عن النَّبيِّ ﷺ" في حديث ذكر فيه قوما يخرجون على فُـرْقة مختلفة يقتلهم أقرب الطّائفتين من الحقّ"[1].

قُلْتُ : وانظر إلى اسم التّفضيل " أقرب " وما يوحي إليه هذا اللفظ ، فاسم التّفضيل يدلّك على أنّ المفضَّل والمفضَّل عليه اشتركا في صفة واحدة ، وهي القرب من الحقّ ، ولكن أحدهما زاد فيها على الآخر فكان الأقرب إليه ، وهو عليّ وأصحابه لأنّهم قاتلوهم وأمكنهم الله منهم، فالحديث فيه تصريح بأنّ الطّائفتين تشتركان في صفة الحقّ وأنّ الطّائفتين مؤمنون لا يخرجون بما جرى بينهم عن الإيمان ، بل يبقون على كمال إيمانهم وعدالتهم .

فإن قال قائل : فقد حَكَمَ عليهم النَّبيُّ ﷺ بالبغي ، وأخبر أنّ عماراً يدعوهم إلى الله ويدعونه إلى النّار ؟!

فالجواب أنّ البغي ليس اسمَ ذَمٍّ وقدح وتنقيص لهم ؛ لأنّ الباغي المجتهد المتأوّل تأويلاً سائغاً غير قطعيّ البطلان معذور في اجتهاده ومأجور . ولا ريب في أنَّ الحديث حجَّة جازمة في أنَّ علياً ـ رضي الله عنه ـ كان مصيباً ، لكنّ الفئة الأخرى مجتهدة فلا إثم عليها ، والحديث فيه معجزة للنّبيِّ ﷺ لوقوع ما أخبر به ﷺ.

وقول النَّبيِّ ﷺ لعمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ " تقتلك فئة باغية"[2] لا يفهم منه أنّ فئة معاوية تتحمّـل دمه ؛ فما جاء مطلقا في هذا الحديث الشّريف ، جاء مقيّداً في حديث آخر ـ

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٤/ ج٧/ ص١٦٨) كتاب الزّكاة .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٨/ ص٤٠) كتاب الفتن .

كما تقدّم ـ ، فقد أخرج أحمد بإسناد حسن عن أبي غادية ، قال : "قُتل عمّار بن ياسر، فَأُخْبِرَ عمرو بن العاص ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : إنَّ قاتله وسالبه في النَّار . فقيل لعمرو : فإنَّكَ تقاتله ؟ قال : إنّما قال : قاتله وسالبه"(١) فالّذي يتحمّل إثمه ووزره قاتله وسالبه ، وليس من يُقاتله .

والفئة الّتي باشرت قتله وكانت وراء قتله هي الفئة الباغية ، وهي الفئة نفسها الّتي كانت وراء إثارة الفتنة في الجمل وصفين ، ووراء كلِّ شرٍّ وبلاء . أمّا قوله ﷺ : " ويدعونه إلى النّار " فإنّ الضمير لم يُسَمَّ فاعله ، والمراد قتلته .

العفو عمّن قاتل من الصّحابة في الجمل وصفّين

ممّا لا ريب فيه أنّ للصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ فيما جرى بينهم عذر يخفى علينا ، فإن غمّ علينا معرفَتُه فإنّه يسعنا قول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : " إنَّ هذه الأمّة أمّة مرحومة ، لا عذاب عليها إلاّ ما عذَّبَتْ هي أنفسها ، قال : قلت : وكيف تعذّب نفسها ؟ قال : أما كان يوم الجمل عذاب ؟ أما كان يوم صفّين عذاب ؟ أما كان يوم النّهر عذاب ؟ "(٢).

وقول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مأخوذ من حديث النَّبيِّ ﷺ الّذي أخرجه أحمد بسند صحيح عن أبي موسى ، قال: قال رسول الله ﷺ : "إنّ أمّتي أمّة مرحومة ليس عليها في الآخرة عذاب إنّما عذابها في الدُّنيا : القتل والبلابل والزّلازل "(٣).

وعن أمّ حبيبة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : " أُريت ما يلقى أمّتي بعدي ، وسفك بعضهم دماء

---

(١) أحمد " المسند " (ج١٣/ ص٤٩١/ رقم١٧٧٠٤) .

(٢) ابن حجر " المطالب العالية " (م١٨/ ص١٩٥/ رقم٤٤٣٠) وهو في باب الإشارة إلى العفو عمّن قاتل من الصّحابة في هذه المواطن ، وقال المحقّق : صحيح بهذا الإسناد لأنّ جميع رواته ثقات .

(٣) أحمد " المسند " (ج١٤/ ص٥٤٦/ رقم١٩٥٦٦) وأخرج نحوه في" المسند " (ج١٥/ ص٢٥/ رقم١٩٦٤٠) وأخرجه الحاكم في " المستدرك " (ج٤/ ص٢٥٤) وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه . ووافقه الذّهبي .

بعض ، وسبق ذلك من الله كما سبق في الأمم قبلهم ، فسألته أن يوليني يوم القيامة شفاعة فيهم ، ففعل "(١).

والمعنى أنّ الله تعالى أَطْلَع نبيَّه ﷺ على ما ينوبُ أُمَّته بعده من نوائب وفتن ونواكب ، وأنّه مع كلّ ذلك شافعٌ مشفَّع فيهم . فإذا كان الله سيولّيه شفاعة في أمّته ، فما ظنّك بخير هذه الأمّة أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ !

أقوال بعض التّابعين فيما شَجَرَ بين الصّحابة

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة] من هداية الآية الكريمة أنَّ الأمم السَّابقة الّتي مضت إلى الدَّار الآخرة لها أعمالها ولنا أعمالنا ، وسنَّة الله أنْ يُسْأَلَ كلٌّ عن عمله لا عن عمل غيره ، ولذلك لا ينبغي لأحد من التَّابعين إذا سُئِل عن أصحاب رسول الله ﷺ المشهود لهم بالخيريَّة في القرآن والسُّنَّة أن يقول فيهم إلاّ خيراً .

قال يزيد بن بشر : " سُئل عمر بن عبد العزيز عن عليّ وعثمان والجمل وصفّين وما كان بينهم ؟ فقال : تلك دماء كفَّ الله يدي عنها ، وأنا أكره أن أغمس لساني فيها "(٢).

وسُئل ابن المبارك عن معاوية ، فقال : " ما أقول في رجل قال رسول الله ﷺ : سمع الله لمن حمده ، فقال خَلْفَهُ : رَبَّنا ولك الحمد "(٣).

وقيل لأحمد بن حنبل ما تقول فيما كان بين عليّ ومعاوية ؟ فقال أبو عبد الله : " ما أقول فيهم إلاّ الحسنى "(٤).

---

(١) الحاكم " المستدرك " (ج١/ ص٦٨) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشّيخين ولم يخرّجاه ووافقه الّذهبي .

(٢) ابن سعد " الطّبقات الكبرى " (م٥/ ص٣٩٤) و " الحجّة " (ج٢/ ص٥٦٣).

(٣) ابن كثير " البداية والنّهاية " (ج٨/ ص١٣٩).

(٤) ابن الجوزي " مناقب الإمام أحمد " (ص١٦٤) وأبو بكر الخلاّل " السّنّة " (ج٢/ ص٤٦٠/ رقم٧١٣). وقال المحقّق : إسناده صحيح .

وذُكِرَ لأحمد بن حنبل أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : " رحمهم اللهُ أجمعين ! ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري والمغيرة كلّهم وصفهم الله تعالى في كتابه ، فقال : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] "(١).

وقال ابن كثير : " وأمّا ما شجر بينهم بعده ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ ، فمنه ما وقع عن غير قصد ، كيوم الجمل ، ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفّين . والاجتهاد يخطئ ويصيب ، ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ ، ومأجور أيضاً ، وأمّا المصيب فله أجران اثنان ، وكان عليّ وأصحابه أقرب إلى الحقّ من معاوية وأصحابه ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ "(٢).

وقال ابن حجر : " واتّفق أهل السُّنَّة على وجوب منع الطّعن على أحد من الصّحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عُرِف المحقُّ منهم ؛ لأنّهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلاّ عن اجتهاد ، وقد عفا الله عن المخطئ في الاجتهاد ، بل ثبت أنّه يؤجر أجراً واحداً ، وأنّ المصيب يؤجر أجرين "(٣).

وقال أبو زرعة : " إذا رأيتَ الرّجل ينتقصُ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فاعلم أنّه زنديق ، وذلك أنّ الرّسول ﷺ عندنا حقّ ، والقرآن حقّ ، وإنّما أدّى إلينا هذا القرآن والسّنن أصحابُ رسول الله ﷺ ، وإنّما يريدون أن يجرحوا شهودنا ؛ ليبطلوا الكتاب والسّنّة ، والجرحُ بهم أولى ، وهم زنادقة"(٤).

وقال رجل لأبي زرعة : " يا أبا زُرْعة ، أنا أبغض مُعاوية ، قال : لِمَ؟ قال : لأنّه قاتل عليّ بن أبي طالب ، قال : فقال له : إنَّ ربَّ معاوية ربٌّ رحيم ، وخصم معاوية خصم كريم ،

---

(١) ابن الجوزي " مناقب الإمام أحمد " (ص١٦٤).

(٢) ابن كثير " الباعث الحثيث " (ص١٦٧).

(٣) ابن حجر " فتح الباري " (ج١٣/ ص٢٨) .

(٤) الخطيب البغداديّ " كتاب الكفاية " (ص٤٩)

فأيش[1] دخولك أنت بينهما ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ "[2].

ويُذْكَرُ عن مالك بن أنس أنّه قال : " من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ...﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] "[3].

حكم البغاة من هذه الأمّـة

عَرَفَ الفقهاءُ أحكام البغاة من هذه الأمّة ممّا شجر بين المسلمين ، كما عرفوا أحكام الخوارج والمحاربين ، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ ، قال : " شهدتُ صفّين فكانوا لا يجهزون على جريح ولا يقتلون مولّيا ولا يسلبون قتيلاً "[4].

***

(١) أَيْش : أيُّ شيء .

(٢) ابن عساكر " تاريخ مدينة دمشق " (ج٥٩/ ص١٤١) .

(٣) ابن الجوزيّ " زاد المسير " (م٧/ ص١٧٥) .

(٤) الحاكم " المستدرك " (ج٢/ ص١٥٥) كتاب قتال أهل البغي ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد في هذا الباب ، ووافقه الّذهبي ، وقال الألباني : وهو كما قالا " إرواء الغليل " (ج٨/ ص١١٤).

القسم الخامس
المبحث الأول

دفع بعض الشّبهات والطّعون عن معاوية ويزيد

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة]

دعوى أنّ معاوية نازع الحسن الخلافة

معاوية ـ رضي الله عنه ـ بَحْرٌ عـذبُ الـفُراتِ لا تكدِّرُه الدِّلاء ، واتّهامه ـ رضي الله عنه ـ بأنّه نازع الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ الخلافة إن هي إلاّ دعوى ، وما أكثر الدّعاوى الّتي ظاهرها الرّحمة وباطنها العذاب !

وأظهر ما يَردُّ هذه الدّعوى أنّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ لّما قُتل عليّ ـ رضي الله عنه ـ واسْتُخْلِفَ الحسنُ بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ سار إليه الحسنُ بكتائب لا يُرى لها طرف لعظمها وكثرتها ، فأرسل له معاوية ـ رضي الله عنه ـ رجلين من قُريش يطلُبُ منه الصّلح وحقن دماء المسلمين ، وهذا يؤكد نزعة الخير في نفس معاوية وشفقته على المسلمين ، وهذان الرّجلان هما : عبد الله بن عامر ، وعبد الرّحمن بن سَمُرة . وطلب منهما أن يُفَوِّضا الأمر إلى الحسن ، وأن يبذلا له النّصح ، وما شاء من مال وغيره ، ويرغّبانه بما يريد لرفع السّيف ، ويذكّرانه بوصيّة جَدِّه النّبيِّ ﷺ ، فقد قال ﷺ : " إنّ ابني هذا سيّد ، ولعلّ الله أن يُصلحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين "(1).

وطلب معاوية ـ رضي الله عنه ـ الصّلح يدلّ على قوة نظره في تدبير أمور المسلمين ، فهو يعلم عواقب الأمور ، ويعلم خطر هذا المسير ، فقد كان أهل الشّام يريدون أن يَسُودَهم معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وأهل العراق يريدون الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ .

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص١٦٩) كتاب الصّلح .

وقد تحقّق ما رجاه معاوية من مراسلته الحسن من وأد الفتنة ، فقد ترك الحسنُ حقّه في الخلافة تحقيقاً لقول النّبيِّ ﷺ : " ابني هذا سيّد ..." ولما لفضيلة الإصلاح وحقن الدّماء وتسكين الفتنة من الأجر والمثوبة عند الله تعالى . ولو كان معاوية كما يتقوّل عليه المتقوِّلون ما تنازل له عن الخلافة رَجُلٌ مثل الحسن ، رَجُلٌ يحمل بين جنبيه نفساً كريمة ، رجل وصفه رسول الله ﷺ بأنّه سيِّد لأنّ الصُّلح سيقع على يديه.

ولذلك صالح الحسنُ معاوية على ما صالح عليه ، واشترط على معاوية ما اشترط عليه، فوافقاه على ما شرط ، وضمنا له الوفاء من معاوية ، فاجتمع النَّاسُ على معاوية وسمِّي ذلك العام عام الجماعة .

فقد أخرج البخاري عن أبي موسى قال : سمعتُ الحسنَ يقول : " استقبل والله الحسنُ ابنُ عليّ معاوية بكتائب أمثال الجبال ، فقال عمرو بن العاصي : إنّي لأرى كتائب لا تولّي حتّى تَقْتُلَ أقرانها ! فقال له معاوية ، وكان والله خيْرَ الرّجلين : أي عمرو ، إن قَتَلَ هؤُلاء هؤُلاء ، وهؤُلاء هؤُلاء ، مَنْ لي بأمور النّاس ؟ مَن لي بنسائهم ؟ مَنْ لي بضيعَتِهم ؟ فبعثَ إليه رجلين من قُريش من بني عَبْد شمس : عبدَ الرّحمن بنَ سمُرَةَ ، وعبدَ الله بنَ عامر بن كُريز ، فقال : اذهبا إلى هذا الرّجُلِ ، فاعْرِضا عليه ، وقولا له ، واطلُبا إليه ، فأتياه ، فدخلا عليه ، فتكلّما ، وقالا له ، وطَلَبا إليه ، فقال لهما الحسنُ بنُ عليّ : إنّا بنو عبد المطّلب قد أصبنا من هذا المال ، وإنّ هذه الأمّة قد عاثتْ في دمائها .

قالا : فإنّه يعرضُ عليك كذا وكذا ، ويطلُبُ إليك وَيَسْألك ، قال : فَمَن لي بهذا ؟ قالا : نحنُ لك به . فما سألهما شيئا إلاّ قالا : نحنُ لك به ، فصالحه .

فقال الحسنُ : ولقد سمعتُ أبا بكرة يقول : رأيتُ رسول الله ﷺ على المنبر والحسنُ بنُ عليّ إلى جَنْبه ، وهو يُقْبلُ على النّاس مرّة وعليه أخرى ، ويقولُ : إنّ ابْني هذا سيّدٌ ، ولعلّ الله أن يُصْلحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"[1].

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص١٦٩) كتاب الصّلح .

وهذا الخبر فيه أنّ الحسن كان معه من العدّة والعدد ما يحقّق له الغَلَبَة ، وبذلك يعرف فساد دعوى من زعم أنّ الحسن تنازل عن الخلافة عن ضَعْف وقهر، ولم يتنازل عنها اختياراً؛ لعلمه ـ بزعمهم ـ أنّ معاوية سيقاتله على الخلافة كما قاتل أباه .

كما أنّ هذه القصّـة عَلَم من أعلام النُّبوَّة لإخبار الصّادق الأمين ﷺ عنها قبل وقوعها، وتحقّق ما أخبر به ، وفيها منقبة للحسن ـ رضي الله عنه ـ فقد ترك الخلافة لا عن عجز ولا عن قِلَّة ، وإنّما تركها لمن هو أَسْوَدُ منه رغبةً فيما عند الله تعالى ﴿وَمَا عِنـدَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٠﴾ [القصص] أخرج أبو بكر الخلاّل بسند صحيح عن جبلة بن سحيم، قال : سمعتُ ابن عمر يقول : " ما رأيتُ بعد رسول الله ﷺ أَسْوَدَ (مِن السِّيادة) من معاوية ، فقيل: ولا أبوك ؟ قال : أبي عمر ـ رحمه الله ـ خير من معاوية ، وكان معاوية أسود منه "(١).

كذلك ترجِّي النّبيّ ﷺ للإصلاح من الحسن فيه دلالة على صِحَّة نزول الحسن عن الخلافة لمعاوية ، فما نَزَلَ عنها الحسن ـ رضي الله عنه ـ إلاّ ببرهان ، وما فعل إلاّ ما أحبَّه الله ورسوله . وهذا فيه دلالة واضحة على صحّة خلافة معاوية إذ تنازل عنها الحسن تحقيقاً لرجاء النَّبيِّ ﷺ .

والرّغبة في الصّلح لم تكن عند معاوية وحده ، فقد مهّد الحسن بن عليّ للصّلح منذ أن بويع بالخلافة ، فقد اشترط عليهم قبل أن يبايعوه أن يسالموا مَنْ يُسالم ، أخرج الحاكم عن حارثة بن مضرب ، قال : سمعتُ الحسن بن عليّ يقول : " والله لا أبايعكم إلاّ على ما أقول لكم . قالوا : ما هي ؟ قال : تسالمونَ من سالمت ، وتحاربون من حاربت "(٢).

وبعد أن صالح الحسن معاوية خطبهم ، فقال : " ... وإنّ هذا الأمرَ الّذي اخْتَلَفْتُ فيه

---

(١) أبو بكر الخلاّل " السّنّة " (ج٢/ ص٤٤٣/ رقم٦٨٠) وذكره الذّهبي في " سير أعلام النّبلاء " (ج٣/ ص١٥).

(٢) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص١٧٣) كتاب معرفة الصّحابة .

أنا ومعاوية حقٌّ لامرئ وكان أحقَّ بحقِّه منِّي ، أو حقٌّ لي فتركتُه لمعاوية إرادة استضلاع المسلمين وحقن دمائهم ، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ١١١﴾ [الأنبياء] "[1].

حتّى قيس بن سعد ، وهو أحد قادة كتائب الحسن لمّا تناهى إلى سمعه خبر الصُّلح وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية سرَّه ذلك ، وخطب في أصحابه ، ورجعوا بعد ذلك فبايعوا معاوية جميعاً ، ففي " المطالب العالية " بإسناد صحيح عن حبيب بن أبي ثابت قال :

" ... واستخلف النّاسُ الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنه ـ فبعث الحسن بالبيعة إلى معاوية ـ رضي الله عنه ـ وكتب بذلك الحسن إلى قيس بن سعد ـ رضي الله عنهما ـ فقام قيس ابن سعد في أصحابه ، فقال : يا أيُّها النَّاسُ ، أتاكم أمران ، لا بُـدَّ لكم من أحدهما دخول في الفتنة ، أو قَتْلٌ مع غير إمام ، فقال النَّاس : ما هذا ؟ فقال : الحسن بن عليّ قد أعطى البيعة معاوية ، فرجع النّاس ، فبايعوا معاوية "[2].

والحسن ـ رضي الله عنه ـ لم يكن يرغب في الخلافة أصلاً ، فقد أخرج أحمد بسند صحيح عن صدقة بن المثنى ، قال حدّثني جدّي أنّ النّاس اجتمعوا إلى الحسن بن عليّ في المدائن ، فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : " ... وإنّي والله ما أحببت أن أَلِي من أمر أمّة محمّد بما يزن مثقال حبّة خردل يُهراق فيها مِحْجَمَة من دمٍ "[3].

أمّا من قال : إنّ عـهد الخلافة الرّاشـدة انتهى بتنازل الحسـن عن الخلافة إلى معاويـة ـ رضي الله عنه ـ من أهل الحلّ والعقد ، إلى عهد المُلك العَاضّ بدليل ما أخرجه أحمد بسند صحيح عن النّعمان بن بشير ، قال : ... فقال حذيفة : قال رسول ﷺ : " تكونُ النُّبوَّة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثمّ يرفعُها إذا شاء أن يرفعها ، ثمّ تكون خلافة على منهاج النُّبوَّة فتكون ما شاء الله أن تكون ثمّ يرفعُها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثمّ تكون ملكاً عَاضّـاً فيكون ما شاء

---

(١) أخرجه الحاكم عن الشّعبي في " المستدرك " (ج٣/ ص١٧٥) كتاب معرفة الصّحابة .

(٢) ابن حجر " المطالب العالية " (م١٨/ ص٢١٦/ رقم٤٤٣٩) وقال المحقّق : هذا الإسناد صحيح .

(٣) أحمد " فضائل الصّحابة " (ج٢/ ص٧٧٣/ رقم١٣٦٤) وقال المحقّق : إسناده صحيح .

الله أن يكون ، ثمّ يرفعُها إذا شاء أن يرفعها ، ثمّ تكون مُـلْكاً جبريّة فتكون ما شاء الله أن تكون ثمّ يرفعها إذا شاء أن يرفعَها ، ثمّ تكون خلافة على منهاج النُّبوَّة"(١).

فالجواب : أنّ الملك العاضّ ليس المراد به الملك العاضّ على الإمارة والحريص عليها كما فهم البعض ، وإنّما هو الملك العاضُّ على الكتاب والسُّنَّة المتمسّك بهما ، فهو وصف مدح لا وصف ذمّ وقَدْح .

دعوى أنّ معاوية كان من المسرفين

كلّ ما يُتَعَلّق به على معاوية لا يصحُّ ، ومن ذلك قولهم السَّقيم ورأيهم غير المستقيم بأنَّ معاوية كان من المبذّرين المسرفين... وهذه الدّعوى يردّها ما أخرجه أحمد في " كتاب الزّهد " عن عليّ بن أبي حملة ، عن أبيه ، قال : " رأيتُ معاوية على المنبر بدمشقَ يخطب النّاسَ وعليه قميص مرقوع "(٢) ولولا أنّه ـ رضي الله عنه ـ كان رأساً في الزُّهد ما ذكره أحمد في كتاب الزُّهد ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النّساء].

وعليّ ـ رضي الله عنه ـ كان زاهداً أيضاً ، أخرج أحمد بسند صحيح عن عمرو بن قيس ، قال : " رُئيَ على عليّ ثوبٌ مرقوع ، فعُوتِبَ في لباسه ، فقال : يقتدي المؤمن ويخشع القلب"(٣).

فمعاوية أو عليّ ـ رضي الله عنهما ـ كانا طالبي دِيْن لا دنيا فانية ، وإذا كانت لمعاوية هفوات ، فنحن لا نعتقد العصمة لأحد بعد النّبيِّ ﷺ ، وهفواته إن وجدت فهي مغمورة في بحر فضائله ومحيط مناقبه .

---

(١) أحمد " المسند " (ج١٤/ ص١٦٣/ رقم١٨٣١٩) وهو في " مجمع الزّوائد " (ج٥/ ص١٨٨) وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزّار والطّبراني ، ورجاله ثقات .

(٢) أحمد " كتاب الزّهد " (ص١٧٢) وأبو بكر الخلاّل " السّنّة " (ج٢/ ص٤٣٩/ ص٦٧٣).

(٣) أحمد " كتاب الفضائل " (م١/ ص٥٤٩/ رقم٩٢٣) .

دعوى أنّ معاوية هَمَّ بنقل منبر الرّسول ﷺ من المدينة إلى الشّام

أخرج الطّبري عن محمّد بن عمر ، عن يحيى بن سعيد بن دينار ، عن أبيه ، قال : "قال معاوية : إنّي رأيتُ أنّ منبر رسول الله وعصاه لا يتركان بالمدينة وهم قتلةُ أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه ... "[1].

وهذه الرّواية باطلة سنداً ، لأنّ محمّد بن عمر ، الواقدي يضع الحديث وهو متروك ، أمّا متنها فَمُنْكر ، ففيه اتّهام لأهل المدينة بأنّهم قتلة عثمان وأعداؤه ، وفيه اتّهام لمعاوية أنّه يُبْغِضُ الأنصار .

ومعاوية لو كان يبغض الأنصار ما ولّى أحداً منهم ، فقد ولَّى معاويةُ فضالة بن عبيد الأنصاري القضاء والبحر بمصر[2] ، وأقرّ رويفع بن ثابت بن سكن الأنصاري على طرابلس[3]، وعيّن النّعمان بن بشير الأنصاري على الكوفة[4].

ومعاوية لا يُصَدَّقُ أنّه يفكّر في نقل منبر رسول الله ﷺ وهو يعلم فضل ما بين بيته ومنبره ﷺ ، فقد ثبت في الصّحيحين قوله ﷺ : " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنّة، ومنبري على حوضي"[5].

دعوى أنّ معاوية حَرَّك منبر رسول الله ﷺ فكسفت الشّمس

دعوى أنّ الشّمس كسفت لأنّ معاوية حرّك منبر رسول الله ﷺ دعوى باطلة ، أخرج ذلك الطّبري بسند فيه ثلاثة مجروحين ، عن محمّد بن عمر ،عن سويد بن عبد العزيز ،

---

(١) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٤/ ص١٧٧) .

(٢) عبد الله المالكي " رياض النّفوس " (م١/ ص٨٠) .

(٣) ابن عبد البر " الاستيعاب في معرفة الأصحاب " (م٢/ ص٥٠٤) .

(٤) أحمد " العلل ومعرفة الرّجال " (م٢/ ص٤٦٥) .

(٥) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج٢/ ص٢٢٤) كتاب الحجّ ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٥/ ج٩/ ص١٦١) كتاب الحجّ .

عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، عن أبان بن صالح عن قبيصة بن ذؤيب ، قال : " كان عبد الملك قد هَمَّ بالمنبر ، فقال له قبيصة : أذكّرك الله ـ عزّ وجلّ ـ أن تفعل هذا وأن تحوِّلَه ؛ إنّ أمير المؤمنين معاوية حرّكه فكسفت الشّمس "[1].

فأمّا محمّد بن عمر ، فهو الواقدي : متروك . وسويد بن عبد العزيز ، قال عنه الحافظ : ضعيف[2]. وإسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، قال عنه الحافظ : متروك [3] .

والمتن لا يصحُّ ؛ فقد ثبت في الصّحيحين قولُ النَّبيِّ ﷺ : " إنّ الشّمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من النّاس ، ولكنّهما آيتان من آيات الله ، فإذا رأيتموهما فقوموا فصلّوا "[4].

دعوى أنّ معاوية دَسَّ السُّمَّ للحسن

أمّا الأخبار الّتي فيها اتّهام لمعاوية بدم الحسن ـ رضي الله عنه ـ فلا تصحّ ، ومنها قول الواقدي : " وقد سمعت بعض من يقول : كان معاوية قد تلطّف لبعض خدمه أن يسقيه سمّاً "[5].

ولا يعتبر نقل الذَّهبيّ والسّيوطيّ وابن حجر وغيرهم من أئمة أهل السُّنَّة عن الواقديّ مبرراً لأن نعتمد روايته ؛ لأنّهم نقلوا عنه في كتب ليست بمظنّة الحِجَاج والتّعليل ، ولهم أقوال صريحة وصحيحة فيه في كتب التّراجم والجرح والتّعديل ، وهي المعتمدة عند

---

(١) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٤/ ص١٧٨) .

(٢) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص٢٦٠/ رقم٢٦٩٢) .

(٣) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص١٠٢/ رقم٣٦٨) .

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ح٢/ ص٢٤) كتاب الكسوف . ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٣/ ج٦/ ص٢٠٠) كتاب الكسوف .

(٥) الذّهبي " سير أعلام النّبلاء " (ج٣/ ص٢٧٤) والواقدي يضع الحديث ويروي عن مجاهيل ، وقد تقدّمت ترجمته .

الدّراسة والاستقصاء والتّحقيق .

ولا يُصدَّق أنّ صحابيّاً يأمر بقتل أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، فما بالك إذا كان هذا الصَّحابيُّ من آل البيت الّذين افترض الله مودّتهم وأوجب احترامهم على كلّ مسلم ، بقوله تعالى خطاباً لنبيّه ﷺ : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ ...﴿٢٣﴾﴾ [الشّورى] فالله تعالى جعل أَجْرَ النَّبيِّ ﷺ على ما جاءهم به من الهدى المودّة في أهل بيته ، وهذا المعنى لا يخفى علينا حتّى يخفى على معاوية .

كما لا يخفى على معاوية عظيم قدر آل البيت ، فقد أمر النَّبيُّ ﷺ بالصّلاة والسّلام عليه وعلى آل بيته ، روى مسلم عن كَعْب بن عُجْرَة قال :

" خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقلنا : قد عرفنا كيفَ نُسلّمُ عليك ، فكيف نُصلّي عليك؟ قال : قولوا : اللهُمَّ صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد ، كما صلّيت على آل إبراهيم إنّكَ حميدٌ مجيدٌ ، اللهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد ، كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد "[١] فأقام ﷺ أهل بيته في الصّلاة والسّلام بعد التَّشهُّد مقام نفسه.

وهذا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يوصي النّاس بالمحافظة على الحسن والحسين وألاّ يؤذيهم أحد ، فيقول : " ارقبوا محمَّداً ﷺ في أهل بيته"[٢] بمثل هذا كان يتواصى الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، فأصحاب النَّبيُّ ﷺ خيرُ من كان يعلم فضائل آل البيت ، وفضائل آل البيت والوصايا بهم كثيرة لا يجحدها مسلم .

ولعلّ أظهر ما يردّ هذه التّهمة الباطلة قول ابن خلدون : " وما ينقل من أنّ معاوية دسَّ إليه السُّمَّ مع زوجته جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشّيعة ، وحاشا لمعاوية من ذلك "[٣].

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّوويّ " (م٢/ ج٤/ ص١٢٧) كتاب الصّلاة ، والبخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص١٥٦) كتاب الدّعوات .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص٢٠٩) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٣) ابن خلدون " تاريخ ابن خلدون " (م٢/ ص١٨٧) .

وقول ابن تيمية في معرض ردّه على قول من قال إنّ معاوية سَمَّ الحسن : " ولم يثبت ذلك ببيّنة شرعيّة ، أو إقرار معتبر ، ولا نقل يجزم به . وهذا ممّا لا يمكن العلم به ، فالقول به قول بلا علم "[1].

دعوى أنّ معاوية أكره النّاس على مبايعة يزيد

وممَّن لم ينصفهم المؤرِّخون نتيجة ما نقلوه عن الوضَّاعين يزيد بن معاوية ، الّذي قال النَّبيُّ ﷺ في حقّه : " أوّل جيشٍ من أمّتي يغزون مدينة قيصر مغفورٌ لهم "[2] فكان أوّل جيش غزى مدينة قيصر بقيادة يزيد بن معاوية ـ رضي الله عنه ـ وإذا كان الجيش مغفوراً له ، فما بالك بقائد هذا الجيش !

ومن هذه الأباطيل الّتي يُتَجنَّى بها على يزيد أنّ معاوية أكره النَّاس على مبايعة يزيد ، وأنّ بيعته غير صحيحة ، وأنّ أهل المدينة خلعوه لِمَا بَلَغَهُم عنه من شُرْب الخمر وغير ذلك من الأباطيل الّتي لو صحَّ منها شيءٌ ما وقف الصَّحابيُّ الجليل عبد الله بن عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنهما ـ يومها يدافع عنه ويقرِّرُ صِحَّةَ ولايته ، ويكذّب ما بلغهم عنه ، فقد أخرج البخاري عن نافع ، قال :

" لمّا خلع أهلُ المدينة يزيدَ بن معاوية جمع ابنُ عمر حَشَمَه وولده ، فقال : إنّي سمعتُ النّبيّ ﷺ يقولُ : يُنْصَبُ لكلِّ غادر لواءٌ يومَ القيامة ، وإنّا قد بايعنا هذا الرّجل على بيع الله ورسوله ، وإنّي لا أعلمُ غَدْراً أعظمَ من أن يُبايعَ رجلٌ على بيع الله ورسوله ، ثمّ يُنْصَبُ له القتالُ ، وإنّي لا أعلَمُ أحداً منكم خَلَعَه ولا بايع في هذا الأمر إلاّ كانت الفيصل بيني وبينه "[3].

وهذا الحديث يكذّب أيضاً دعوى أنّ عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ كان يطمع

---

(١) ابن تيمية " منهاج السّنّة " (م٤/ ص٤٦٩) .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص٢٣٢) كتاب الجهاد والسّير .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٩٩) كتاب الفتن .

في الخلافة ؛ فهو يرى أنّ البيعة قد انعقدت ليزيد ، ولا يرى ما يوجب نقض بيعته ، فلو كان يطمع في الدّنيا كما يتقوّلون ما قال عبد الله ذلك . وهذا الكلام أسوقه ليعلم القارئ أنّ أحداً من أصحاب النَّبيِّ ﷺ لم يسلم من النّقد والتّجريح من الوضّاعين حتّى يسلم يزيد وهو من كبار التّابعين !

ويزيد بن معاوية عنده من تقوى الله ما لو وُزِّع على عُدَاته لكفاهم ، فهذا معاوية ـ رضي الله عنه ـ يقول ليزيد : " كيف تراك فاعلاً إن وليت ؟ قال : يمتع الله بك يا أمير المؤمنين، قال : لتخبرني . قال : كنْتُ والله يا أبة عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطّاب ، فقال معاوية : سبحان الله يابنيّ ، والله لقد جهدتُ على سيرة عثمان بن عفّان فما أطقْتُها ، فكيف بك وسيرة عمر ؟! "(١).

وقد صدق معاوية ـ رضي الله عنه ـ؛ فإنّ عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ قد أعجز بسيرته من كان بعده ! ولا يتقدّم عليه بالفضل إلاّ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ، وهذا عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ لمّا جفاه عبد الرّحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ لأسباب منها تَرْكُه سنّة عمر ـ رضي الله عنه ـ بيّن له عثمان أنَّ سُنَّةَ عمر لا يطيقها عثمان ولا يقدر عليها عبد الرّحمن ابن عوف ولا غيره ـ رضي الله عنهم جميعا ـ ، أخرج أحمد بسند صحيح عن عاصم عن شقيق ، قال :

" لقي عبد الرّحمن بن عوف الوليد بن عقبة ، فقال له الوليد : مالي أراك قدْ جفَوْتَ أمير المؤمنين عثمان ؟ فقال له عبد الرحمن : أبْلغه أنّي لم أفِرَّ يوم عينين ، قال عاصم : يقول يوم أحد، ولم أَتَخَلَّفْ يوم بدر ، ولم أترك سنّة عُمر ، قال : فانْطلق فخبَّرَ ذلك عُثْمان ، قال : فقال : أمّا قوله إنّي لم أفرَّ يوم عينين فكيف يُعيّرني بذنب وقد عفا الله عنه ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ ... ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران] وأمّا قوله إنّي تخلّفتُ يوم بدر فإنّي كنْتُ أمرِّضُ رقيّة بنت

(١) ابن كثير " البداية والنّهاية " (ج٨/ ص٢٢٩) .

رسول الله ﷺ حين ماتت ، وقد ضَرَبَ لي رسول الله ﷺ بسهمي، ومن ضرب رسول الله ﷺ بسهمه فقد شهد ، وأمّا قوله إنّي لم أتركْ سنَّة عُمر فإنّي لا أطيقها ولا هو ، فَأْتِه فحدِّثه بذلك "(١).

وإذا كان كبار الصّحابة لا يستطيعون سنّة عمر ، فكيف لهم بسُنَّة النَّبيِّ ﷺ الّذي كان يُعْصَمُ بالوحي !

معاوية ستر للصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ

وحُبُّ أصحاب النَّبيِّ ﷺ الميزان فيه حُبُّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ فلا تنفع محبة للصّحابة تنقصها محبّة أحد من أصحابه ﷺ ، ومن جرح واحداً من الصّحابة فهو المجروح دونهم !

قال أبو توبة الرّبيع بن نافع الحلبيّ : " معاوية ستر لأصحاب محمّد ﷺ ، فإذا كَشَفَ الرّجلُ السّترَ اجترأ على ما وراءه"(٢) فهناك من يتجرّأ على معاوية ليجعل من ذلك مدخلاً للطّعن على غيره من الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ .

وقال الميمونيّ : قال لي أحمد بن حنبل : " يا أبا الحسن ، إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصّحابة بسوء فاتَّهِمْهُ على الإسلام "(٣) .

دعوى أنّ يزيد لم يسلم من دم الحسن والحسين

أمّا الأخبار الّتي فيها اتّهام ليزيد بدم الحسن فلا تَصِحُّ ، فقد ورد أنّ الحسن ـ رضي الله عنه ـ لم يكن متيقِّناً من قاتله ، فإنّه لمّا أشرف الحسن ـ رضي الله عنه ـ على الموت دخل عليه الحسينُ فوجده يجود بأنفاسه الأخيرة ، فسأله عن قاتله ، فامتنع عن إخباره ، فقد ورد أنّ

---

(١) أحمد " المسند " (ج١/ ص٣٧٥/ رقم٤٩٠) .

(٢) ابن كثير " البداية والنّهاية " (ج٨/ ص١٣٩) .

(٣) المرجع السَّابق .

الحسين جاءه وهو يسوق(١) فقال : " أي أخي ، أنبئني من سقاك ؟! قال : لِمَ ؟ لتقتله ؟ قال : نعم . قال : ما أنا مُحَدِّثُكَ شيئاً ، إن يكن صاحبي الّذي أظنُّ ، فالله أشدُّ نقمةً ، وإلاّ فوالله لا يُقْتَل بي بريء "(٢).

وعن قتادة : " قال الحسن للحسين : قد سُقيتُ السُّمَّ غير مرّة ، ولم أُسْقَ مثل هذه ، إنّي لأضعُ كبدي ، فقال : مَنْ فعله ؟ فأبى أن يُخبره "(٣).

وأظهر ما يردُّ هذه الدَّعوى ما رواه المدائني : " أنّ عبد الله بن عبّاس وفد إلى معاوية ، فأمر معاوية ابنه يزيد أن يأتيه فيعزّيه في الحسن بن عليّ ، فلمّا دخل على ابن عبّاس رحّب به وأكرمه ، وجلس عنده بين يديه ، فأراد ابن عبّاس أن يرفع مجلسه فأبى ، وقال : إنّما أجلس مجلس المعزّي لا المهنّي ، ثمّ ذكر الحسن ، فقال : رحم الله أبا محمّد أوسع الرّحمة وأفسحها ، وأعظم اللهُ أجْرَكَ وأحسَنَ عزاءك ، وعوّضك من مصابك ما هو خيرٌ لكَ ثواباً وخير عقبى . فلمّا نهض يَزِيدُ من عنده ، قال ابن عبّاس : إذا ذهب بنو حرب ذهبَ علماءُ النّاس "(٤).

وقد توفيّ الحسن ـ رضي الله عنه ـ في عهد معاوية ، قال البخاريّ : " توفيّ الحسن بن عليّ بعد ما مضى من إمارة معاوية عشرُ سنين "(٥).

أمّا اتّهام يزيد بدم الحسين ، فباطل من وجوه ، أظهرها ما رواه البخاري عن عبد الله ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال لرجل من أهل العراق يسأله عن مُحْرِمٍ قتل ذباباً ماذا يلزمه ؟ فقال ـ رضي الله عنه ـ : " أهلُ العراق يسْألونَ عن الذّباب ! وقد قَتَلوا ابنَ ابنة رسول الله

(١) يسوق : أي في النّزع الأخير .
(٢) الذّهبي " سير أعلام النّبلاء " (ج٣/ ص٢٧٣) .
(٣) الذّهبي " سير أعلام النّبلاء " (ج٣/ ص٢٧٤) .
(٤) ابن كثير : " البداية والنّهاية " (ج٨/ ص٢٢٨) .
(٥) البخاري " كتاب التّاريخ الكبير " (م٢/ ص٢٦٧/ رقم٢٤٩١) .

ﷺ ، وقال النَّبيُّ ﷺ : هما ريحانتاي من الدُّنيا "[1] فهذا ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يصرِّحُ بأنّ قتلة الحسين هم أهل العراق الّذين يسألون عن الشيء اليسير وقد فرَّطوا بالشيء الجليل ! ولم يَقُلْ قتله أهل الشّام .

وأخرج نحوه أحمد بسند صحيح عن ابن أبي نعم ، قال : " كنْتُ عند ابن عمر ، فسأله رجلٌ عن دَمِ البعوض ، فقال : ممّن أنت ؟ قال : من أهل العراق ، قال : انظروا إلى هذا يسألُني عن دَم البعوض وقد قتلوا ابنَ رسول الله ﷺ ، وقد سَمعْتُ رَسُولَ الله يقول : هما ريحانتي من الدُّنيا ـ رضي الله عنهما ـ "[2].

أمَّا خبر جعدة فلا يصحُّ، وقد أنكره ابن كثير، فقال : " وروى بعضهم أنّ يزيد بن معاوية بعث إلى جعْدة بنت الأشعث أنْ سمِّي الحسن وأنا أتزوجك بعده ، ففعلت ؛ فلمّا مات الحسن بعثتْ إليه ، فقال : إنّا والله لم نرضك للحسن أفنرضَاكِ لأنفسنا ؟ وعندي أنّ هذا ليس بصحيح ، وعدم صحّته عن أبيه معاوية بطريق الأَوْلَى والأحرى "[3].

خاب وخَسِر من افترى الكذب على دولة بني أميّة

لا معنى لكلام من يطعن في دولة بني أميَّة ؛ فقد جمعت دولتهم خير النَّاس : الصَّحابة ، والتَّابعين ، وأتباع التَّابعين ، فحظيت بقول النَّبيِّ ﷺ : " خير النّاس قرني[4]، ثمّ الّذين يلونهم ، ثمّ الّذين يلونهم "[5].

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص٢٠٩) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٢) أحمد " كتاب فضائل الصّحابة "(م٢/ ص٧٨١/ رقم١٣٩٠) .

(٣) ابن كثير " البداية والنّهاية " (ج٨/ ص٤٣) .

(٤) القرن من النَّاس : أهل كلِّ مدَّة كان فيها نبيٌّ أو طبقة من أهل العلم والفضل قَلَّتْ السّنون أو كثرت ، والمراد هنا : جيل الصّحابة الّذين أدركوا النَّبيَّ ﷺ ، وجيل التّابعين الّذين أدركوا الصَّحابة ، وجيل أتباع التَّابعين الّذين أدركوا التَّابعين الأوائل .

(٥) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٨٩) كتاب أحاديث الأنبياء .

وقد بدأت دولة بني أميَّة سنة إحدى وأربعين من الهجرة بعد تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، واستمرّت إلى سنة مائة واثنتين وثلاثين من الهجرة . ومن قرأ تاريخ عهد بني أميَّة عجب من القادة الأعلام الَّذين نشروا الإسلام في طول البلاد وعرضها في ذلك الزّمان ، ففي عهد الوليد بن عبد الملك وحده ، فتح قتيبة بن مسلم الباهليّ : بُخارى ، وسَمَرْقند ، وخوارِزْمَ ، وطشْقَنْد ... ونَشَرَ الإسلامَ فيها وكان يومها عاملاً على خُرسان للحجّاج بن يوسف الثَّقفيّ .

كما وجّه الحجّاج محمَّد بن القاسم إلى بلاد السِّند (باكستان وأفغنستان) فكان له فتح مَكران والدّيبل والملتان ... وتمّ في عهد الوليد أيضا فتح الأندلس ، حيث فتح طارق بن زياد قُرْطُبة ، وغرناطة ، وطليطلة ... والتقى مع موسى بن نصير في طليطلة ، فكان فتح إشبيلية ، وماردة ، وباجة ...

ولو لم يكن لدولة بني أميَّة سوى أنّها أنجبت عمر بن عبد العزيز لكفى !

***

المبحث الثّاني

التأليف بين الأمة مقصد عظيم

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ... ﴿٧٨﴾﴾ [الحجّ]

التَّحذير من فتنة الجماعات !

ينبغي للمسلم أن يحذر من فتنة الجماعات ، وألاّ يزيد في فرقة المسلمين بتعصُّبه إلى جماعة أو فرقة ؛ فإنّك ترى في هذا الزّمان من يوالي ويعادي لأجل جماعته ! دون فقه بعقيدة الولاء والبراء ، فالواجب أن نعتصم بحبل الله جميعاً وألّا نتفرَّق ، فقد عاب الله تعالى على المشركين أنّهم فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً وجماعات ، وحذّرنا أن نكون مثلهم ، فقال : ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الرّوم].

فهذه الفرق والجماعات على اختلاف أسمائها لم تكن في عهد النَّبيِّ ﷺ ، ولم يأمر بها ؛ فإنّ الله سمّانا المسلمين من قبل القرآن ومن بعده ، وأمرنا أن نعتصم به جلّ قدره ، قال تعالى : ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ...﴿٧٨﴾﴾ [الحجّ] .

كما سمّى الله تعالى المؤمنين أخوة في الدّين والولاية ولم يسْتَثْنِ أحداً ، فقال : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات] فالأصل أنّنا أخوة نرجع إلى أصل النَّسب آدم وحواء إذا كنّا مؤمنين بحقّ .

والولاء والبراء لا يعني أن نوالي جماعة ونتبرَّأ من الجماعات الأخرى ، بل الولاء أن توالي الله تعالى ، ورسوله ﷺ ، والذّين آمنوا ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [المائدة] وعن عمرو بن العاص قال سمعتُ رسول الله ﷺ جهاراً غيْر سرّ ، يقول : " ألا إنّ آل أبي ـ يعني فلانا ـ ليسوا بأولياء ، إنّما وليّي الله وصالح المؤمنين "(١) والبراء يكون من الكافرين ، قال تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [التوبة].

آنَ لهذه الأمّة أن تعود إلى سالف مجدها ، آنَ لهذا الخلف الّذي اتّبع الشّهوات والمتشابهات أن يعود إلى الحقّ الّذي كان عليه السّلف ، قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ...﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران].

وانظر ما يوحي إليه لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ هاهنا ، أي أمّة واحدة ، إلهها واحد ، ودينها واحد ، وكتابها واحد ، وقبلتها واحدة ، ولغتها واحدة ، هكذا كانت هذه الأمّة وهكذا ينبغي أن تكون حتّى يرث الله الأرض ومن عليها !

فإن قال قائل : لكنّا نشهد غربة الإسلام ، ونسمع عن اختلاف السّلف ونرى ونشهد فرقة الخلف ، فلكلّ أمّة إمام ، والجميع دون إمام ! فكيف نكون خير أمّة والحال ليس كما كان عليه الصّحابة الكرام؟!

فالجواب أنّ علينا أن نكون على ما كان عليه النّبيُّ ﷺ وأصحابه ، فهذا مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ يقول " لن يُصلِحَ آخر هذه الأمّة ، إلاّ ما أصلح أوّلها" وحتّى نكون كذلك يجب أولاّ أن نعتزل هذه الفرق كلّها ، فهذا الصّحابيّ الجليل حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ يأمره النّبيُّ ﷺ باعتزال الفرق كلّها إذا أمدّ الله في عمره وأدرك زماناً لم يكن للأمّة

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٢/ ج٣/ ص٨٧) كتاب الإيمان .

فيه جماعة ولا إمام ، يقول ـ رضي الله عنه ـ :

" كان النّاس يسألون رسولَ الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسألُه عن الشّرِّ مخافة أن يدركَني ، فقلتُ : يا رسولَ الله ، إنّا كنّا في جاهليّةٍ وشرّ ، فجاءنا اللهُ بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخيرِ شرٌّ ؟ قال : نعم . فقلتُ : هل بعد ذلك الشّرّ من خيرٍ ؟ قال : نعم . وفيه دَخَنٌ . قلتُ : وما دَخَنُهُ ؟ قال : قوم يَسْتَنّونَ بغير سُنّتي ، وَيَهْدونَ بغير هَدْيي ، تعرفُ منهم وتُنْكرُ . فقلتُ : هل بعد ذلك الخير من شرّ ؟ قال نعم ، دُعَاةٌ على أبوابِ جَهنّمَ ، من أجابَهُم إليها قذفوه فيها . فقلت : يا رسولَ الله ، صِفْهُم لنا . قال : نعم ، قومٌ من جلدتنا ، ويتكلّمونَ بألسنتنا . قلتُ : يا رسول الله ، فما ترى إن أدركني ذلك ؟ قال تلزمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهُم . فقلتُ : فإن لم تكن لهم جماعةٌ ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلّها ولو أن تَعَضّ على أصل شجرة حتّى يدركَكَ الموتُ وأنت على ذلك "(١).

فنحن نريد أن نُجمِّعَ لا أن نفرِّقَ ، ونريد أن نؤلِّفَ لا أن نشتِّتَ ، وممّا لا ريبَ فيه أنّ التّأليفَ بين الأمّة ـ بعد أن انفرط عقدها ـ مقصدٌ عظيمٌ من مقاصد الشّريعة الإسلاميّة ؛ فأعداؤنا منذ غابر الأزمان يريدون لهذه الأمّة أن تكون أُمَماً ، ولهذه الفرق أن تظلّ فرقاً لا ريح لها ، لتبقى الأمّة الإسلاميّة متفرّقة ، عاجزة عن الوقوف في وجه أعدائها ، الّذين اجتمعوا عليها كما اجتمعت الأكلة على قصعتها !

وقد قَصَّ الله تعالى علينا نبأ فرعون الّذي علا في الأرض بأن جعل أهلها فرقاً وجماعات ، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء ؛ ليبقوا ضعفاء ، ولا يقووا على دفع الظلّم عن أنفسهم ، قال تعالى :﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ... ﴿٤﴾ ﴾ [القصص].

وإنّما أقول هذا الكلام للمؤمنين ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه] قال

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٦/ ج١٢/ ص ٢٣٦) كتاب الإمارة ، والبخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٩٢) كتاب الفتن .

تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام] وقال : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ... ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة].

وأنا أعلم أنّ الله تعالى قد أمضى علينا التّفرُّق قدراً ، بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ ... ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود] لكنّ الله أمرنا أن ندفع هذا التَّفرُّق ، فقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ... ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام] وقال : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الشّورى] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

فإذا كان الأمر كذلك ، كيف ندفع التَّفرُّق شرعاً ؟! الجواب ، بأن نردّه إلى الله والرّسول ، وبفهم السّلف الصّالح ، لا بفهم أحدنا وتأويله ، فذلك خيرٌ من التّنازع وأحْسَنُ مَآلاً.

فإن قال قائل : لكنّ الله أوجب علينا أن نبيّن الحقّ للناس وإن كان الحقُّ مرّاً قولاً ودفاعاً ! بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ... ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران].

فالجواب ، أنّ جهاد البيان والحجّة والبرهان سابق على جهاد السِّنان ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان] أي جاهد الكفّار بالقرآن وحججه الربّانيّة وآياته التنزيليّة ، وقال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النّحل].

التّحذير من فتنة التّكفير !

كما ينبغي للمسلم أن يحذر من فتنة التّكفير ، فلا يكون لأحد يؤمن بالله ورسوله أن ينجرَّ إلى التّكفير دون فقه بقواعد التأويل ، فقد حَذَّر النَّبيُّ ﷺ أن يكفِّر أحدٌ أخاه من غير تأويل سَائغٍ ، أخرج البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال : " إذا قال الرّجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما "(1) وأخرج مسلم عن عبد الله بن دينار أنّه سمع ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : " أيّما امرئ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ، إن كان كما قال ، وإلاّ رجعت عليه "(2) وقال ﷺ : " ومَن قَذَفَ مؤمنا بِكُفْرٍ فهو كقَتْـلِهِ "(3).

والأعظم من ذلك الجزم بتكفير العموم بسبب أقوال أو أفعال من هنا أو هناك ، فإنّك تجد من النّاس ناساً يكفّرون طائفة ، أو جماعة ، أو فرقة بقضّها وقضيضها ، من ألفها إلى يائها، ويخرجونها من الإسلام ، ويرمونها عن قَوْسٍ واحدة ، ويقطعون أنّها في النّار ؛ لأَجْل ظاهر لأفراد منها في زمن من الأزمان ، وقد يكون هذا الظّاهر مخالفا حقيقةً لِواقِعٍ ، ولا يغفرون لها مهما تعاقبت العصور ، وتوالت الدُّهور ! فهل اطّلع هؤلاء على قلوب العباد حتّى كشفوا عن سرائرهم واستيقنوا ممّا خَلَصُوا إليه ؟! أم أنّهم عُيِّنوا على الّلوح المحفوظ حتّى علموا حال هؤلاء ، وخواتيم أعمالهم ؟!

ومَنْ تدبّر الآية الثالثة عشرة بعد المائة من سورة البقرة وجد فيها ما ينهاه عن ذلك ، فقد عاب الله تعالى على المشركين العرب وغيرهم أنّهم قالوا لكلّ ذي دين ليسوا على شيء ، وشبّه أخلاقهم بأخلاق اليهود والنّصارى ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [البقرة].

---

(1) البخاري : " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص٩٧) كتاب الأدب .

(2) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م١/ ج٢/ ص٤٩) كتاب الإيمان .

(3) البخاري عن ثابت بن الضَّحّاك " صحيح البخاري " (م٤/ ج٧/ ص٨٤) كتاب الأدب .

وهذا أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ لمّا بعثه رسول الله ﷺ في سريّة أدرك رجلاً من الكفّار فقتله بعد قوله لا إله إلاّ الله ، يقول أسامة : " فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنّبيّ ﷺ فقال رسول الله ﷺ : أقال لا إله إلاّ الله وقتلته ؟! قال : قلت : يا رسول الله ، إنّما قالها خوفاً من السّلاح ، قال : أفلا شققت عن قلبه حتّى تعلم أقالها أم لا ! فما زال يكررها حتّى تمنّيتُ أنّي أسلمتُ يومئذ "(١).

فنحن لسنا مأمورين بِنَقْب قلوب العباد ، والاطّلاع عليها ، للنظر إن كان ما قاله العبد معتقداً إيّاه قلبه ، أم أنّ ما قاله من اللسان ولم يقصده القلب ببرهان .

وبعد ، فالحديث الشّريف المتقدّم فيه مصداق للقاعدة الشّهيرة في الفقه والأصول " أنّ الأحكام يعمل فيها بالظّواهر ، والله يتولّى السّرائر " .

والمذهب الحقّ ـ الّذي ندين الله به ـ أننا لا نكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب ولا بكبيرة من كبائر الذّنوب ، بل لا نكفّر أحداً من أهل الأهواء والبدع ما لم يستحلّ ما هو معلوم من الدّين بالضرورة ، إلاّ أن يكون حديث عهد بالإسلام ، أو نشأ بمكان منكور ، وجهل ذلك ، فَيُعرَّف ، فإن لم يرجع حُكِم بكفره .

وقد أصاب الإمام الشّوكاني حين قال : " وباب التّكفير باب خطر ولا نعدل بالسّلامة شيئاً "(٢).

وهناك مقولة فاسدة عند الغلاة مفادها أنّ من كفَّرَنا كفَّرْناه ، فمن كفَّر مسلما فقد كفر ، وهذا فكر فاسد ؛ وإلاّ فما الفرْق بين الفريقين ؟!

فهذا عليّ ـ رضي الله عنه ـ لَمَّا سُئِل عن الخوارج إن كانوا كفَّاراً ، نفى أن يكونوا كذلك ، أخرج الصّنعاني عن شيخه عبد الرّزاق عن معمر ، سمع الحسن ، قال :

" لمّا قَتَلَ عليّ ـ رضي الله عنه ـ الحروريّة ، قالوا : من هؤلاء يا أمير المؤمنين ؟ أكفّار

---

(١) مسلم :" صحيح مسلم بشرح النووي " (م١/ ج٢/ ص٩٩) كتاب الإيمان .

(٢) الشّوكاني " نيل الأوطار " (ج٧/ ص٣٥٣).

هم؟ قال : من الكفر فرُّوا ، قيل : فمنافقين ؟ قال : إنّ المنافقين لا يذكرون الله إلاّ قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً ، قيل فما هم ؟ قال : قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصمُّوا "[1]

ذلك أنّ الخليفة عليّ ـ رضي الله عنه ـ يقرأ قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ...﴿٩٤﴾ ﴾ [النّساء].

ولذلك تورَّعَ أعلامُ العلماء المسلمين عن تكفير الخوارج ، مع ما صَحَّ عنهم من أحاديث تصفهم بالمروق من الدِّين ، وتأمر بقتلهم .

ولذلك قال النّووي : " ... وقد سبق الخلاف في تكفيرهم وأنّ الصَّحيح عدم تكفيرهم "[2].

ومن تدبَّر الآيات والأحاديث عَلِم ما قلنا ؛ فقد أثبت القرآن الأخوّة بين القاتل العمد وولي المقتول إن كان مسلماً ، فقال تعالى : ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ... ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة] فكلمة أخيه تفيد بأن القتل لا يقطع أخوّة الإيمان ، فالكبائر لا تنقض الإيمان ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ ...﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] فسمّاهم المؤمنين ، بل أكّد الإيمان والأخوّة بينهما ، فقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات].

ومن الأحاديث في هذا المعنى قوله ﷺ : " إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النّار "[3] فسمّاهما مسلمين رغم الاقتتال .

وهذا الحديث لا ينطبق على الصّحابة الّذين شاركوا في الجمل وصفّين ، فإنّهم متأوّلون

---

(١) المصنّف " (ج١٠/ ص١٥٠/ رقم ١٨٦٥٦) كتاب اللقطة ، وأخرجه ابن أبي شيبة في " مصنّف ابن أبي شيبة " (م١٥/ ص٣٣٢/ رقم١٩٧٨٨) ، وفي آخره : " قال : قوم بغوا علينا " وأخرجه البيهقي من طريق آخر في " السّنن الكبرى " (م٨/ ص١٧٤).

(٢) النّووي " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٤/ ج٧/ ص١٦٥) كتاب الزّكاة .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص١٣) كتاب الإيمان .

مجتهدون ، وأهل الحقّ مجمعون على كمال عدالتهم ، وعدالتهم ثابتة في القرآن والسُّنَّة .

كذلك قوله ﷺ : " وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين مِلّة كُلّهم في النّار إلاّ ملّة واحدة ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي "(1).

فسمّاهم النَّبيُّ ﷺ أمّته مع الافتراق ، فالأصل أنّها من أمّة محمّد ﷺ وإذا كان النَّبيُّ ﷺ قد حكم عليها أنّها في النّار فلا يخفى على من كان له قلب أنّه سَكَتَ عن خلودها في النّار، فلم يقل : كلّها خالدة مخلّدة في النّار !

وهذا الحديث لا يفهم منه أنّ النَّبيَّ ﷺ يدعو إلى الفُرْقَة ، كما أنّه لا ينصّ على فرقة ناجية باسمها ، وإنّما بيّن الفرقة النّاجية ، وهي الَّتي على ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ وأصحابه ، فمن كان على ذلك فهو ناجٍ إن شاء الله تعالى .

هذا وكلّ الشبهات التي يستند إليها الغلاة مردودة بالمحكمات البيّنات .

قلة أهل الحقّ وكثرة أهل الباطل !

لا يحزنك قلَّةُ أهل الحقّ وكثرة أهل الباطل ، فأهل الحقّ قليل ؛ لأنّ أمر الحقّ يصعب على أكثر من في الأرض ، وقد أقسم ربُّ النّاس على خسارة النّاس ، فقال : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ ثمّ استثنى منهم فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر] والغالبيّة في طرف المستثنى منه ، وهو استثناء عام متّصل يدخل تحته كلّ مؤمن ومؤمنة .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام] وقال : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف] فالكثرة الكاثرة على باطل .

---

(1) التّرمذي " الجامع الكبير " (م٤/ ص٣٨١/ رقم ٢٦٤١) أبواب الإيمان . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسنٌ غريب مُفَسّرٌ لا نعرفه مثل هذا إلاّ من هذا الوجه .

وقال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] فالقلّة القليلة شاكرة(١) ، وقال تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة] وقال تعالى : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ... ﴿٢٤﴾﴾ [ص] . و﴿مَّا﴾ في الآية زائدة للإبهام والتّعجّب من قلّتهم .

طوبى لهذه الأمّـة وحسن مآب !

من ثمرات طاعة الله تعالى والرّسول واتّباع هديه وسنّته : مواكبة النّبيّين ، والصّدّيقين، والشّهداء ، والصّالحين في دار النّعيم ، قال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النّساء].

وكم هي الآيات والأحاديث الّتي تحمل بين طيّاتها بشرى لهذه الأمّة ، ومن ذلك ما أخرجه البخاري من طريق أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ ومعاذ رديفُهُ على الرّحل ، قال : " يا معاذ بن جبل ، قال : لبّيك يا رسولَ الله ، وَسَعْديك ثلاثاً ، قال : معاذ ، قال : لبّيك يا رسولَ الله ، وَسَعْديك ثلاثاً ، قال : ما من أحد يَشْهَدُ أنّ لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمّداً رسول الله صدقاً من قلبـه ، إلاّ حرّمهُ اللهُ على النّـار . قال : يا رسـول الله ، أفـلا أخبرُ به النّاسَ ؛ فيستبشروا. قال : إذاً يتّكِلوا(٢) . وأخبر به معاذٌ عند موته تأثُّماً(٣) "(٤).

الأوصاف الّتي شاركت بها أمتنا النّبيَّ ﷺ

وقد شاركت أمتنا النّبيَّ ﷺ بأوصاف منها : أنّ الله تعالى قال للنّبيِّ ﷺ : ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ

---

(١) المراد بالشّكر العمل ، فالآية : ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ]

(٢) نَهْيُ النّبيِّ ﷺ نهي تنزيه لا تحريم .

(٣) أخبر به خشية الوقوع في الإثم من كتمانه العلم .

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (م١/ ج١/ ص٤١) كتاب العلم .

عليك ... ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح] وقال لأمّته: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ... ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة].

وقال للنّبيّ ﷺ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح] وقال لأمّته: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجّ].

وقال للنّبيّ ﷺ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفتح] وقال لأمّته: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الرّوم].

وقال للنّبيّ ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ ... ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء] وقال لأمّته: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم].

وقال للنّبيّ ﷺ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ ﴾ [القلم] وقال لأمّته: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التّين].

وقال للنّبيّ ﷺ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النّساء] وقال لأمّته: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة].

وقال للنّبيّ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ... ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب] وقال لأمّته: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

كما شاركت أمّتنا سائر الأنبياء بأوصاف كثيرة، فما أعظمها من أمّة !

***

الخاتمة

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ... ﴿١١٤﴾﴾ [النّساء]

ممّا يدمي القلب أن تجد من يجترئ على كلام الله تعالى ، وحديث الرّسول ﷺ ، وينتقد الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ويستطيل ويتطاول ، ويهرف بما لا يعرف من فضول الكلام ، ولا يقيم وزناً لقوله تعالى : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

ولو أنّ هؤلاء يعقلون كلام الله لتوقّفوا ، فالله تعالى يقول : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ... ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف] ومن الخبائث المحرّمة : الكلام الخبيث ، فقد قسّم الله تعالى في كتابه الكلام إلى خبيث وطيّب ، فقال : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ... ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم] وقال : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ... ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم] فليتق الله امرؤ مردّه إلى الله ! فلا يقل إلاّ خيراً ، ولا يعمل إلاّ صالحاً ، فلا خيرَ في قول لا يرادُ به وجه الله ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الرّوم].

وليعلم أنّ الله تعالى مدح الكلمة الطّيبة ، فقال : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ... ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة] وقال : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ... ﴿١٠﴾﴾ [فاطر] وانظر كيف جعل الله تعالى العمل الصّالح الموافق للقول الطّيب هو الّذي يرفع الكلم الطّيب ، فتدبَّرْ !

ووالله الّذي لا إله إلا هو إنّ كلّ إنسان يسعى بنفسه ، فبائع نفسه لله تعالى بطاعته فيعتقها ، وبائع نفسه للشيطان والهوى فيوبقها ؛ فليحذر العاقل ، وليتَّقِ الله ، فآخر آية نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

﴿ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة][1].

وليزكِّ نفسه ؛ فقد أقسم مولانا تبارك وتعالى أحدَ عشرَ قسماً في سورة الشّمس على فلاح من زكّى الله نفسه ، أو زكّى نفسه بالطّاعة ، فقال :﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ ﴾ هذان قَسَمان ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ ﴾ قسم ثالث ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ ﴾ قسم رابع ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ ﴾ قسم خامس ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ﴾ قسم سادس ﴿ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ ﴾ قسم سابع ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ قسم ثامن ﴿ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ ﴾ قسم تاسع ﴿ وَنَفۡسٍ ﴾ قسم عاشر ﴿ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ القسم الحادي عشر ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشّمس] على هذا أقسم الله تعالى ، فتدبّر .

أعوذ بالله أن أكون عند نفسي عظيماً وعند الله حقيراً ! اللهمّ اجعلني من الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحجّ] اللهمّ ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشّعراء] ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم].

وختاما ، اللهَ أسألُ أن يسبغ على من طالع هذا الكتاب أو قدّمه أو اشتغل به أو أعانني عليه نِعَمَه تَتْرى ، وأن ينفعه به ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشّعراء] إنّه سميع مجيب ، وآخر دعوانا ﴿ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس].

***

(١) وفي آخر آية نزلت اختلاف ، انظر " الإتقان في علوم القرآن " للسّيوطي (ج١/ ص٥٧)

المصادر والمراجع

١ـ إحياء علوم الدّين : أبو حامد ، محمّد الغزالي . دار الكتب العلميّة ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

٢ـ أخوّة الإسلام فوق مستوى الخلافات وتباين الأفهام : محمّد الحكمي . مكتبة الإرشاد ـ اليمن ، ومكتبة جدة ـ السعودية ، ط١ ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٣ـ إرواء الغليل : محمّد ناصر الدّين الألباني . المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

٤ـ أسباب النّزول : علي بن أحمد النّيسابوري . دار الفكر، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .

٥ـ استشهاد عثمان ـ رضي الله عنه ـ ووقعة الجمل : د. خالد الغيث . دار الإيمان ، إسكندريّة ، ط٢ .

٦ـ أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق د. محمّد الاسكندراني . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م .

٧ـ أصحاب الرّسول ﷺ : محمود المصري . مكتبة الصّفا ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٨ـ إعجاز القرآن البياني : د. صلاح الخالدي . دار عمّار ـ عمّان ، ط٣ ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٩ـ إعجاز القرآن الكريم : فضل حسن عبّاس . دار الفرقان ، عمّان ، ط٤ ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٠ـ إعراب القرآن : النّحاس ، أحمد بن محمّد ، تحقيق د. زهير غازي . عالم الكتب ، بيروت ،

ط ٣ ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م .
١١ـ إغاثة اللّهفان من مصائد الشّيطان : ابن قيم الجوزيّة ، تحقيق محمد الفقي . دار المعرفة ، بيروت ، ط٢، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .
١٢ـ الإتقان في علوم القرآن : السّيوطي . دار الكتب العلميّة ، بيروت ـ لبنان ، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .
١٣ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ابن عبد البر ، تحقيق علي البجاوى ، مكتبة نهضة مصر، مصر .
١٤ـ الإصابة في تمييز الصّحابة : ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي . دار الكتب العلميّة ، بيروت .
١٥ـ الإعجاز اللغوي في القصّة القرآنية : محمود السيد حسن . مكتبة مركز الدّراسات الإسلاميّة ، ط١، ١٩٨١م .
١٦ـ الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل : بهجت عبد الواحد . دار الكتب العلميّة ـ بيروت ، ودار الفكر ـ عمّان ، ط ٢ ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .
١٧ـ الإمام عليّ ـ رضي الله عنه ـ رابع الخلفاء الرّاشدين : محمّد رضا ، تحقيق د. أحمد عوض . المكتبة العصريّة ، صيدا ـ بيروت ، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .
١٨ـ الأنصار في العصر الرّاشدي : د. حامد الخليفة . مكتبة الصّحابة ، الإمارات ـ الشّارقة ، ومكتبة التّابعين ، القاهرة ـ عين شمس ، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .
١٩ـ الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني . مؤسّسة الكتب الثّقافيَّة ، بيروت ، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
٢٠ـ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث : ابن كثير ، شرح أحمد شاكر ، تحقيق محمّد صبحي ، مؤسّسة الرّسالة ، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م .
٢١ـ البداية والنّهاية : ابن كثير . مكتبة المعارف ، بيروت ، ط ٢، ١٩٧٤م ـ ١٣٩٤هـ.
٢٢ـ البرهان في توجيه متشابه القرآن : محمود بن حمزة الكرماني ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا . دار الكتب العلميّة ، لبنان ، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

٢٣ـ البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع) : فضل حسن عبّاس . دار الفرقان ، عمّان، ط١١ ، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م .
٢٤ـ البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) : فضل حسن عبّاس . دار الفرقان ، عمّان ، ط٥ ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .
٢٥ـ البيان والتبيين : عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق فوزي عطوي . الشّركة اللبنانيّة للكتاب، بيروت ، ١٩٦٨م .
٢٦ـ التّاريخ الأوسط والضّعفاء الصّغير : البخاري ، محمّد بن إسماعيل ، قراءة وضبط د.يحيى مراد . دار الكتب العلميّة ، بيروت ـ لبنان ، ط١، ٢٠٠٤م ـ ١٤٢٤ هـ .
٢٧ـ التّربية عند الإمام الشّاطبي : د. يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .
٢٨ـ التّرغيب والتّرهيب من الحديث الشّريف : عبد العظيم المنذري ، تحقيق مصطفى عمارة . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .
٢٩ـ التّصوير الفني في القرآن : سيد قطب . دار الشروق ، ط٦، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
٣٠ـ التّطبيق الصّرفي : د. عبده الرّاجحي . دار النّهضة العربيّة ، بيروت ، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
٣١ـ الجامع الكبير : الترمذي ، تحقيق د. بشّار عوّاد ، دار الغرب الإسلامي ، ط٢، ١٩٩٨م.
٣٢ـ الجامع لشعب الإيمان : البيهقي ، أحمد بن الحسين ، تحقيق د. عبد العلي حامد . مكتبة الرّشد ـ السّعوديّة ، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م .
٣٣ـ الجرح والتّعديل : عبد الرّحمن بن أبي حاتم الرّازي ، تحقيق مصطفى عبد القادر . دار الكتب العلميّة ، بيروت ـ لبنان ، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م .
٣٤ـ الجواب الكافي فيمن سُئل عن الدّواء الكافي : ابن قيّم الجوزيّة ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكّة المكرّمة ـ الرّياض ، ط٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .
٣٥ـ الحجّة على تارك المَحجّة : إسماعيل محمّد الأصبهاني ، تحقيق محمّد المدخلي . دار الرّاية،

الرّياض ، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .
٣٦ـ الخلفاء الرّاشدون : د. أمين القضاة . دار الفرقان ، عمّان ، ط ١ ، ٢٠٠٠م ـ ١٤٢٠هـ .
٣٧ـ الدّرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع : أحمد بن الأمين الشّنقيطي . دار المعرفة ، بيروت .
٣٨ـ الدّولة الأمويّة المفترى عليها : د. حمدي شاهين . دار القاهرة للكتاب ، ٢٠٠١م.
٣٩ـ الرّدّ على من أخلد إلى الأرض وجهل أنّ الاجتهاد في كلّ عصر فرض : جلال الدّين السّيوطي ، تحقيق خليل الميس . دار الكتب العلميّة بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٤٠ـ الرّحيق المختوم : صفيّ الرّحمن المباركفوري . مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ـ لبنان ، ط٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .
٤١ـ الرّصف لما روي عن النّبيّ ﷺ من الوصف : ابن العاقولي، محمّد الواسطي ، تحقيق محمّد الشّافعي . دار الكتب العلميّة ، لبنان ، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
٤٢ـ الرّوح : ابن القيّم الجوزيّة ، تحقيق د. السيّد الجميلي . دار الكتاب العربيّ ، بيروت ، ط٧، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .
٤٣ـ السّنّة : لأبي بكر الخلاّل ، أحمد بن محمّد بن هارون ، تحقيق د. عطيّة الزّهراني ، دار الرّاية، الرّياض ، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م .
٤٤ـ السنن الكبرى : البيهقي . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة ، حيدر أباد ، الهند ، ١٣٥٤هـ.
٤٥ـ السّنن الكبرى للنّسائيّ : النّسائيّ ، أحمد بن شعيب ، تحقيق د. عبد الغفّار سليمان وسيّد كسروي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .
٤٦ـ السّيف المسلول على من سبّ الرّسول : تقي الدّين علي السّبكيّ ، تحقيق إياد الغوج. دار الفتح ، الأردن ، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .
٤٧ـ الشّفا : القاضي عياض ، تحقيق نوّاف الجرّاح . دار صادر ، بيروت ، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م .

٤٨ـ الصّارم المسلول على شاتم الرّسول ﷺ : ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، خرّج أحاديثه أحمد شعبان . مكتبة الصّفا ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٤٩ـ الصّحوة الإسلاميّة بين الجحود والتّطرّف : د. يوسف القرضاوي . مؤسسة الرّسالة، ط٦ ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

٥٠ـ الصّحيح المسند من فضائل الصّحابة : مصطفى العدوي . دار ابن عفّان ، السّعوديّة ـ الخبر ، ط٢ ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

٥١ـ الصّواعق المحرقة في الرّد على أهل البدع والزّندقة ومعه كتاب تطهير الجنان واللسان: أحمد بن حجر الهيثمي ، تحقيق عبد الوهّاب عبد اللطيف ، مكتبة القاهرة ، ط٢، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

٥٢ـ الطّبقات الكبرى : ابن سعد . دار بيروت ، ودار صادر ـ بيروت ، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م .

٥٣ـ العقائد الإسلاميّة : السّيّد سابق . دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان .

٥٤ـ العواصم من القواصم : ابن العربي ، تحقيق محبّ الدّين الخطيب . المكتبة العصريّة ، بيروت ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م .

٥٥ـ الفتن : نعيم بن حمّاد ، تحقيق مجدي بن منصور . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٢م ـ ١٤٢٣هـ .

٥٦ـ الفتنة بين الصّحابة : محمّد حسّان . مكتبة فيّاض ، المنصورة ، ط١ ، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م .

٥٧ـ الفتنة ووقعة الجمل : جمع أحمد راتب عرموش . دار النّفائس ، بيروت ، ط٦، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

٥٨ـ الفِصَل في الملل والأهواء والنّحل : ابن حزم الأندلسي ،علي بن أحمد ، وضع حواشيه أحمد شمس الدّين. دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٥٩ـ الفقه على المذاهب الأربعة : عبد الرحمن الجزيري ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

٦٠ـ الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان : محمّد بن قيّم الجوزيّة . دار ومكتبة الهلال، بيروت ـ لبنان .
٦١ـ الكامل في ضعفاء الرّجال : عبد الله بن عدي الجرجاني ، تحقيق د. سهيل زكّار ، دار الفكر ، بيروت ، ط٣، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.
٦٢ـ المبشرات بانتصار الإسلام : د. يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .
٦٣ـ المستدرك على الصحيحين في الحديث : الحاكم . مكتبة ومطابع النصر الحديثة ، الرياض.
٦٤ـ المستقبل لهذا الدّين : سيد قطب . دار الشّروق ، ط٦، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .
٦٥ـ المسند : أحمد بن حنبل ، شرحه أحمد شاكر وحمزة الزّين . دار الحديث ، القاهرة ، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .
٦٦ـ المصنّف : الصّنعاني ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي . المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط١، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م .
٦٧ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية : ابن حجر العسقلانيّ ، تحقيق عبد القادر بن عبد الكريم . دار العاصمة ، ودار الغيث ، الرّياض ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .
٦٨ـ المعجم الأوسط : الطّبراني ، تحقيق محمد حسن الشّافعي . دار الفكر ، عمّان ، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .
٦٩ـ المعجم الكبير : الطّبراني ، تحقيق حمدي السّلفي . مطبعة الوطن العربي ، ط١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .
٧٠ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : محمّد فؤاد عبد الباقي . دار الفكر بيروت ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .
٧١ـ المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربيّة ، دار عمران ، مصر ، ط٣.
٧٢ـ المغني في الضّعفاء : الذّهبي ، محمّد بن أحمد . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، تحقيق حازم القاضي ، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

٧٣ـ الملامح الجغرافيّة لدروب الحجيج : سيّد عبد المجيد بكر . النّاشر : تهامة ، جدّة ، ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .
٧٤ـ المنجد في اللغة والأعلام : دار المشرق ، بيروت ، ط٢٨، ١٩٨٦م .
٧٥ـ الموطأ : مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.
٧٦ـ النّاسخ والمنسوخ في القرآن الكريم : ابن العربي المالكي . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م .
٧٧ـ النّحو وكتب التّفسير : د. إبراهيم عبد الله رفيدة . المنشأة العامّة ، ليبيا ـ طرابلس ، ط٢، ١٩٨٤م .
٧٨ـ النّكت على العمدة في الأحكام : الزّركشي . مكتبة الرّشد ، الرّياض ، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
٧٩ـ بدائع الفوائد : ابن قيّم الجوزيّة . مكتبة نزار مصطفى ، مكّة المكرّمة ـ الرّياض ، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
٨٠ـ بستان الواعظين ورياض السّامعين : ابن الجوزي ، تقديم د. السّيّد الجميلي . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .
٨١ـ تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة الدّينوري ، تحقيق رضى فرج الهمامي ، المكتبة العصريّة، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .
٨٢ـ تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، تحقيق السّيد أحمد صقر . المكتبة العلميّة ، بيروت ، ط٣، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .
٨٣ـ تاريخ ابن خلدون : ابن خلدون . مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.
٨٤ـ تاريخ الإسلام : د. حسن إبراهيم . دار الفكر ، ط١٣ ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .
٨٥ـ تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام : الذّهبي ، محمّد بن أحمد ، تحقيق د. عمر عبد السّلام . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .
٨٦ـ تاريخ الأمم والملوك : محمّد بن جرير الطّبري ، مكتبة أروميّة .

٨٧ـ تاريخ الخلفاء : جلال الدّين السّيوطي . دار القلم ، بيروت ـ لبنان ، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .
٨٨ـ تاريخ اليعقوبي : اليعقوبي . مؤسّسة الأعلمي ، بيروت ، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
٨٩ـ تاريخ خليفة بن خيّاط : خليفة بن خيّاط العصفري . مؤسسة الرّسالة ـ بيروت ، ودار القلم ـ دمشق ، ط٢، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .
٩٠ـ تاريخ مدينة دمشق : ابن عساكر ، تحقيق عمر العمروي . دار الفكر ، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .
٩١ـ تاريخنا المفترى عليه : د. يوسف القرضاوي . دار الشروق ، القاهرة ، ط٢، ٢٠٠٦م .
٩٢ـ تحقيق مواقف الصّحابة في الفتنة : د. محمّد أمحزون . دار طيبة ومكتبة الكوثر ، ط٣، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .
٩٣ـ تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرّجال : الّذهبي ، محمّد بن أحمد . النّاشر الفروق الحديثة ، القاهرة ، ط ١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .
٩٤ـ تفسير الطّبري : الطّبري . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط٣، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
٩٥ـ تقريب التّهذيب : ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمّد عوّامة . دار الرّشيد ـ سوريا ، ط٤، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .
٩٦ـ تلبيس إبليس : ابن الجوزي . مؤسّسة الكتب الثّقافيّة ، بيروت ، ط٤، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .
٩٧ـ تلقيح فهوم الأثر في عيون التّاريخ والسّير : ابن الجوزي . شركة دار الأرقم ، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .
٩٨ـ تمييز الطّيّب من الخبيث : عبد الرّحمن بن الدّيبع الشّيباني . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٩٩ـ تهذيب الأسماء واللغات : محيي الدّين بن شرف النّووي ، تحقيق علي محمّد وعادل أحمد. دار النّفائس ـ بيروت ، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .
١٠٠ـ تهذيب تسهيل العقيدة الإسلاميّة : أ.د عبد الله الجبرين . دون دار نشر ، ط١،

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .

١٠١ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التّوحيد : سليمان بن عبد الله بن محمّد عبد الوهّاب. دون دار نشر .

١٠٢ـ جامع الدّروس العربيّة : مصطفى الغلاييني . المكتبة العصريّة ، بيروت ، ط١٢، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

١٠٣ـ جامع العلوم والحكم : عبد الرحمن بن شهاب الدّين بن أحمد بن رجب الحنبلي ، تحقيق د. محمّد الأحمدي . دار السّلام القاهرة ، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

١٠٤ـ جلاء الإفهام : ابن قيّم الجوزية ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرّسالة ، بيروت ، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م .

١٠٥ـ جواهر الأدب : أحمد الهاشمي ، مؤسّسة التّاريخ العربيّ ، بيروت ، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .

١٠٦ـ حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين : مجموعة من العلماء . جمهورية مصر، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٠٧ـ حياة محمّد ﷺ : محمّد حسين هيكل ، مطبعة السّنّة المحمّديّة ، القاهرة ، ط١٣ .

١٠٨ـ دراسات في عهد النّبوّة والخلافة : د. عبد الرّحمن شجاع . دار الفكر المعاصر ، اليمن ، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٠٩ـ دلائل النّبوّة : البيهقي ، أحمد بن الحسين ، تحقيق عبد المعطي قلعجي . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

١١٠ـ ديوان أبي الطّيّب المتنبّي : شرح العلاّمة عبد الرّحمن البرقوقي ، تحقيق د. عمر الطّبّاع . دار الأرقم ، بيروت .

١١١ـ ديوان الإمام الشّافعيّ : شرح د. عمر الطّبّاع . دار الأرقم ، بيروت .

١١٢ـ ديوان الباكيتين (الخنساء وليلى الأخيليّة) : شرح د. يوسف عيد . دار الجيل ، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١١٣ـ ديوان أمير المؤمنين عليّ ـ رضي الله عنه ـ : شرح د. عمر الطّبّاع . دارالأرقم ، بيروت .

١١٤ـ ديوان حسّان بن ثابت الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ : تحقيق عبد الله سنده . دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م .
١١٥ـ ديوان مجد الإسلام : أحمد محرّم ، تحقيق محمود محرّم . مكتبة الفلاح ، الكويت ، ط١ ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .
١١٦ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام : ابن تيمية . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .
١١٧ـ روائع البيان : محمّد علي الصّابوني . مكتبة الغزالي ـ دمشق ، ومؤسسة مناهل العرفان ـ بيروت ، ط٣، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .
١١٨ـ زاد المسير في علم التّفسير : عبد الرّحمن بن علي بن محمّد الجوزي . دار الفكر، بيروت لبنان ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .
١١٩ـ زاد المعاد : ابن قيّم الجوزيّة ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط . مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .
١٢٠ـ سلسلة الأحاديث الصّحيحة : محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ، ط٤ ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .
١٢١ـ سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة : محمّد ناصر الدّين الألباني . مكتبة المعارف، الرّياض، ط ١ ، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .
١٢٢ـ سنن ابن ماجة : الحافظ محمّد بن يزيد القزويني ، ابن ماجة ، تحقيق د. بشّارعوّاد . دار الجيل ـ بيروت ، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .
١٢٣ـ سنن النسائي : شرح جلال الدّين السيوطي . المكتبة العلميّة ، بيروت .
١٢٤ـ سير أعلام النّبلاء : الذّهبي ، محمّد بن أحمد ، تحقيق شعيب الأرنؤوط . مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت .
١٢٥ـ سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : د. علي الصّلابي ، دار الكتاب الثّقافي ، الأردن ـ إربد .
١٢٦ـ شذرات الذّهب في أخبار من ذهب : ابن العماد ، عبد الحي بن أحمد ، تحقيق عبد القادر

الأرناؤوط ، ومحمود الأرناؤوط . دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .
١٢٧ـ شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك : عبد الله بن عقيل . دار الفكر ، بيروت ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .
١٢٨ـ شرح العقيدة الطّحاويّة : ابن أبي العزّ الحنفي ، خرّج أحاديثه محمّد ناصر الدّين الألبانيّ . المكتب الإسلاميّ ، ط ٥ ، ١٣٩٩هـ .
١٢٩ـ شرح المعلّقات العشر وأخبار شعرائها : أحمد الشّنقيطي ، اعتنى به عبد الرّحمن المصطاوي . دار المعرفة ، بيروت ، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م .
١٣٠ـ شرح ديوان كعب بن زهير ـ رضي الله عنه ـ : أبو سعيد السكريّ . الدار القوميّة ، القاهرة .
١٣١ـ شرح رياض الصّالحين : محمّد بن صالح العثيمين . دار الوطن ، ط١، ١٤١٦هـ .
١٣٢ـ شرح نهج البلاغة : عبد الحميد بن أبي الحديد . دار مكتبة الحياة ، بيروت .
١٣٣ـ شفاء العليل : ابن القيّم الجوزيّة . دار المعرفة ، بيروت .
١٣٤ـ شهيد الدّار عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ : أحمد محمود ، مراجعة أ. د . محمود السّرطاوي ، دار عمّار ، عمّان ، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .
١٣٥ـ صحيح البخاري : البخاري ، محمّد بن إسماعيل. دار الفكر ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
١٣٦ـ صحيح السّيرة النّبويّة : محمّد ناصر الدّين الألباني . المكتبة الإسلاميّة ،عمّان ـ الأردن ، ط١، ١٤٢١هـ .
١٣٧ـ صحيح سنن ابن ماجة : محمّد ناصر الدّين الألبانيّ . مكتب التّربية ، ط ١ ، ١٩٨٦م ـ ١٤٠٧هـ .
١٣٨ـ صحيح سنن التّرمذيّ : محمّد ناصر الدّين الألبانيّ . مكتبة التّربيّة العربيّ لدول الخليج، الرّياض ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .
١٣٩ـ صحيح سنن النّسائي : محمّد ناصر الدّين الألباني . مكتبة التربية العربيّ لدول الخليج ، الرّياض ، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م .
١٤٠ـ صحيح مسلم بشرح النّوويّ : يحيى بن شرف . دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان،

١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .
١٤١ـ صفوة التّفاسير : محمّد علي الصّابوني . دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط٤، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م .
١٤٢ـ صفّين وتداعياتها في الاجتماع السّياسي الإسلامي : د. عبد اللطيف الهميّم . دار عمّار ، عمّان ، الطّبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .
١٤٣ـ صور من حياة الصّحابة : د. عبد الرّحمن رأفت .، بيروت ، دار النّفائس ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .
١٤٤ـ صيد الخاطر : ابن الجوزي . المكتبة التّجاريّة ، مكّة المكرّمة ، ط٤، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
١٤٥ـ ضوابط التّكفير عند أهل السّنّة والجماعة : عبد الله القرني . مؤسسة الرّسالة ، بيروت ، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
١٤٦ـ عظمة الرّسول ﷺ : محمّد بيّومي . دار مكّة المكرّمة ، مصر، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .
١٤٧ـ علم أصول الفقه : عبد الوهّاب خلاف . دار القلم ، الكويت .
١٤٨ـ عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ : بسّام العسلي . دار النّفائس ، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م .
١٤٩ـ عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ : عباس محمود العقاد . شركة نهضة مصر، ط٢، ٢٠٠٥م.
١٥٠ـ فتاوى الشّيخ كشك : عبد الحميد كشك . دار المختار الإسلاميّ ، القاهرة .
١٥١ـ فتاوى علماء البلد الحرام : د. خالد الجريسي . مؤسّسة الجريسي ، الرّياض ، ط٣، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م .
١٥٢ـ فتح الباري : ابن حجر العسقلاني . دار إحياء التّراث العربي ، بيروت ـ لبنان ، ط٢، ١٤٠٢هـ.
١٥٣ـ فتح القدير : محمّد بن علي الشّوكاني . دار الخير ، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

١٥٤ـ فتنة مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ : د. محمّد الغبّان . مكتبة العبيكان ، الرّياض ، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .
١٥٥ـ فصل الخطاب في مواقف الأصحاب : محمّد الغرسي . دار القلم ، دمشق ، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م .
١٥٦ـ فضائل مكّة وحرمة البيت الحرام : عاتق البلادي . دار مكّة ، مكّة المكرّمة ، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م .
١٥٧ـ فقه السّنّة : السّيّد سابق . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٨، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
١٥٨ـ فقه السّيرة النّبويّة : د. محمّد سعيد البوطي . دار الفكر المعاصر ـ بيروت ، ودار الفكر ـ دمشق ، ط٢٦ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
١٥٩ـ فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن : ابن الجوزيّ ، تحقيق رشيد العبيدي . مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ ، بغداد ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .
١٦٠ـ في رحاب التّفسير : عبد الحميد كشك . المكتب المصري الحديث ، القاهرة .
١٦١ـ قراع الأسنَّة : عبد العزيز اليمني . مكتبة الحرمين ، القاهرة ، ط٢، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
١٦٢ـ كتاب الأذكياء : عبد الرّحمن بن الجوزي ، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة ، بيروت ، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .
١٦٣ـ كتاب التّاريخ الكبير : البخاري ، محمّد بن إسماعيل ، تحقيق مصطفى عبد القادر ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .
١٦٤ـ كتاب الثّقات : محمّد بن حبّان ، دائرة المعارف العثمانيّة ، حيدر أباد ، ط١، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .
١٦٥ـ كتاب الزّهد : أحمد بن حنبل . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .
١٦٦ـ كتاب الضّعفاء الصّغير : البخاري ، محمّد بن إسماعيل ، تحقيق محمود إبراهيم . دار المعرفة ، بيروت ، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .
١٦٧ـ كتاب الضّعفاء الكبير : محمّد بن عمرو العقيلي ، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي . دار

الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١ .
١٦٨ـ كتاب الضّعفاء والمتروكين : ابن الجوزي، تحقيق عبد الله القاضي . دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .
١٦٩ـ كتاب العلل ومعرفة الرّجال : أحمد بن حنبل، تحقيق د. وصي الله بن محمّد . المكتب الإسلاميّ ـ بيروت، ودار الخاني ـ الرّياض، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
١٧٠ـ كتاب الكفاية في علم الرّواية : الخطيب البغداديّ، أحمد بن عليّ . المكتبة العلميّة، المدينة المنوَّرة .
١٧١ـ كتاب المراسيل : عبد الرّحمن بن أبي حاتم الرّازي، علّق عليه أحمد عصام الكاتب . دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م ـ ١٤٠٣هـ .
١٧٢ـ كتاب خصائص أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : النّسائي، أحمد بن شعيب، تحقيق أبو إسحاق الحويني . دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .
١٧٣ـ كتاب رياض النّفوس : عبد الله المالكي . دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .
١٧٤ـ كتاب عيون الأخبار : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوريّ . دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .
١٧٥ـ كتاب فضائل الصّحابة : أحمد بن حنبل، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .
١٧٦ـ كشف الشّبهات : محمّد بن عبد الوهّاب، شرح محمّد بن العثيمين . دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .
١٧٧ـ كنز العمّال : علاء الدّين علي المتّقي بن حسام الدّين الهندي . مؤسسة الرّسالة، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .
١٧٨ـ لسان العرب : ابن منظور . دار إحياء التّراث العربي، ومؤسّسة التّاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، ط ١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م .

١٧٩ـ لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني ، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدّة . دار البشائر الإسلاميّة ، بيروت ـ لبنان ، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
١٨٠ـ مجمّع الزّوائد ومنبع الفوائد : نور الدّين علي بن أبي بكر الهيثميّ . مكتبة القدسى ، القاهرة .
١٨١ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية : ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن محمّد، مطابع الرّياض ـ الرّياض ، ط٢، ١٩٦١م .
١٨٢ـ محمّد رسول الله ﷺ : محمّد الصّادق عرجون . دار القلم ، دمشق ، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .
١٨٣ـ مختصر إتحاف السّادة المهرة بزوائد المسانيد العشرة : البوصيري ، أحمد بن أبي بكر ، تحقيق سيّد كسروي . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م .
١٨٤ـ مختصر الشّمائل المحمّديّة للإمام التّرمذي : اختصار وتحقيق محمّد ناصر الدّين الألبانيّ . مكتبة المعارف ، الرّياض ، ط ٣ ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م .
١٨٥ـ مختصر الصّواعق المرسلة : ابن قيّم الجوزيّة ، تحقيق سيّد إبراهيم . دار الحديث ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .
١٨٦ـ مروج الذّهب : المسعودي . مؤسسة الأعلمي ، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .
١٨٧ـ مرويّات معاوية ـ رضي الله عنه ـ في تاريخ الطّبري : د. خالد الغيث . دار الإيمان ، إسكندريّة .
١٨٨ـ مسند أبي يعلى الموصلي : أحمد بن علي التميمي ، تحقيق حسين سليم أسد . دار المأمون للتّراث ، دمشق ، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م .
١٨٩ـ مصنّف ابن أبي شيبة : عبد الله بن أبي شيبة ، صححه مختار أحمد الندوي.منشورات إدارة القرآن والعلوم الإسلاميّة ، باكستان ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .
١٩٠ـ معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ : د. علي الصّلابي . دار المعرفة ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٦م ـ ١٤٢٧هـ .
١٩١ـ معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ صحابيّ كبير وملك مجاهد : منير الغضبان ، دار

القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.
١٩٢ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكرالسّيوطي، تحقيق علي البجاوي. دار الفكر العربي.
١٩٣ـ معجم أسامي الرّواة: محمّد ناصر الدّين الألبانيّ. دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
١٩٤ـ معجم إعراب ألفاظ القرآن الكريم: د. محمّد سيّد طنطاوي. مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٩٨م.
١٩٥ـ معجم البلدان: ياقوت الحموي. دار صادر، بيروت.
١٩٦ـ معجم شيوخ الطّبري: أكرم محمّد الفالوجي. الدّار الأثريّة ـ عمّان، ودار ابن عفّان ـ القاهرة، ط ١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.
١٩٧ـ معرفة علوم الحديث: الحاكم محمّد بن عبد الله. المكتبة العلميّة ـ المدينة المنوّرة، ودار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.
١٩٨ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاريّ، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. المكتبة العصريّة، صيدا ـ بيروت، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.
١٩٩ـ مقدمة ابن خلدون: عبد الرّحمن بن محمّد بن خلدون. دار الجيل، بيروت.
٢٠٠ـ مناقب الإمام أحمد بن حنبل: عبد الرّحمن المشهور بابن الجوزي. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.
٢٠١ـ من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم: محمّد متولي منصور. ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
٢٠٢ـ من كنوز السّنّة: محمّد علي الصّابوني، دار الصّابوني، ط٥، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٢٠٣ـ منهاج السّنّة النّبويّة: ابن تيمية، تحقيق د. محمّد رشاد. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
٢٠٤ـ موسوعة أطراف الحديث النّبويّ الشّريف: محمّد السّعيد زغلول. عالم التّراث، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٢٠٥ـ نصب الرّاية لأحاديث الهداية : عبد الله بن يوسف الحنفي . دار القبلة جدّة ، ومؤسسة الريان بيروت ، ط٤، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .
٢٠٦ـ نصب المجانيق لنسف رواية الغرانيق : الألباني . المكتب الإسلامي ، دمشق.
٢٠٧ـ نهج البلاغة : محمّد عبدة . دار أسامة ، بيروت ، ١٩٨٦م .
٢٠٨ـ نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين : محمّد الخضري بك . مكتبة الرّسالة ، عمّان ـ الأردنّ.
٢٠٩ـ نيل الأوطار : محمّد بن علي الشّوكاني . دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣م .
٢١٠ـ وقعة صفّين : نصر بن مزاحم ، تحقيق عبد السّلام هارون . المؤسّسة العربية الحديثة، القاهرة ، ط٣، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

***

الفهرس

* * *

صدر للمؤلّف

١ـ اكتساح السّحر : تقديم ومراجعة أ. د. راجح الكردي ، دار الفرقان ، ط١، عمّان ، ١٩٩٠م .

٢ـ قصّة يوسف ـ عليه السّلام ـ في القرآن الكريم : تقديم ومراجعة : أ.د أحمد نوفل ، أ.د محمود السّرطاوي ، أ.د أحمد شكري . دار عمّار ، عمّان ، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

٣ـ شهيد الدّار عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ : تقديم ومراجعة أ. د محمود السَّرطاوي. دار عمّار ، عمّان ، ط١ ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

***